

موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

إسلام من التراث

الصاحب بن عباد
محمد بن محمد بن النعمان الشيخ المفيد
منهم الطوسي في تفسير القرآن
السيد علي آل طاووس

المجلد الثاني عشر

دار الموثق العربي

بيروت

الشيخ محمد حسن آل ياسين
موسوعة العلامة الكبير



موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسين بن ياسين
المؤلفات

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن الزيات

المؤلفات

اعلام من التراث

الصاحب بن عباد

محمد بن محمد بن النعمان "الشيخ المفيد"

منهج الطوسي في تفسير القرآني

الشيخ علي بن آل طاووس

المجلد الحادي عشر

دار الشؤون العربية

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناسخ
الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م



دار المؤرخ العربي

بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاذ القريين - بناية مختلة

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - صوب: ٢٤ / ١٢٤

البريد الإلكتروني: al_mouarekh@hotmail.com

www.al-mouarekh.com

دَلِيلُ مَوْسُوعَةِ الْعَلَامَةِ الْكَبِيرِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

المؤلفات

المجلد صفر (١): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- الله بين الفطرة والدليل
- العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- النبوة
- الإمامة
- المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنين رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- في رحاب القرآن
- عباد الرحمن
- نهج البلاغة.. لمن؟
- المهدي المنتظر (عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- المادة بين الأزلية والحدوث
- الإنسان بين الخلق والتطور
- هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- على هامش كتاب العروة الوثقى
- مذكرات في الفقه الاستدلالي (١ و ٢)
- مناسك العمرة المفردة
- بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: أعلام من التراث

- صاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصناعات

● شعر تراثي :

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرک علی دیوان الخبزارزی المتوفی سنة ۳۳۰ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة

● الأعمال اللغوية :

- صيغة (فَعَّلَ) في العربية
- (فَعِيلٌ) أم (فَعِيلٌ)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نظم إلى
- جوهرة الجماهرة للمصاحب إسماعيل بن عبّاد ۳۲۶ - ۳۸۵ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعنى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهی في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ۳/۱

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ۲/۱

تصدير لمعالي الأستاذ الكبير العلامة الشيخ محمد رضا الشيببي

ظهرت حتى الآن بحوث غير قليلة عن صاحب أبي القاسم إسماعيل بن عبّاد - رحمه الله -، وهذه البحوث لجمهرة من الباحثين والمؤرخين والأدباء متقدمين ومحدثين، غير أن جميع ما كتب عن صاحب حتى هذه الأيام الأخيرة يعوزه الإحاطة والاستيعاب، إلى أن جاءت نوبة الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين - وهو ممّن شغفهم أدب صاحب وفضله وطريقته ومنهجه حباً - فعمد إلى هذه فسدّها بهذه الدراسة القيّمة على وجهٍ حالفه التوفيق فيها، فهي دراسة وافية جامعة تناول فيها الأستاذ المؤلف - حرسه الله - نواحي انفراد بها مما يتعلق بابن عبّاد ورجع فيها إلى عشراتٍ من المآخذ والمراجع التاريخية وغيرها، ولم يكتف بذلك بل ناقش ما ناقش مما جاء في تلك المراجع حتى خلص إلى رأيٍ اختاره ورجّحه - شأن الباحث المنقّب - كما تجد ذلك ظاهراً في أكثر فصول الكتاب، ومن ذلك فصول عقدها للبحث في سيرة الوزير العالم المترجم له قبل استيزاره وبعد ذلك، وأخرى خصّصها بالبحث عن نسبه وبلده، وثالثة عن شيوخه وأساتذته وأصحابه، وعن علومه وفنونه وأخلاقه وملكاته.

وخلاصة القول ما أكثر الطرائف والفوائد في هذا السّفر الممتع،

ومن ذلك تلك المناقشة الحصيفة لبعض آراء أبي حيّان التوحيدي في رسالته المعروفة عن «مثالب الوزيرين»، وهي مناقشة خلص المؤلف منها إلى أنّ الشيخ أبا حيّان كان منطوياً على حسيكة من الحسد لابن عبّاد، هذا ويطول بنا نفس القول إذا أردنا التوسع في التنويه بمميزات هذه الدراسة، وإنّي لأرجو أن يحذو حذو الأستاذ المؤلف وأن يترسّم خطاه في البحث سائر المنتمين إلى الحوزة العلمية وأن يربأوا بأنفسهم عن خطة الجمود، وإليه تعالى أبتهل أن يحالفه التوفيق سواء أكان ذلك في التأليف أم في نشر «نفائس المخطوطات» خصوصاً ديوان الصاحب المترجم له الذي ظفر المؤلف - فيما علمنا - ببعض نسخه وعني بدراستها ثم أضاف إليها ما عثر عليه من شعره في شتى الكتب والأسفار، إلى غير ذلك من رسائله فإن الصاحب تفوّق في الصناعتين وجوّد في المنظوم والمنثور، ولا يخفى أن الشيخ الفاضل أطرف المكتبة العربية حتى الآن بتحقيق طائفة من الرسائل والمخطوطات النادرة ونشرها، وبذل في هذه الناحية جهداً يستحق العُضد البالغ والتشجيع.

هذا وإنه ليسرني - في الختام - تقديم هذا الكتاب إلى المعنيين بدراسة الموضوعات الأدبية والتاريخية، ولا يخالجنّي أدنى شك في الإقبال عليه وتقدير جهد المؤلف فيه من قبل محافلنا الأدبية أحسن تقدير.

محمد رضا الشيببي

جمادي الآخرة ١٣٧٦

١٩٥٧/١/٢٣



الصَّاحِبُ بْنُ عِبَادَةَ
حَيَاتِهِ وَأَدَبِهِ

مَقَلَمَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى

١

ترجع معرفتي بابن عبّاد إلى سنين خلت: يوم صمّمتُ على إصدار المجموعة الأولى من «نقائس المخطوطات» وتضمينها رسالتين له في بعض المباحث الكلامية والتاريخية، وكان من واجبي في تقديم الرسالتين أن أعرّف مؤلفهما وأشير إلى موجزٍ من ترجمته، فرجعت إلى المصادر الكبرى لهذا الغرض وقرأت سائر ما ضمته هذه المصادر من أحاديث وتفصيل تتعلق بالصاحب، فإذا بها تدلّني على شخصية تاريخية كبيرة كان لها يد بارزة وشأن جليل في عالم العلم والأدب، والوزارة والإدارة، والدين والدولة، في القرن الرابع الهجري.

ورجعت إلى مؤلفات القدامى والمحدثين فاحصاً عن كتاب مستقل يعنى بترجمة هذا الرجل الكبير فلم أجد سوى رسالة للسيد أبي القاسم القوبائي ألفها عام (١٢٥٩هـ) ورسالة أخرى للأستاذ المعاصر خليل مردم، وكلا الرسالتين - باختصارهما وإيجازهما وتقليدهما للسابقين في

آرائهم وجمعهما شتات الأقوال المدونة من دون تمحيص - لا تعطيان الصورة الكافية المطلوبة لهذا الوزير الأديب.

وأخذت - آنثذ - ما كان يحتاجه التقديم من ترجمة الصاحب عازماً على العودة ثانية إلى الموضوع شرحاً وتمحيصاً وبحثاً وتحليلاً، آملاً أن يتيسر لي تعريف هذا الرجل للملأ العربي تعريفاً قريباً إلى الواقع بالمقدار المستطاع.

٢

وعدت إلى صاحبي - مرة أخرى - قبل عام، فبدأت بتصوير سائر كتبه ورسائله المخطوطة الموثقة في خزائن الكتب في العالم، ثم درستها بإمعان لأتخذ منها المصدر الأول لبحثي المفصل، وعرّجت - بعد الانتهاء منها - على المصادر القديمة والحديثة استقرؤها الواقع وأتساءل منها عن الحقيقة، فرأيت فيها من الخبط والخلط؛ ومن آمالي الحب الأعمى والحقن المتطامن؛ ومن تأثيرات الميول والنزعات الدينية والسياسية والأدبية المختلفة؛ ما مسخ الحقائق وشوّه الوقائع وضيع اللباب الغض بين أكوامٍ مكدسة من القشور والحواشي والتعليقات.

رأيت الشعالي - مثلاً - وقد ارتفع بالصاحب إلى حد المبالغة الصارخة، فنسب له ما يشبه العصمة في كل أفعاله، وما يشبه الإعجاز في كل أقواله، وأحلّه من الرتب والمنازل ما تقصر عنه رتب الملوك ومنازل الخلفاء فضلاً عن الأمراء والوزراء.

ورأيت أبا حيّان التوحيدي - مثلاً - وقد أهوى بالصاحب إلى الحضيض، فنسب له سخف التفكير وركة التعبير وسلاطة اللسان وقلة العقل وسوء السليقة وضحولة المعلومات، وإلى آخر ما شاكل ذلك من مفردات قاموس الشتم والسباب.

وكان لكلٍ من الثعالبي وأبي حيان - بعدهما - من يحتاج بأقوالهما ويعتبرها الحق والحق وحده، كما كان بين هاتين الدرجتين من الإفراط والتفريط درجات كثيرة من الآراء المتضاربة والأقوال المختلفة، لم تسجل بشكلٍ حر محايد إلا فيما شذ وندر.

٣

وكانت أهم محاولاتي في بحثي هذا أن أكون حراً محايداً بمقدار ما أستطيع، فلم أغرف - مع المادحين - من بحرهم، ولم أركض - مع الحاقدين - في ميدانهم، بل رحمت أؤيد هذا تارة وأؤيد ذاك ثانية، وأخالفهما - كليهما - مرة أخرى، رغبة في استجلاء الحقائق وكشف الغوامض، وحباً في بيان الواقع التاريخي بعيداً عن النزعات والأهواء والخضوع للعاطفة.

لقد وقفت عند كثير من الروايات والفروض موقف المشكك المتردد، فلم أعبأ بالجلبة اللفظية وقوائم السند وأسماء المروي عنهم، ولم أكثرث بجمال التعبير وتأنق السجع وبلاغة البيان، وكان أبو حيان التوحيدي على رأس قائمة هؤلاء الرواة المحذّثين المكثرين، فقد وقفت لديه طويلاً وتأملت كلامه ملياً، ورأيت كيف يتهم نفسه من طرفٍ خفي فيقول: «إني رجل مظلوم من جهته، وعاتب عليه في معاملتي، وشديد الغيظ لحرمانني، وإن وصفته أريبتُ منتصفاً، وانتصفتُ منه مسرفاً، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب أو عارياً منهما جملة، كان الوصف أصدق، والصدق به أخلق»^(١).

ثم رأيته يطلب من الوزير ابن سعدان كتمان الرسالة التي كتبها في «مثالب الصاحب وابن العميد» خوفاً من الصاحب وبطشه لأن «جانبه مهيب ولمكره ديب».

وعجيب جداً من خوف أبي حيان من الصاحب وهو بعيد عنه كل البعد، وفي كنف دولة أخرى وحكم آخر، وتحت حكم الوزير ابن سعدان وزير البلاط النافذ الكلمة في بغداد، فما سبب هذا الكتمان؟ ولم هذا الخوف؟ وهل يرشدنا ذلك إلى اشتمال الرسالة على كثير من الوضع والكذب والتلفيق عن ألسنة بعض الأحياء الذي يخشى تكذيبهم لما نسب إليهم؟

ووقفت مرة أخرى لدى روايات بعض المؤرخين في تعيين مذهبه، حيث رأيتها خاضعة للعاطفة كل الخضوع، بل كان لهذا البعض في تأويل كلمات الصاحب وحملها على تعيين ما لم يُردّ وعلى النحو الذي لم يُقصد، تمحل وتعسف وتكلف لا يلتئم مع روح البحث العلمي الصريح.

وهكذا كان منهجي في البحث هو الرجوع أولاً إلى كلمات ابن عبّاد نفسه وتصريحاته، ثم إلى تحقيق النصوص الأخرى والأخذ بالراجع منها بلا تأويل أو تفسير أو تحميل لألفاظها ما لا تطبق.

ثم كان من منهجي أيضاً مخالفة عشاق الدراسات المنهجية في شأن النصوص التاريخية والأدبية، حيث دأب أولئك على نقل تلك النصوص بالمعنى والفحوى، ليلمس القارئ مقدار بلاغتهم في التعبير، وتمكنهم من البيان، وجمال تنميقهم لتلك النصوص.

أما أنا فلست من الذاهبين هذا المذهب، بل جعلت كل همي أن

أنقل النصوص بحذافيرها - فيما يحتاج إلى الاستشهاد بالنص -، ثم التعليق عليها بما يرجح لديّ من تأييد أو تردد أو دحض، وكل غرضي من ذلك أن أشرك القارئ معي في الاطلاع على الروايات التاريخية المتضاربة، فلعله يصل - بعد اطلاعه - إلى نتائج أخرى تتميز بالدقة والرجحان، وإن خالفني فيها أو لم يرجح ما أذهب إليه.

أقول هذا، ولا أقصد منه الطعن في أساليب المحدثين في البحث، فلهم رأيهم في ذلك، ولأسلوبهم خصائصه وميزاته المعروفة، ولكنني وددت أن أشرح للقارئ رأبي في الموضوع، مع الاحتفاظ باحترام سائر وجهات النظر الأخرى في ذلك.

٤

ويسرني أن أسجل في هذه المقدمة أن هذا الكتاب هو الأول في سلسلة «مكتبة الصاحب بن عباد» التي أرجو أن يوفقني الله تعالى فيها فأنتشر سائر آثار الصاحب المخطوطة على التوالي، وسيكون «ديوان الصاحب» هو الكتاب الثاني من هذه السلسلة، وتتلوه كتبه الأخرى كـ«الإقناع في العروض وتخريج القوافي» و«كتاب الفرق بين الضاد والظاء» و«كتاب المنظومة الفريدة» و«كتاب الروزنامجة».

كما أرجو أن أوفق إلى إعادة نشر بعض مؤلفات الصاحب المطبوعة بتحقيق أكثر وتدقيق أوفر، بعد أن عثرت على نسخ خطية منها تدل على وقوع بعض الأخطاء في المطبوع، ومنها: «كتاب الكشف عن مساوي شعر المتنبي» و«كتاب الإبانة عن مذهب أهل العدل».

ولا يسعني - في الختام - إلا أن أسجل شكري لسائر من أزرني في تحضير مادة هذا الكتاب، من هيئات ثقافية ومؤسسات علمية وأساتذة

كرام، راجياً للجميع تسديد الخطى في ميادين العمل العلمي المثمر
والجهد الثقافي البناء، والله تعالى وليُّ التوفيق.

محمد حسن آل ياسين

الكاظمية ١٨/٧/١٣٧٦هـ

١٩/٢/١٩٥٧م



القسم الأول

سيرته

اسمه ونسبه وكنيته:

هو إسماعيل بن عبّاد بن العباس بن عبّاد بن أحمد بن إدريس .
هكذا ساق أكثر المؤرخين سلسلة نسبه^(١)، ولم نعثر على ما
يخالف ذلك إلا في بيتين من الشعر أُبدل فيهما اسم «عبّاد» جد أبي
إسماعيل بـ«عبدالله»، وهما:

أ - بيت الشاعر السلامي:

يا ابن عبّاد بن عبا س بن عبدالله حرها^(٢)

ب - بيت الشاعر الرستمي:

يهني ابن عبّاد بن عباس بن عب دالله نعمي بالكرامة تردف^(٣)

(١) ومنهم: ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب: ١١٣/٣، وابن خلكان في
وفيات الأعيان: ٢٠٦/١، والسيوطي في بغية الوعاة: ١٩٦، وعبد الرحيم
العباسي في معاهد التنصيص: ١٥٢/٢، وابن كثير في البداية والنهاية: ١١/
٣١٤، وأبو نعيم في أخبار أصبهان: ١٣٨/٢ - في ترجمة عبّاد -، والقوباني في
الإرشاد: ٨.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٥٢/٣، ومعجم الأدباء: ٢٣٦/٦.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٨٨/٣، ومعجم الأدباء: ١٧٠/٦.

والظاهر أن هذين الشاعرين لم يقصدا من تسمية عبّاد بـ«عبدالله» أنّ اسمه كذلك، ولكن استقامة الوزن وضرورة الشعر قد اضطرتهما لذلك. خصوصاً وإن لفظ عبّاد مشتق من العبادة أو العبودية، وكلتاها مرتبطة بالله تعالى^(١).

وأما كنيته فقد زحرت كتب التاريخ التي ذكرت إسماعيل؛ ومعاجم الأدب التي روت ما قيل في مدحه؛ بتكنيته بـ«أبي القاسم»، ولما مدحه أبو الرجاء الضرير الشاعر بقصيدته العصماء؛ وانتهى في إنشاده إلى قوله:

إلى ابن عبّاد أبي القاسم الـ صاحب إسماعيل كافي الكفاة
قال إسماعيل: «قد كنت والله أشتهي بأن تجتمع كنيتي واسمي
ولقبي واسم أبي في بيت»^(٢).

وروي أنه «دخل إلى صاحب رجل لا يعرفه، فقال له الصاحب:
أبو من؟ فأشد الرجل:

وتتفق الأسماء في اللفظ والكنى كثيراً ولكن لا تلاقى الخلائق
فقال له: اجلس يا أبا القاسم»^(٣).

وإذا فتكنية إسماعيل بهذه الكنية أمر لا شك فيه، ولكني لم أعر
على وليد لإسماعيل يدعى «قاسماً» ليكنى به أبوه، بل صرحت المصادر

(١) وردت تسمية جد أبي إسماعيل باسم «عباد» في عدة من الكتب التاريخية - غير التي ذكرناها في الهامش الأول -، ومن تلك الكتب: معجم الأدباء: ١٦٨/٦، والمنتظم: ١٨٤/٧ - في ترجمة أبي إسماعيل -، والأنساب: ٣٦٤، واللباب: ٧٧/٢.

(٢) معجم الأدباء: ٢٥٣/٦.

(٣) معجم الأدباء: ١٨٥/٦.

التاريخية إنه لم يرزق إلا بنتاً واحدة، وظني أن هذه الكنية قد كناه بها أبوه عباد تيمناً وتبركاً بها حيث كانت كنية رسول الله (ص)؛ وكان من المتعارف جداً أن يكنى المولود ويلقب - عند ولادته وتسميته - بكنية ولقب يختارهما الأب كما يختار الاسم له.

لقبه:

لإسماعيل بن عباد لقبان مشهوران:

أولهما - الصاحب:

ولقد لُقِّبَ به سائر المؤرخين والكتاب والشعراء حتى بلغ حدَّ الاسم؛ فاستعاض بعض المؤرخين كما استعاض مشهور الناس عن ذكر اسمه بذكر هذا اللقب.

ويقول ابن خلكان في بيان سبب تلقيبه بذلك:

«هو أول من لُقِّبَ بالصاحب من الوزراء، لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد فقبل له صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه»^(١).

ويؤيد ابن خلكان - في تعيين سبب اللقب وكونه مأخوذاً من مصاحبة إسماعيل لابن العميد - لفيف من المؤرخين نذكر منهم:

أ - ابن العماد الحنبلي حيث يقول:

«صحب أبا الفضل الوزير ابن العميد، وأخذ عنه الأدب والشعر والترسل، وبصحبه لقب بالصاحب»^(٢).

(١) وفيات الأعيان: ٢٠٧/١.

(٢) شذرات الذهب: ١١٤/٣.

ب - أبو الفداء حيث يقول:

«وهو أول من لُقِّب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد فقبل له صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولَّى الوزارة»^(١).

وخالف لقيف آخر من المؤرخين في ذلك، فعزوا اللقب إلى سبب آخر غير السابق، وإليك بعض ما قالوا:

أ - قال ابن تغري بردي:

«أول وزير سمي بالصاحب، لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا فسماه الصاحب فغلب عليه، ثم سمي به كل من وُلِّي الوزارة حتى حرافيش زماننا حَمَلَة اللحم وأخذة المكوس!»^(٢).

ب - وقال السيوطي:

«هو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب»^(٣).

ج - وقال ياقوت الحموي:

«كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي، ومؤيد الدولة حينئذ أمير، وأحسن في خدمته، وحصل له عنده بَقْدَم الخدمة قَدَم، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب»^(٤).

(١) تاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢.

(٢) النجوم الزاهرة: ١٧٠/٤.

(٣) بغية الوعاة: ١٩٦.

(٤) معجم الأدياء: ١٧٣/٦.

د - ورَجَّحَ عبد الرحيم العباسي هذا السبب مضعفاً ما روي من تلقيه بذلك لصحبه لابن العميد^(١).

هـ - وقال الصابي:

«إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسمّاه الصاحب؛ فاستمرَّ عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده»^(٢).

وما كان لي من طريق لترجيح أحد السببين لولا كلمة الصابي وصراحتها في اختيار سببٍ معين لهذا اللقب، والصابي - وقد عاصر الصاحب واتصل به واطلع على كثير من شؤونِه وأخباره - حجة في هذا المقام لا يصح للمؤرخ أن يتجاوزها بقليل أو كثير، وواضح أن المعلومات التي تستند إلى المشاهدة والاطلاع لا تعارض - أو لا تطرح على الأقل - بمجرد قول يُسند إلى راوية؛ أو نقل ينقل عن كتاب متأخر وفي كتاب متأخر أيضاً، ولا مندوحة - إذن - من الأخذ بما يقوله الصابي في بيان سبب هذا التلقب.

ومما يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون - ممن روينا نصوصهم فيما سبق - من صيرورة هذا اللقب بعد إسماعيل لقباً لكل وزير ورئيس «حتى حملة اللحم وأخذة المكوس» - على حد تعبير ابن تغرى -، ومعنى ذلك إنه لقب رسمي منحه الأمير مؤيد الدولة لوزيره فورثته الأجيال بعد مؤيد الدولة وإسماعيل لقباً كبيراً يلقب به صاحب السلطات ومدير شؤون الرعية، ولو كان هذا اللقب مشتقاً من مصاحبة ابن العميد لما صحَّ تلقب الوزراء به بعد ابن عباد، لأن مصاحبة ابن العميد كانت صحبة

(١) معاهد التنصيص: ١٥٢/٢.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٠٧/١ نقلاً عن كتاب «التاجي» المصابي.

دراسة وكتابة وأدب، وليس من الصحيح سحب الألقاب الأدبية من نطاقها الخاص إلى نطاق المناصب السياسية الكبرى.

ثانيهما - كافي الكفاة:

يقول ياقوت الحموي:

«كتب لمؤيد الدولة . . . وأحسن في خدمته . . . وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه . . . كافي الكفاة»^(١).

ومن قول ياقوت - هذا - نعرف أن هذا اللقب سياسي أيضاً، وقد منح من الأمير مؤيد الدولة، وورد في الشعر كثيراً حيث جاء في:

أ - شعر العميري قاضي قزوين إذ يقول:

العميري عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة^(٢)

ب - وشعر أبي منصور الجرجاني إذ يقول:

قل للوزير المرتجى كافي الكفاة الملتجى^(٣)

ج - وشعر أبي القاسم ابن بابك إذ يقول:

كافي الكفاة إذا انثنت مقل القنا الخطي رمداً^(٤)

د - وشعر بعض من هجا الصاحب إذ يقول:

متلقب كافي الكفاة وإنما هو في الحقيقة كافر الكفار^(٥)

(١) معجم الأدباء: ١٧٣/٦.

(٢) يتيمة الدهر: ١٧٤/٣.

(٣) يتيمة الدهر: ١٧٥/٣.

(٤) نفس المصدر: ٢٠٩/٣.

(٥) معجم الأدباء: ٢٢٠/٦.

هـ - وشعر أبي محمد الخازن إذ يقول:

كافي الكفاة المرتجى والسيدي الهادي المفدَى^(١)

و - وشعر أبي الحسن الجوهري إذ يقول:

كافي الكفاة بقصد من صرائمه حامى الحماة بحصد من مناصله^(٢)

إلى كثير وكثير من أمثال ذلك.

والمؤسف جداً أننا لم نهتد إلى نصٍ يكشف لنا سبب هذا التلقيب؛ فنعرفه كمعرفتنا لسبب التلقيب بالصاحب، ولكنه على كل حال لقب مشتق من كفاءة إسماعيل السياسية والعلمية والأدبية، أو من اكتفائه عن المعونة والمشاركة في إدارة شؤون الدولة وتنظيم أمورها.

وبالرغم من أن اللقب المشار إليه كان «كافي الكفاة» بهذا النص؛ فقد ورد في بعض الكتب والمناسبات مختلفاً عن ذلك بتغيير بعض ألفاظه:

جاء في مقدمة كتاب الهداية والضلالة تلقيبه بـ«أكفي الكفاة»^(٣).

وجاء في مرثية أبي القاسم الأصبهاني له:

يا كافي الملك ما وفيت حظك من وصفٍ وإن طال تمجيد وتأبين^(٤)

وواضح أن هذه التعابير لم تكن ألقاباً أخرى غير لقب «كافي الكفاة»، وإنما كان الغرض من استعمال صيغة التفضيل - في التعبير الأول - هو التعظيم والتبجيل، وكان الغرض من التعبير الثاني بيان خدمة

(١) بيتمة الدهر: ٢١٤/٣.

(٢) نفس المصدر: ٢١٦/٣.

(٣) راجع الصفحة الأولى المصورة عن المخطوط. ط طهران ١٣٧٤هـ.

(٤) بيتمة الدهر: ٢٥٣/٣.

إسماعيل للمُلك وكفاءته في ذلك؛ فهي إذن تعابير مقتبسة من اللقب الرئيسي المشار إليه.

تاريخ ولادته:

ولد إسماعيل في اليوم السادس عشر من شهر ذي القعدة الحرام على ما اتفق المؤرخون عليه^(١)، ولم يخالف في ذلك غير أبي حيان التوحيدي الذي ذكر انه ولد لأربع عشرة ليلة من ذي القعدة الحرام^(٢).

وإذا لم تكن في الأصل كلمة «بقيت» بين لفظي «ليلة» و«من»؛ وقد سقطت أثناء نسخ الناسخين، فلا مجال لنا للترجيح بين القولين إلا إذا أخذنا الكثرة مرجحاً يلزم الرضوخ له؛ وهي تذهب إلى تحقق الولادة في اليوم السادس عشر من شهر ذي القعدة - كما ذكرنا قبل قليل -.

هذا كله في تعيين يوم الولادة؛ وأما تعيين السنة فقد مني باختلاف كبير بين المؤرخين يجعل بنا أن ننقل نصوصه ثم نشرح القول الراجح وما يؤيد ترجيحه على سائر الأقوال الأخرى المتضاربة:

١ - ولادته عام ٢٢٠هـ:

قال شهاب الدين النويري: «إسماعيل بن عبّاد توفي في صفر سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وعمره خمس وستون سنة»^(٣).

٢ - ولادته عام نيف وعشرين وثلاثمائة:

نقل ذلك السمعاني في كتابه «الأنساب»^(٤).

(١) وفيات الأعيان: ٢٠٩/١، وشذرات الذهب: ١١٥/٣.

(٢) معجم الأدباء: ٢٠٩/٦.

(٣) نهاية الأرب: ١٠٨/٣.

(٤) ورقة: ٢٦٤.

٢ - ولادته عام ٣٢٤هـ:

ذهب إلى ذلك: السيوطي^(١) والسيد حسن الصدر^(٢) والشيخ آقا بزرك الطهراني^(٣).

وعلل السيد محسن الأمين ذهاب الشيخ آقا بزرك إلى هذا التاريخ: بأنه محاولة لتصحيح ما صرح به الثعالبي من بلوغ ابن عباد الستين من العمر حين وفاته، ولا يلتئم ذلك إلا بتعيين ولادته بهذا التاريخ^(٤).

ولكنني لا أستطيع الإقرار بصحة هذا التعليل، لأن قول الثعالبي لا يتم بهذه المحاولة؛ بل بالقول بولادة الصاحب عام (٣٢٥) ولم يقل بذلك أحد، فلا بد - إذن - من حمل قول الثعالبي - ومن تابعه - على التقريب والتخمين لا النص والتحديد، ويكون - بناء على ذلك - تاريخُ الشيخ آقا بزرك والسيد الصدر مجارةً للسيوطي فيما ذكره، ويدلنا على ذلك ما ذهب إليه آقا بزرك في مناسبة أخرى من تعيين تاريخ الولادة عام (٣٢٦)^(٥).

٤ - ولادته عام ٣٢٦هـ:

ذهب إلى ذلك من القدماء: ابن العماد^(٦)، وابن خلكان^(٧)، وأبو

(١) بغية الوعاة: ١٩٦،

(٢) تأسيس الشيعة: ١٦١.

(٣) الذريعة: ٥٦/١.

(٤) أعيان الشيعة: ٣٢٣/١١.

(٥) الذريعة: ٢١/٤.

(٦) شذرات الذهب: ١١٥/٣.

(٧) وفيات الأعيان: ٢٠٩/١.

الفداء^(١)، وعبدالرحيم العباسي^(٢)، وأبو حيان التوحيدي^(٣)، وياقوت الحموي^(٤)، وأبو نعيم^(٥)، وابن حجر^(٦).

كما ذهب إلى ذلك من المتأخرين: الشيخ عباس القمي^(٧)، وآقا بزرك^(٨)، والأساتذة المستشرقون في دائرة المعارف^(٩)، والزركلي^(١٠)، والبستاني^(١١)، وآدم متز^(١٢)، والاسكندري ورفيقه^(١٣).

ومن التدقيق في هذه النقول المتضاربة نستخلص ما يلي:

أ - لم أجد في قول النويري قصد تنصيب على تعيين عام الولادة، وأظن أنه أراد بياناً تقريبياً لعمر صاحب حين وفاته.

ب - عبارة السمعاني - بإجمالها وعدم تعيينها - قابلة للانطباق على عدة أعوام، فلا تكون مخالفة لبقية النصوص التي ذهبت إلى عام ٣٢٤ أو ٣٢٦.

(١) تاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢.

(٢) معاهد التنصيب: ١٥٢/٢.

(٣) معجم الأدباء: ٢٠٨/٦.

(٤) معجم الأدباء: ١٧١/٦.

(٥) أخبار أصبهان: ٢١٤/١.

(٦) لسان الميزان: ٤١٤/١.

(٧) الكنى والألقاب: ٣٦٥/٢.

(٨) الذريعة: ٢١/٤.

(٩) دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية -: ٢٢٠/١.

(١٠) الأعلام: ١٠٦/١.

(١١) دائرة المعارف: ٥٨٠/١.

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - الترجمة العربية -: ١٣٤/١.

(١٣) الوسيط في الأدب العربي: ٢١٢.

ج - ذكرنا ما رجحناه من عدم الاعتماد على ما اختاره السيد الصدر والشيخ آقا بزرك.

د - لا يصلح قول السيوطي لمعارضة القول المشهور الذي رجّحه أكثر المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين، وفي ضمن هؤلاء الثعالبي المعاصر للصاحب؛ الذي يلتزم قوله - بالتقريب - مع القول الأخير الذي روينا، وفيهم أيضاً أبو حيان التوحيدي الذي نقل روايته عن أحد المتصلين بالصاحب نفسه، كما أن فيهم أيضاً جماعة من المتقدمين على السيوطي بمئات السنين كابن خلكان وياقوت وأمثالهما.

هـ - وإذا فقد ولد ابن عبّاد عام ٣٢٦هـ على أرجح الأقوال؛ أو هو القول الراجح الذي لا يعارض بغيره.

آبأؤه وأمه:

يقول أبو سعيد الرستمي:

ورث الوزارة كابرأ عن كابر موصولة الإسناد بالإسناد^(١)

ويقول أبو بكر الخوارزمي:

«الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودبّ ودرج من وكرها، ورضع أفأويق درّها، وورثها عن آباءه»^(٢).

ويدلنا هذا البيت وهذه الجملة المنشورة على أن آباء الصاحب - ولا نعلم عددهم - كانوا من أقطاب الوزارة والحكم والإدارة في عصرهم، فانتهدت إلى إسماعيل موصولة الإسناد بالإسناد، وموروثة من الآباء والأجداد.

(١) بيتمة الدهر: ١٧٠/٣.

(٢) وفیات الأعيان: ٢٠٦/١، وبيتمة الدهر: ١٧٠/٣.

ولكنَّ المؤسّف اني لم أعثر على تفاصيل وافية فيما يتعلق بأباء
الصاحب وأجداده غير جده وأبيه القريبين، ولعل فيما ضاع من الكتب
وفقد من المصادر ودفن في زوايا المكتبات من المراجع المخطوطة ما
يضم التفاصيل المنشود في هذا الموضوع ومواضيع أخرى مما يتعلق بابن
عبّاد.

ومهما يكن من أمر؛ فنحن لم نعرف من آباء الصاحب غير عباس
وعبّاد، إذ حفظت لنا بعض المصادر نتفاً تتعلق بهما، فترشدنا إلى بعض
ما نريد على نحو الاختصار والإجمال.

ويدلنا على وزارة وعباس - جد إسماعيل - ما نسجله في أدناه:

١ - قول محمد ربيع بن شرف جهان الأردستاني:

«كان أبوه عبّاد وجده عباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني
وزيرين»^(١).

٢ - قول الشاعر الرستمي:

يروى عن العباس عبّاد وزا رته وإسماعيل عن عبّاد^(٢)

٣ - ما يستشعر من كلام الصاحب نفسه إذ يقول:

«وجميع ما أنفقت من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي
وجدي»^(٣).

هذا كل ما لدينا من النصوص المتعلقة بعباس جد الصاحب،
وأظنها كافية في الدلالة على تسنمه كرسي الحكم على الإجمال، أما

(١) الإرشاد: ٨.

(٢) بتيمة الدهر: ٣/١٧٠.

(٣) معجم الأدباء: ٦/٢٥٢.

التفاصيل الأخرى فلا مجال للتخصّص بها لعدم العثور على ما يشير إليها ولو من بعيد.

أما أبو إسماعيل «عبّاد بن العباس» فيظهر من التاريخ أنه كان على جانب كبير من العلم والفضل؛ والفهم والسياسة والكياسة؛ والتقى والورع، وبلغ من ورعه وزهده أن لُقّب بـ«الشيخ الأمين»؛ دلالة على طهارة ضميره؛ ونزاهة يده؛ وقوة إيمانه.

ولم نعث فيما يتعلق بتاريخه في أول أمره إلا على نصين نقلهما أبو حيان التوحّيدي في رسالته «مثالب الوزيرين» نسجلهما فيما يلي:

أ - «والأمين كان ينصر مذهب الأشناني تديناً وطلباً للزلفى عند ربه، والعميد كان يعمل لعاجلته، وإن قلت: كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم. قيل: وكان والد العميد نخالاً في سوق الحنطة بقم»^(١).

ب - لما ظهر من أبي حيان عدم إعجابه برسائل الصاحب - في قصة طويلة -، وبلغ ذلك الصاحب فغضب غضباً شديداً، قال أبو حيان معلقاً على ذلك: «حتى كأني طعنتُ في القرآن، أو رميت الكعبة بنُحْرُق الحويض، أو عقرت ناقة صالح، أو سلحت في بئر زمزم، أو قلت: كان النظام مأبوناً؛ أو مات أبو هاشم في بيت خمّار؛ أو كان عبّاد معلّم صبيان»^(٢).

(١) نفس المصدر: ١٧١/٦.

(٢) معجم الأدباء: ٣٤/١٥ - ٣٥، وقد روى الدكتور أحمد شلبي هذه القصة بتحريف ذيها هكذا: «أو كان الصاحب معلّم صبيان» - تاريخ التربية الإسلامية: ٢٠٤ -، كما أن الأستاذ عبد الرزاق محي الدين روى هذا الذيل محرّفاً هكذا: «أو كان ابن عباد معلّم صبيان» - أبو حيان التوحّيدي: ٢٨٣ -.

وكل ما نفهمه من هذين النصين أن عباداً كان من معلمي الصبيان في أول أمره، ولعلّه كان كذلك في الواقع، ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك، لعدم اعتمادنا على صحة ما يرويه أبو حيان في كتابه «مثالب الوزيرين» على ما يأتي تفصيله.

وسواء أكان معلماً للصبيان أو لم يكن، فقد تطورت الأمور بابن عباس وتقلبت به الأحوال؛ حتى نال رتبة الكتابة، فأصبح كاتباً لركن الدولة ابن بويه - أحد مؤسسي الدولة البويهية في إيران - كما صرح بذلك ياقوت حيث يقول:

«كان... مقدماً في صناعة الكتابة... وكتب الأمين لركن الدولة»^(١).

ثم علا ذكره ولمع نجمه فتقلد الوزارة لركن الدولة كما صرحت به النصوص التالية:

١ - يقول ابن العميد في رسالة يخاطب بها إسماعيل:

«مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته، وابن صاحب تقدمت علينا رياسته»^(٢).

ومنها:

«فمن هذه الدولة جرى ما فضّله الشيخ الأمين من قبله»^(٣).

٢ - يقول فخر الدولة مخاطباً ابن عباد:

(١) معجم الأدباء: ١٧١/٦.

(٢) معجم الأدباء: ٢٢١/٦ و ٢٢٤.

(٣) معجم الأدباء: ٢٢١/٦ و ٢٢٤.

«لك في هذه الدولة من إرث الوزارة كما لنا من إرث الإمارة، فسيب كل واحد منا أن يحتفظ بحقه»^(١).

٣ - صرّح بوزارة عبّاد كلُّ من أبي الفداء^(٢)، وابن الأثير^(٣)، وأبي نعيم^(٤)، وابن خلّكان^(٥)، والسمعاني^(٦).

٤ - مرت قبل قليل كلمة أبي بكر الخوارزمي وشعر أبي سعيد الرستمي، وفيهما صراحة في الدلالة على ما نحن بصدده.

وإذن، فقد كان عبّاد وزيراً لركن الدولة، ولكنَّ شؤون الوزارة لم تكن لتصرفه عن النواحي الأخرى، فلقد وصفه المؤرخون بالعلم والفضل، وذكروا روايته الحديث عن أبي خليفة الفضل بن الحباب البصري - أحد شيوخ الحديث في عصره -، وأبي بكر محمد بن يحيى المروزي البغدادي؛ وجعفر بن محمد القرماني؛ ومحمد بن حيان المازني؛ وجماعة من البغداديين والأصبهانيين والرازيين، كما حدّث عنه لفيف من رجال الرواية؛ كأبي إسحاق بن حمزة الحافظ وأبي الشيخ؛ وابنه الصاحب أبي القاسم إسماعيل؛ وأبي بكر بن مردويه^(٧).

ونقل بعض المؤرخين أن لعباد هذا كتاباً في أحكام القرآن «نصر

(١) نفس المصدر: ١٧٤/٦.

(٢) تاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢.

(٣) اللباب: ٧٧/٢.

(٤) أخبار أصبهان: ١٣٨/٢.

(٥) وفيات الأعيان: ٢١٠/١.

(٦) الأنساب: ٣٦٤.

(٧) راجع في تفصيل ذلك: المنتظم: ١٨٤/٧ - ١٨٥، والأنساب: ٣٦٤، واللباب: ٧٧/٢، وأخبار أصبهان: ١٣٨/٢، ومعجم الأدباء: ١٧٢/٦، والنجوم الزاهرة: ١٧٢/٤.

فيه الاعتزال وجوّد فيه»^(١)، وقد «استحسنه كل من رآه»^(٢)، وكانت بينه «وبين الحسن بن عبد الرحمن بن حمّاد القاضي مكاتبات ومراسلات مذكورة مدوّنة»^(٣).

وفي تاريخ وفاة عبّاد اختلاف غريب ملفت للنظر يحسن بنا سرده قبل بيان ما نرجحه فيه:

١ - وفاته عام ٣٣٤ أو ٣٣٥هـ:

صرّح بذلك ابن خلّكان^(٤)، والسمعاني^(٥)، وابن الأثير^(٦).

٢ - وفاته عام ٣٣٥هـ:

ذكر ذلك الحافظ أبو نعيم^(٧)، والحسن بن محمد بن الحسن القمي المعاصر للصاحب^(٨).

٣ - وفاته عام ٣٨٥هـ:

روى ذلك ابن الجوزي^(٩)، وابن تغري بردي^(١٠)، وياقوت^(١١).

(١) معجم الأدباء: ١٧٢/٦، وقد ذكر هذا الكتاب منسوباً لعباد سائر المؤرخين المذكورين في التعليق المتقدم.

(٢) معجم البلدان: ٨/٦.

(٣) معجم الأدباء: ١٧٢/٦.

(٤) وفيات الأعيان: ٢١٠/١.

(٥) الأنساب: ٣٦٤.

(٦) اللباب: ٧٧/٢.

(٧) أخبار أصبهان: ١٣٨/٢.

(٨) تاريخ قم: ١١، وقد ورد تاريخ الوفاة في هذه الصفحة وفيه سقط من قلم الناسخ كما تدل عليه ص ١٠١.

(٩) المنتظم: ١٨٥/٧.

(١٠) النجوم الزاهرة: ١٧٢/٤.

(١١) معجم الأدباء: ١٧٢/٦.

ولدى التدقيق في الموضوع رأيت أن تحديد وفاته في عام ٣٨٥ عارٍ عن الصحة والصواب، مسترشداً إلى ذلك بأمور:

أ - لم يُنقل عن إسماعيل في أوج عزه ومجده وعظمته أي اتصال له بأبيه أو مراسلة معه أو تحدثٍ عنه أو ذكرٍ له .

ب - إن ركن الدولة قد توفي عام ٣٦٦هـ، ولم نعثِر على نص يشير إلى وزيره عباد وبيان ما أصبح عليه أمره، وهل استؤزر بعد ذلك ومَنْ استؤزره؟ .

ج - يقول فخر الدولة لابن عباد: «لك في هذه الدولة من إرث الوزارة كما لنا من إرث الإمارة» وأي إرث هذا إذا كان عباد حياً؟ وهل يورث الرجل وهو حي يرزق؟

د - يقول ابن العميد: «فمن هذه الدولة جرى ما فضّله وفضّل الشيخ الأمين قبله»، وأية قبليّة لعباد على ابنه إذا ماتا في عام واحد؟ .

هـ - توفيت أم إسماعيل عام ٣٨٤هـ فأين زوجها عنها؟ ولمّ لم يذكر بهذه المناسبة؟

و - إذا كانت وفاته ووفاة ابنه في عام واحد، فإن كانت قبل ابنه فأين مجلس ابنه الذي أعده لتقبل التعزية بأبيه - كما فعل لأمه -، وإن كانت بعد ابنه فأين مجلس الأب الذي جلس فيه لتقبل التعازي بابنه العظيم؟ وأين عنه الشعراء والأدباء والمعزّون وهو وزير يفجع بوزير؟

ز - ألف الحسن القمي كتابه تاريخ قم عام ٣٧٨هـ وقد روى فيه خبر وفاة عباد عام ٣٣٥هـ .

من مجموع ما مرّ نعرف أن هذه الرواية غير قابلة للتصديق، وأظن أن الاشتباه قد ورد من تشاكل ثلاثين وثمانين في النطق والكتابة فسجّله

بعض المؤرخين خطأ ثم تابعه على ذلك من جاء بعده، وروى عنه من دون تأمل وتدقيق.



هذا كله في آباء الصاحب وأما أمه فلم نعرف من تاريخها ما تجب معرفته، بل لم نذكر في كتب التاريخ إلا في مناسبتين ثنتين هما:

١ - ما رواه السيوطي فيما يتعلق بطفولة الصاحب وصباه إذ قال:
«كان في الصغر إذا أراد المضي إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهماً، وتقول: تصدق بهذا على أول فقير تلقاه، فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر»^(١).

٢ - ما رواه ياقوت الحموي فيما يتعلق ببيان جلالته الصاحب وسمو مقامه إذ قال:

«توفيت أم كافي الكفاة بأصبهان، وورد عليه الخبر فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وركب إليه سلطانه وولي نعمته فخر الدولة بن ركن الدولة معزياً، ونزل وجلس عنده طويلاً يعزيه ويسكن منه... فسمعته يقول حين أراد القيام: أيها الصاحب هذا جرح لا يندمل... إلخ»^(٢).

ولا ترشدنا هاتان القصتان لما نود الاطلاع عليه من حياة أم إسماعيل وتاريخها الطويل، بل لا تدل على أكثر من الحب المتبادل والعلاقة المتينة بين الأم وابنها، وهو ما لا يستدعي أي برهنة أو بيان.

(١) بغية الوعاة: ١٩٦، وروى مثل ذلك في معاهد التنصيص: ١٥٤/٢، والكنى والألقاب: ٣٦٩/٢.

(٢) راجع في تفصيل ذلك: معجم الأدباء: ٢٣٨/٦، ومنه نقلنا النص المذكور في المتن.

موطن الصاحب ومسقط رأسه:

في تعيين وطن إسماعيل ومحل ولادته أقوال متضاربة وروايات مختلفة، ونقدّم - فيما يلي - قبل بيان الرأي المنتخب قائمةً بالأقوال التاريخية المتعددة:

١ - من إصطخر:

روى ذلك ابن خلكان^(١) وابن العماد^(٢) وأبو الفداء^(٣) مرددين بينه وبين ميلاده بالطالقان، ولكنّ تعبيرهم مشعر بترجيح إصطخر؛ حيث روا ذلك ثم أردفوه بقولهم: «وقيل بالطالقان» مما يدل على ترجيحهم للنقل الأول.

وروى ذلك صاحب سلم الوصول^(٤) جازماً فيه.

كما روى أبو حيان التوحيدي عن الخليلي عن إسماعيل بن عباد أنه أخبر عن ولادته بإصطخر^(٥).

أما عبد الرحيم العباسي فقد روى القولين - إصطخر وطالقان - من دون أن يرجح أحد القولين على الآخر^(٦).

٢ - من الري:

نقل ذلك أبو القاسم القوبائي عن بعض كتب التاريخ - ولم يذكر اسمه^(٧) - .

(١) وفيات الأعيان: ٢٠٩/١.

(٢) شذرات الذهب: ١١٥/٣.

(٣) تاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢.

(٤) معجم الأدباء: ١٧٠/٦ في الهامش.

(٥) معجم الأدباء: ٢٠٩/٦.

(٦) معاهد التنصيص: ١٥٢/٢.

(٧) الإرشاد: ٥.

٣ - من قزوين:

نقل ابن حجر^(١) أن الرافعي قد ترجم للصاحب في كتابه: «التدوين في علماء قزوين»، كما نقل نصاً يتعلق بهذا الموضوع من الكتاب نفسه، وكذلك لقبه الشيخ آقا بزرك بالقزويني^(٢).

٤ - من كورة فارس:

روى ذلك أبو الحسن البيهقي في كتابه مشارب التجارب على ما نقل عنه^(٣).

٥ - من الطالقان:

والطالقان في كتب البلدان بلدتان: إحداهما تنتسب لخراسان؛ والأخرى تنتسب لقزوين، وابن عبّاد من الطالقان الثانية على ما ذهب إليه ابن تغرى بردى^(٤)، والشيخ الاسكندري^(٥)، وآقا بزرك^(٦)، وياقوت الحموي^(٧)، والسمعاني^(٨) والسيوطي^(٩).

٦ - من أصفهان:

عدّه أبو نعيم من الأصبهانيين^(١٠)، ولقبه ابن شهر آشوب

(١) لسان الميزان: ٤١٦/١.

(٢) الذريعة: ٥٦/١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٥٧/٦.

(٤) النجوم الزاهرة: ١٧٠/٤ و١٧٢.

(٥) الوسيط: ٢١٢.

(٦) الذريعة: ٥٦/١ و٢١/٤.

(٧) معجم الأدباء: ١٦٨/٦، ومعجم البلدان: ٨/٦.

(٨) الأنساب: ٣٦٤.

(٩) بغية الوعاة: ١٩٦.

(١٠) أخبار أصفهان: ٢١٤/١.

بالأصفهاني^(١)، وعَبَّرَ الثعالبي بأن أصفهان هي التي أخرجت الصاحب^(٢).

٧ - من الديلم:

قال أبو حيان التوحيدي: «كان الأمين معلماً بقرية من قرى طالقان الديلم»^(٣)، ولقَّبه الشيخ آقا بزرك الديلمي^(٤).

ولدى نخل هذه النصوص ودراستها نرى أن الشيء الذي يمكن فهمه منها هو ما يلي:

أ - أنه ولد باصطخر كما صرح به إسماعيل نفسه، وكما أشار إليه بعض المؤرخين الإثبات جازمين أو مرجعين، وبما أن اصطخر بلدة من بلدان ولاية فارس فلا تنافي حينئذ بين هذا الترجيح وبين ما رواه البيهقي من ولادته بكورة فارس.

ب - أنه بعد ولادته بقليل سافر إلى طالقان، ولعلَّ عباداً انتقل إلى طالقان لغرض التعليم - كما روى أبو حيان -، وبالنظر إلى صغر سن الصاحب حين انتقال أبيه إلى موطنه الجديد فقد فتح عينيه في طالقان واشتهر في كثير من الكتب التاريخية أنه طالقاني حتى أصبح ذلك من أشهر ما يضاف إلى اسمه، ويروي أبو حيان في كتابه: «مثالب الوزيرين» أنه سأل الخليلي عن محل ولادة ابن عباد فأجابه: «كان عندنا إنه وُلد بطالقان، وقال لنا يوماً: باصطخر»^(٥).

(١) معالم العلماء: ١٣٦.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٦٧/٣.

(٣) معجم الأدباء: ١٧١/٦.

(٤) الذريعة: ٥٦/١ و ٢١/٤.

(٥) معجم الأدباء: ٢٠٩/٦.

وبالنظر إلى قرب قزوين وطالقان إلى جبال الديلم قال أبو حيان باشتغال عبّاد بتعليم الصبيان بقرية من قرى طالقان الديلم، ثم تبعه آقا بزرك على ذلك فلقّبهُ بـ«الديلمي».

ج - ذكرنا سابقاً أن اسم طالقان يطلق على بلديتين: طالقان خراسان وهي «بين مرو الروذ وبلخ... وهي مدينة في مستوٍ من الأرض... ولها نهر كبير وبساتين»^(١). وطالقان قزوين وهي «بلدة وكورة بين قزوين وأبهر، وبها عدة قرى يقع عليها هذا الاسم، وإليها ينسب الصاحب بن عبّاد»^(٢)، وأعتقد أن انتساب طالقان لقزوين هو الذي حدا الرافعي إلى عد ابن عبّاد من علماء قزوين، وحدا آقا بزرك إلى تلقيه بـ«القزويني».

ولم يذكر المؤرخون - فيما رأيت - طالقاناً ثالثاً سوى ما قرأت للثعالبي من جملة كلام جاء فيه: «والصاحب من قرية الطالقان من قرى أصبهان»^(٣)، وظني بل اعتقادي أن هناك قرية تسمى «الطالقان» كانت تنسب - أولاً - لأصبهان - كما يقول الثعالبي - ثم تغيرت نسبتها بتطور الأوضاع والشؤون العمرانية فنسبت لقزوين، وقزوين وأصبهان من إقليم واحد هو الإقليم الرابع^(٤).

ويرجع هذا الرأي أن الثعالبي مؤرخ ثقة ثبت دقيق في معلوماته ورواياته، ولا أعتقد أنه أرسل كلمته هذه جزافاً وبلا تمحيص، خصوصاً وهو من المعاصرين للصاحب بن عبّاد ومن المستقصين لأخباره وآثاره

(١) معجم البلدان: ٧/٦.

(٢) معجم البلدان: ٨/٦.

(٣) يتيمة الدهر: ٢١٦/٣.

(٤) معجم البلدان: ٢٦٩/١، و٧٩/٧.

وأشعاره، فلا بدّ أنه سجّل كل ما سجّل مأخوذاً من أوثق المصادر وأصح الروايات وأصدق المحدثين.

ويبدو لي أن تسمية الطالقان بطالقان أصبهان لم تكن معروفة لدى ياقوت فلم يشر إليها في معجم البلدان، ثم تجده في معجم الأدباء ناقلاً لقول الثعالبي السابق ومعلقاً عليه بقوله: «هذا الذي ذكر الثعالبي أن طالقان من قرى أصفهان، والصواب ما تقدم»^(١)، مشيراً بذلك إلى ما ذهب إليه من كون ابن عباد «من أهل الطالقان، وهي ولاية بين قزوين وأبهر»^(٢).

د - إنَّ الصاحب قد هاجر من طالقان في أيام صباه إلى أصبهان، ولعل هذه الهجرة قد تمت حينما تولى عباد الكتابة للحسن بن بويه ركن الدولة، ويرشدنا إلى سكنى إسماعيل أصبهان في أيام صباه ما نسجّله في أدناه:

١ - ما رواه المافروخي إذ قال:

«حكى أنه كان في أيام صباه - والضمير يعود للصاحب - بأصفهان إسكاف، وكان مختلف الصاحب إلى مدارس بباب دكانه، والإسكاف كلما مرَّ به الصاحب تسفَّه عليه وأوسع لعناً وسباً وتنقصاً وثلباً... إلخ»^(٣).

٢ - قول الصاحب نفسه:

يا أصفهان سقيت الغيث من كذب
فأنت مجمع أوطاري وأوطاني

(١) معجم الأدباء: ٦/٢٨٦.

(٢) نفس المصدر: ٦/١٦٨.

(٣) محاسن أصبهان: ٩٨.

والله والله لما أنس برّك بي
ولو تمكنت من أقصى خراسان
سقياً لأيامنا والشمل مجتمع
والدهر ما خانني في قرب إخواني
ذكرت ديمرت إذ طال الشواء بها

يا بعد ديمرت من أبواب جرجان^(١)
وهذان النصان - كما يشاهد القارئ - صريحان في بيان ما نهدف
إليه من ترجيح هجرة الصاحب إلى أصفهان في صباه، فهي مجمع
أوطاره وأوطانه، ومجتمع شمله وأخذانه، وفيها درس أيام صباه، وفي
ديمرت طال ثواؤه وغناه.

ولعلّ مما يؤيد ذلك ما قرأناه في كتب التاريخ من نظرة الصاحب
الخاصة لأصفهان - أيام وزارته -؛ ومن عنايته الزائدة بها وبشؤون أهلها:

كبنائه جامعاً كبيراً لها على نفقته^(٢).

وتشييد دار له بها^(٣).

ومعاملته لأهلها بالحسنى^(٤).

وتخفيض الضرائب عن أهلها^(٥).

ومدحه لها وتوصية الحكّام بملاحظتها^(٦).

ثم - أخيراً - وصيته بأن يدفن فيها - كما سيأتي تفصيل ذلك -.

(١) نفس المصدر: ١٣.

(٢) نفس المصدر: ٨٥.

(٣) نفس المصدر: ٩٠، وبتيمة الدهر: ١٨٣/٣.

(٤) نفس المصدر: ٨٤ و٩٥.

(٥) نفس المصدر: ٩٩.

(٦) رسائل الصاحب بن عباد: ٣١.

وفاته:

للمؤرخين في تحديد عام وفاة ابن عباد خلاف نشير إليه في أدناه:

١ - وفاته عام ٣٨٤هـ:

نص على ذلك السمعاني^(١) من القدماء، وآدم متز من المتأخرين^(٢).

٢ - وفاته عام ٣٨٥هـ:

ذهب إلى ذلك:

من القدماء: ابن العماد الحنبلي^(٣) وابن خلكان^(٤) والسيوطي^(٥) وأبو الفداء^(٦) والوزير أبو شجاع^(٧) والثعالبي^(٨) وابن الأثير^(٩) وابن كثير^(١٠) والوزير القفطي^(١١) وعبد الرحيم العباسي^(١٢) وياقوت الحموي^(١٣)

(١) الأنساب: ٤٦٣.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١/١٢١.

(٣) شذرات الذهب: ٣/١١٣.

(٤) وفيات الأعيان: ١/٢٠٩.

(٥) بغية الوعاة: ١٩٧.

(٦) تاريخ أبي الفداء: ٢/١٣٠.

(٧) ذيل تجارب الأمم: ٢٦١.

(٨) يتيمة الدهر: ٣/٢٥٣.

(٩) الكامل: ٧/١٦٩.

(١٠) البداية والنهاية: ١١/٣١٦.

(١١) أنباء الرواة: ١/٢٠٢.

(١٢) معاهد التنصيص: ٢/١٦١.

(١٣) معجم الأدباء: ٦/١٧١.

وشهاب الدين النويري^(١) وأبو نعيم^(٢) وابن تغري بردى^(٣) وابن حجر^(٤)
وابن خلدون^(٥) وصاحب النزهة^(٦) وابن الجوزي^(٧) وابن الشحنة^(٨).

ومن المتأخرين: شكيب أرسلان^(٩) وعباس القمي^(١٠)
والزركلي^(١١) وآقا بزرك^(١٢) ولجنة دائرة المعارف^(١٣) والدكتور ذبيح الله
صفا^(١٤) وآدم متز^(١٥) وآخرون غيرهم.

٢ - وفاته عام ٣٨٧هـ:

نصَّ على ذلك الشيخ بهاء الدين العاملي^(١٦) ومحمد ربيع
الأردستاني^(١٧).

ومن مجموع هذه النصوص التاريخية يظهر:

-
- (١) نهاية الأرب: ١٠٨/٣.
 - (٢) أخبار أصبهان: ٢١٤/١.
 - (٣) النجوم الزاهرة: ١٦٩/٤.
 - (٤) لسان الميزان: ٤١٤/١.
 - (٥) تاريخ العبر: ٤٦٦/٤.
 - (٦) نزهة الألباء: ٤٠١.
 - (٧) المنتظم: ١٧٩/٧.
 - (٨) تاريخ ابن الشحنة: - هامش الكامل - ٥/١٢.
 - (٩) رسائل الصابي: ٢٨٠ في الهامش.
 - (١٠) الكنى والألقاب: ٣٧٠/٢، وهدية الأحباب: ١٧٠، وتمة المنتهى: ٤٥٨.
 - (١١) الأعلام: ١٠٦/١.
 - (١٢) الذريعة: ٥٦/١، و٢١/٤.
 - (١٣) دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية -: ٢٢١/١.
 - (١٤) تاريخ أدبيات إيران: ٥٣.
 - (١٥) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١٣٤/١.
 - (١٦) الكشكول: ٢٦١.
 - (١٧) الإرشاد: ٤٣.

(أولاً) - إن أكثرية المؤرخين - بل ما يشابه الإجماع - قد ذهبت إلى وفاته عام ٣٨٥، ومن جملتهم الثعالبي - المعاصر للصاحب - وأبو شجاع - القريب إلى ذلك العهد -.

(ثانياً) - إن ذهاب آدم منز إلى وفاته عام ٣٨٤ لا يعتمد عليه، لأنه عاد في موضع آخر من كتابه فأرخ بالتاريخ المشهور - كما أشرنا إليه في موضعه - مما يدل على أن قوله هذا لم يكن عن قصد وترجيح، ولعلّه اعتمد على السمعاني في ذلك.

(ثالثاً) - لا نرى لنص السمعاني من القوة ما يمكنه من الوقوف قائماً أمام نصوص الأكثرية الساحقة من المؤرخين، ولعلّه سجّل ذلك سهواً، أو كان من أخطاء النساخ.

(رابعاً) - كذلك لا نرى لتحديد البهائي والأردستاني قوة تقابل رأي الأكثرية، ولعلهما حاولا بذلك تصحيح ما جاء عن الثعالبي من بلوغ الصاحب الستين، ولا يتم ذلك - إذا كانت ولادته عام ٣٢٦هـ - إلا بإضافة سنتين، وقد سبق لنا القول بأن الثعالبي لم يقصد من «لفظ الستين» هذا التحديد الدقيق، بل ذكره على النحو المتعارف من اغتفار سنة أو سنتين في تخمين الأعمار؛ خصوصاً وأن الثعالبي قد نصّ صريحاً على وفاة الصاحب عام (٣٨٥) - كما مر عليك -.

ومهما يكن من أمر فإن ابن عبّاد لما دخل في عام ٣٨٥ دعا من كان لديه من المنجمين، وطلب منهم أن يخبروه عما يقع في هذا العام - ولعلها كانت عادة جارية له في كل عام -، فلم يكن من المنجمين إلا أن لمحوا له عن وفاته من طرف خفي؛ فأنشأ يقول:

يا مالک الأرواح والأجسام وخالق النجوم والأحكام
مدبّر الضياء والظلام لا المشتري أرجوه للأنعام

ولا أخاف الضر من بهرام
والعلم عند الملك العلام
ووقني حوادث الأيام
هبني لحب المصطفى المعتم
وإنما النجوم كالأعلام
يا رب فاحفظني من الأسقام
وهجنة الأوزار والآثام
وصنوه وآله الكرام^(١)

ثم أردف ذلك بقوله:

أرى سنتي قد ضمنت بعجائب
ويدفع عني ما أخاف بمنه
إذا كان من أجرى الكواكب أمره
عليك أي رب السماء توكلي
وركب سنة حذرتها فتزحزحت
وربي يكفيني جميع النوائب
ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب
معيني فما أخشى صروف الكواكب
فحطني من شر الخطوب الحوارب
بخير وإقبال وجد مصاحب

إلى آخر ما جاء في هذه القطعة الشعرية المؤثرة^(٢).

وكان مرضه الذي ابتلي به في أواخر أيامه نذيراً له بقرب المنية
ودنو الأجل، ولم يكن إسماعيل ممن يخفى عليه ذلك؛ فأنشد يقول:

إنسي وحق خالقي على جناح السفر^(٣)

وفي أثناء مرضه هذا «كان أمراء الديلم وكبراء الناس يروحون إلى
بابه ويغدون، ويخدمون بالدعاء وينصرفون، وعاده فخر الدولة عدة
مرات»^(٤).

وحكي «أنه قال لفخر الدولة - أول مرة - وهو على بأس من

(١) بيتة الدهر: ٢٥٢/٣، وفرج المهموم: ١٨٠.

(٢) بيتة الدهر: ٢٠٣/٣، وفرج المهموم: ١٨١.

(٣) بيتة الدهر: ٢٠٣/٣.

(٤) ذيل تجارب الأمم: ٢٦١.

نفسه: قد خدمتك - أيها الأمير - خدمة استفرغْتَ قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة جلبتْ لك حسن الذكر بها، فإن أُجريت الأمور بعدي على نظامها، وقررت القواعد على أحكامها؛ نسب ذلك الجميل السابق إليك، ونُسيت أنا في أثناء ما يثنى به عليك، ودامت الأحداث الطيبة لك، وإن غيرت ذلك وعدلت عنه كنتُ أنا المشكور على السيرة السالفة، وكنت أنت المذكور بالطريقة الآتفة»^(١).

وما إن أزف الوقت المحتوم ودقت ساعة الرحيل - وكان ذلك ليلة الجمعة لست بقين من صفر - حتى علت الواعية في دار إسماعيل، وسرى الخبر بين الناس سريان النار في الهشيم، ف «أغلقت مدينة الري، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدموه فخر الدولة المذكور أولاً وسائر القواد وقد غيروا لباسهم، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة، وقبلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس»^(٢).

«ما رؤي أحد وُفي من الإعظام والإكبار بعد موته ما وُقيه الصاحب؛ فإنه لما جهز ووضع في تابوته وأخرج على أكتاف حامليه للصلاة عليه؛ قام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه، وحرقوا عند ذلك ثيابهم، ولطموا وجوههم وبلغوا في البكاء والنحيب عليه جهدهم»^(٣).

(١) نفس المصدر، ونجد مثل ذلك في الكامل: ١٧٠/٧، والبداية والنهاية: ١١/٣١٦، والمنتظم: ١٨١/٧، ومعجم الأدباء: ١١٤/٢.

(٢) وفيات الأعيان: ٢١٠/١، وتجد مثل ذلك في أنباء الرواة: ٢٠٢/١، ومعجم الأدباء: ٢٧٥/٦، وذيل تجارب الأمم: ٢٦٢، وشذرات الذهب: ١١٥/٣، ومعاهد التنصيص: ١٦١/٢.

(٣) معجم الأدباء: ٢٧٥/٦.

والشيء الذي يلفت النظر أن نجد القاضي عبد الجبار المعتزلي مخالفاً لإجماع الشعب على حب الصاحب والترحم عليه والإفتجاج به، فقد روي عنه أنه كان يقول: «لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت منه»^(١).

«فلا جرم أن فخر الدولة قبض عليه بعد موت الصاحب وصادره - فيما قيل - على ثلاثة آلاف ألف درهم، وعزله عن قضاء الري»^(٢)، وذلك لما ظهر منه من قلة الوفاء وخسة النفس وخبث الطوية.

«فهلاً نظر هذا القاضي في شأن نفسه، ثم أفتى في شأن غيره مثل ابن عباد الذي قدّم قدمه وأثّل نعمته وراش جناحه ومهّد أحواله. صدق المثل: «تبصر القذى في عين غيرك وتدع الجزع المعترض في حلقك»، فرحم الله من أبصر عيب نفسه فشغل بستره عن عيب غيره»^(٣).

وبعد انتهاء مراسيم التشييع والصلاة وما إلى ذلك حفظ تابوته و«علق بالسلاسل في بيت»^(٤) ثم كان نقله بعد حين «إلى تربة له بأصفهان»^(٥).

وجلس فخر الدولة للعزاء أياماً^(٦) وكذلك فعل أبو العباس الضبي - خَلَفَهُ في الوزارة -، ثم أرسل فخر الدولة بعد ذلك «ثقافته وخواصه

(١) الكامل: ١٧٠/٧.

(٢) معجم الأدياء: ٢٩٩/٦.

(٣) ذيل تجارب الأمم: ٢٦٣.

(٤) نفس المصدر: ٢٦٢.

(٥) نفس المصدر: ٢٦٢.

(٦) وفيات الأعيان: ٢١٠/١.

حتى احتاطوا على الدار والخزائن... ونقل جميع ما في الدار والخزائن إلى دار فخر الدولة»^(١).

وهكذا مات إسماعيل بن عبّاد فماتت بموته فضائل وفواضل؛ وشيم ومكارم، وانفرط بفقده عقد الأدباء والشعراء والعلماء، فلا غرو إذا ما رأينا فحول الشعر في ذلك العصر يتبارون في رثائه بقصائدهم العامرة؛ المفعمة بالألم؛ الطافحة بالشجي؛ الصارخة بهول الفجيعة، كقصائد أبي القاسم الأصبهاني وأبي الفرج بن ميسرة وأبي سعيد الرستمي وأبي الفيّاض الطبري وأبي العباس العلوي والنيسابوري وأبي الحسن عليّ الحسني والشريف الرضي، إلى كثير من ذلك مما هو خارج عن الصدد^(٢).

وينام أبو القاسم بن أبي العلاء يوماً فيرى في منامه قائلاً يعتب عليه لعدم رثائه الصاحب، فيعتذر أبو القاسم ببعض الأعذار فيقول له القائل: أجز ما أقوله، ثم أنشد:

فقال: ثوى الجود والكافي معاً في حفيرة

فأجابه: لئانس كل منهما بأخيه

فقال: هما اصطحبا حين ثم تعانقا

فأجابه: ضجيعين في لحد بباب ذريه

فقال: إذا ارتحل الثاوون عن مستقرهم

فأجابه: أقاما إلى يوم القيامة فيه^(٣)

(١) ذيل تجارب الأسم: ٢٦٢.

(٢) راجع في تفصيل مرثي الصاحب: يتيمة الدهر: ٢٥٣/٣ - ٢٦١، ومعاهد التنصيص: ١٦١/٢ - ١٦٢. وديوان الشريف الرضي: ٣٧٩.

(٣) معجم الأدباء: ٢٧٦/٦، ومعاهد التنصيص: ١٦٣/٢.

وباب ذريه المذكور في هذه الأبيات اسم محلة بأصبهان دفن
الصاحب في قبة فيها بعد نقله من الري، «وهي عامرة إلى الآن، وأولاد
بنته يتعاهدونها بالتبويض»^(١).

«قال... ابن البنداري الأصبهاني نزيل دمشق: هي عامرة إلى
الآن، والعلويون من ولد بنته يبتاعون لها في الوقت بعد الوقت كلساً
أصبهانياً يبيضونها به»^(٢).

ويقول الخونساري: إنها قد أصيبت «بانهدام وفتور؛ من مرور
الدهور، فأمر شيخنا الإمام العلامة الحاج محمد إبراهيم... بتجديد
عمارتها وتطينها، وتشيد نضارتها وتزيينها، فصارت كأحب موضع
يرام، وأجود منزل ومقام، وهو سلمه الله تعالى - مع ما به... ليس
يدع زيارته أيضاً طول شهر أو شهرين بل أيام، إلا أن تلك المحلة
المسعودة موسومة في زماننا بـ (باب الطوقجي) والميدان العتيق»^(٣).



(١) وفيات الأعيان: ٢٠٩/١.

(٢) أنباء الرواة: ٢٠٢/١.

(٣) روضات الجنات: ١٠٩.

أخلاقه وملكاته

تقديم:

يجدر بي - وأنا أهدف إلى دقة البحث ونخل النصوص واستخراج النتائج الصريحة - أن أقوم - قبل الدخول في التفاصيل المتعلقة بشخصية ابن عبّاد وملكاته الخلقية وغرائزه النفسية - بالإشارة إلى المصدر الأول في هذا الموضوع، وإلى مقدار الاعتماد على هذا المصدر في بحثنا المائل بين يديك؛ الذي نحاول أن نرسم فيه الصورة القلمية الدقيقة لأخلاق إسماعيل وسماته.

والمصدر الرئيس الأول الذي عثرنا عليه هو رسالة «مثالب الوزيرين» لأبي حيّان التوحيدى الأديب الشهير الكبير، فقد حفلت بشروح وتفاصيل وقصص تحكي لنا بين سطورها شخصية الصاحب وخصاله وخلائقه؛ بالشكل الذي لم نعثر على مثله في سائر كتب التاريخ والأدب التي ترجمت للصاحب أو أشارت إليه. خصوصاً ونحن نعلم أن أبا حيّان قد قصد ابن عبّاد إلى الري واجتمع به طويلاً وعاشه مدة مديدة، وشهد مواسمه وحضر مجلسه، وتعرّف على حاله في الليل والنهار؛ وفي ساعتى التبذل والوقار، وشافه حُجّاب إسماعيل وخدمه؛ وكتّابه وشعرائه؛ وسائر رواد مجلسه والمترددین عليه، فجاءت رسالته والمتوقع منها أن تكون مبنية على المرثيات والمشاهدات والإطلاعات الشخصية.

ولكنَّ السؤال الذي يفاجيء الباحث - حينما يقرأ هذه الرسالة - هو معرفة مقدار الاعتماد على ما فيها من نقول وروايات؛ وقصص وحكايات، فبمعرفة ذلك يتجلى الموضوع أمام الباحث تصديقاً لها أو نبذاً لما فيها.

ولمعرفة هذه الناحية في الرسالة يجب أن نقف قليلاً عند علاقة أبي حيان بالصاحب؛ فنستقرىء الآثار التاريخية لنعرف كيف ابتدأت الصلة بينهما وكيف انتهت، ومن نتيجة هذا الاستقراء التاريخي نستخلص ما نبتغيه من معرفة حقيقة ما حوته الرسالة صدقاً أو كذباً. لا سيما وأن الرسالة قد كتبت بعد رجوع أبي حيان من الري ومفارقتة لابن عبّاد، فلا بد وأنها تعتمد على معرفة كيفية فراق أبي حيان لصاحبه، وهل كان فراقاً بين صديقين يأملان الاجتماع ويحبّان اللقاء؛ أم كان فراقاً بين عدوين تصادقا أولاً ثم تطورت بهما الأحوال حتى تشاحا وتنازبا ففارق كل منهما صاحبه غاضباً حتقاً يكيل له الشتم والسباب.

تبدأ العلاقة بين أبي حيان وابن عبّاد بأن يسمع التوحيدي من أفواه الناس أن ابن عبّاد كريم النفس؛ سخي اليد؛ مسمح الكف؛ يحب الأدب والأدباء؛ ويحترم العلم والعلماء؛ ويسعى كثيراً في سبيل جذبهم إليه؛ وجمعهم بمجلسه؛ وضمهم في ركابه، فيجمع أبو حيان حقايبه - وكانت مهنته الوراقة - ويدفعه حب الراحة والسلامة إلى السفر إلى الري والانخراط مع الأدباء الذين وقفوا على باب الصاحب، آملاً بأن يظفر من ابن عبّاد بالسعادة والمال؛ ورغد العيش؛ ورفاه الحياة، وإلى ذلك يشير بقوله:

«إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم»^(١).

(١) معجم الأدباء: ٢٨/١٥.

وحرفة الشؤم هي الوراقة بجهدهما وتعبيها وإتلافها العين وقتلها الوقت، فأراد - بدخوله على ابن عباد والانخراط في زمرة منتجعي ربيعه - التخلص من وصب هذه الحرفة؛ والتنعم بالحياة الوادعة الماتعة البعيدة عن الأتعاب والمشقات.

ويحدثنا أبو حيان عن اللقاء الأول للصاحب فيقول:

«وأما حديثي معه - والضمير لابن عباد - فإنني حين وصلت إليه قال لي: أبو من؟ قلت: أبو حيان، فقال: بلغني أنك تتأدب، فقلت: تأدب أهل الزمان، فقال: أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف؟ قلت: إن قبله مولانا لا ينصرف»^(١).

وهكذا تبدأ العلاقة بين أبي حيان وابن عباد، ثم تنتهي بعد سنوات بأسوء نتيجة وأوخم عاقبة؛ فما هو السبب الرئيس في هذه النهاية المؤسفة؛ ومن المسبب منهما لذلك؟

وتتضح الإجابة على هذين السؤالين؛ بل سوف يسبقني القارئ إلى الإجابة عليهما، بعد الاطلاع على بعض ما رواه أبو حيان في مثالب الوزيرين:

أ - قال ابن عباد لأبي حيان: «الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب، فقلت: أنا سامع مطيع، ثم إنني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع، لأتخلص من حرفة الشؤم»^(٢).

ب - «قال الصاحب يوماً: فَعَلُّ وأَفْعَالٌ قليل، وزعم النحويون أنه

(١) معجم الأدباء: ٢٧/١٥.

(٢) نفس المصدر: ٢٨/١٥.

ما جاء إلا زُنْد وأزناد وفرخ وأفراخ وفَرْد وأفراد. فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وأفعال. فقال: هات يا مدّعي، فسردت الحروف ودلت على مواضعها من الكتب، ثم قلت: ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً، وهذا كقولهم: فعيل على عشرة أوجه، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجهاً؛ وما انتهيت في التتبع إلى أقصاه. فقال: خروج من دعواك في فَعْلٍ يدلنا على قيامك في فعيل، ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك، ولا نهب آذاننا لكلامك، ولم يف ما أتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسّطك في حضرنا»^(١).

ج - «حضرت مائدة الصاحب بن عبّاد فقدمت مضيرة فأمعنت فيها، فقال لي: يا أبا حيان إنها تضر بالمشايخ، فقلت: إن رأي الصاحب أن يدع التّطبّب على طعامه فعل»^(٢).

د - «قال لي الصاحب يوماً - وهو يحدث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله -: «ولا بد من شيء يعين على الدهر»، ثم قال: سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم ذلك فقلت: أنا أحفظ ذلك، فنظر بغضب فقال: ما هو؟ قلت: نسيت، فقال: ما أسرع ذكرك من نسيانك! قلت: ذكرته والحال سليمة، فلما استحالت عن السلامة نسيت. قال: وما حيلولتها؟ قلت: نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب. قال: ومن تكون حتى تغضب عليك؟ دع هذا وهات. قلت: قول الشاعر:

ألام على أخذ القليل وإنما أصادف أقواماً أقلّ من الدرّ

(١) معجم الأدباء: ٢٦/١٥.

(٢) نفس المصدر: ٧/١٥.

فإن أنا لم آخذ قليلاً حُرِّمته ولا بد من شيء يعين على الدهرِ فسكت»^(١).

هـ - «قدّم إليّ نجاح الخادم - وكان ينظر في خزانة كتبه - ثلاثين مجلّدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا: انسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان، فقلت بعد ارتياء: هذا طويل، ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقرأ كالغرر، وشذوراً كالدرر، تدور في المجالس. كالشمامات والدستبويّات لو رقي بها مجنون لأفاق، أو نفت على ذي عاهة لبرأ؛ لا تمل ولا تستغث ولا تعاب ولا تسترك، فرفع ذلك إليه»^(٢).

ولا أريد أن أطيل بسرد القصص والشواهد فقد حفظها ياقوت في معجمه عند ترجمته لأبي حيّان، وحسبنا هذه النماذج الخمسة من تلك القصص شاهداً وبرهاناً، إذ تجد فيها أبا حيّان سيء السيرة والسلوك مع هذا الرجل الطموح المعجب بنفسه، والذي لا يعرف في الدنيا من هو أحسن منه؛ أو لا يعترف بذلك - على الأقل -.

أرأيت كيف يظهر تشاقله من امتثال أمر ابن عبّاد بنسخ إحدى الكتب؟

ثم أرأيت ردّه على الصاحب في موضع فعل وفعليل؟

ثم أرأيت مجابته الفظة للصاحب في موضوع المضيرة؟

ثم أرأيت قراءته للبيتين الذين يحملان الطعن والتعريض

بالصاحب؟

(١) نفس المصدر: ٣٢/١٥ - ٣٣.

(٢) معجم الأدباء: ٣٤/١٥.

وأخيراً أرأيت استهزاءه برسائل الصاحب وإشارته إلى ما فيها من غث وركاكة وعيب وملل؟

وماذا كان يُنتظر من الصاحب بعد فعل أبي حيّان هذا؟

لقد كان الصاحب رحيماً جداً وحليماً إلى حد بعيد، إذ لم يؤاخذ أبا حيّان على أفعاله وأقواله بعقاب عملي من جلد أو سجن أو تعذيب، بل كل ما فعله أنه أظهر له «اكفهرار وجه ونبو طرف وقلة تقبّل» على حد تعبير أبي حيّان، وهذا من أخف ألوان العقاب بل لا يعد في ذلك العصر من العقاب بشيء.

وإذا؛ فالسبب الرئيس الذي أدّى إلى هذه النهاية هو جهل أبي حيّان بما يجب عليه في مقابلات الوزراء والعظماء، وعدم معرفته بالسبل التي ينفذ منها إلى قلب صاحبه ونفسه؛ وبالطرق الجميلة التي يستطيع بواسطتها التخلص من جهد ما طلب منه من نسخ وكتابة ووراقة.

ومن هنا نعرف أن المسبب لهذه النهاية هو أبو حيّان نفسه، من دون أن يكون لابن عبّاد قصد أو يد، وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فإن الواجب على أبي حيّان ألا يلومنّ إلا نفسه ولا يثلبنّ إلا جهله.

ويقول أبو حيّان في أثناء رسالته:

«وجرت أشياء كان عقباها أني فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمته درهم واحد ولمّا نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به وأحفظني عليه وجعلني من جميع

غاشيته فرداً؛ أخذت أُملي في ذلك بصدق القول عنه، وسوء الثناء عليه، والبادي أظلم»^(١).

ومن مجموع ما ذكرناه فيما مرّ نرى أن أبا حيان قد حرّر هذه الرسالة وهو متأثر جداً من سوء صنيع الصاحب به - بحسب رأيه -، مما أحفظه عليه وحرّضه على إملاء هذه الرسالة للحط منه؛ والظعن فيه؛ وسوء الثناء عليه، مدفوعاً بدافع ألم الحرمان، وألم الفشل والخيبة؛ وأمل الحقد والحسد والغيرة.

ولما كان غرضه من تأليف هذه الرسالة ما ذكرناه من الحط من كرامة ابن عباد وتعداد مساويه ونقائصه؛ لم يكن من اللائق بالباحث الذي يتحرى الدقة في البحث؛ ويتطلب الصحة في النتائج؛ أن يجعل هذه الرسالة مصدراً يرجع إليه ويعول عليه، لاحتمال أن يكون المؤلف قد دسّ في كتابه كثيراً مما لا واقع له، لغرض التشهير بعدوه وبيان عوراته ومخازيه.

وإذا كنتُ في شك من دسّ أبي حيان في رسالته هذه فلا أثبتته ولا أنفيه فإن ابن حجر كان قاطعاً به إذ يقول:

«وكان - يعني ابن عباد - يبغض من يميل إلى الفلسفة، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدي فحمله ذلك على أن جمع مصنفاً في مثالبه أكثره مختلق»^(٢).

وفي هذا الكتاب يقول ياقوت:

«إن أبا حيان كان قصد ابن عباد إلى الري فلم يُرزق منه، فرجع

(١) معجم الأدباء: ٣٢/١٥.

(٢) لسان الميزان: ٤١٤/١.

عنه ذاتاً له وكان أبو حيان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، فاجتهد في الغض من ابن عبّاد، وكانت فضائل ابن عبّاد تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه، فصار ذمه له مدحاً^(١).

وبناءً على النتيجة المستخلصة مما مرّ رأيت أن أهمل كل رواية أو قصة ينفرد بنقلها أبو حيان، وكذلك كل مدح أو طعن لم يروه غيره، بخلاف ما إذا كانت رواية التوحيدي مؤيدة برواية أخرى عن غيره، فإني استقبلها حينئذ بثقة واطمئنان، ثم أحكم لها أو عليها تبعاً للشواهد والبرهان.

عجبه بنفسه:

ولعلّ من أبرز صفات صاحبنا وخلائقه: هذا العجب الكبير بالنفس، وهذا الشعور الطافح بالتفوق والتسامي، وهذا الزهو والخياء الباديان في شعره ونثره؛ وحركاته وسكناته.

لقد كان ابن عبّاد معجباً بشعره ونثره؛ وسياسته وإدارته؛ وعلمه وأدبه؛ وسائر أفعاله وأعماله، وكان في الوقت نفسه مزدرياً لتناج غيره؛ مستصغراً من شأنه، غير معترف بتفوق غيره عليه؛ مهما بلغ من درجات العلم ومراقبه السامية، بل ربما كان يرى في قرارة نفسه عدم وجود من يماثله ويشاكله على وجه المعمورة، وإن لم يقل ذلك بصريح الكلام.

ولعلنا لا نعدم العذر لابن عبّاد في زهوه وعجبه بنفسه، فإنه داء لم يسلم منه شاعر أو أديب، مهما كان شعره من سمو أو انحطاط؛ متانة أو ركافة، فكيف به إذا جمع إلى الشعر والنثر والإجادة فيهما - على الأكثر - هيبة السلطان؛ وقوة الصولجان؛ والأمره الكبرى؛ والسلطة

(١) معجم الأدباء: ١٨٧/٦.

المطلقة، وكيف به إذا شاهد شيوخ الأدب وشعراء العصر وأدباء الجيل يفدون إليه وينتالون عليه؛ ويلقون بأنفسهم بين يديه، فإنه من الطبيعي لرجل كهذا أن يتلي بهذا الداء؛ بل بأشد نوباته وأضرى هجماته.

وفي شرح ذلك يقول أبو حيان:

«والذي غلّطه - يقصد الصاحب - في نفسه، وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه، أنه لم يُجِبْه قط بتخطئة، ولا قوبل بتسوئة، لأنه نشأ على أن يقال: أصاب سيدنا وصدق مولانا - والله دره - ما رأينا مثله، من ابن عبد كان مضافاً إليه؟ ومن أين ثوابه نقيسه عليه؟ ومن إبراهيم ابن العباس الصولي؟ من صريع الغواني؟ من أشجع السلمي؟ إذا سلكا طريقهما. قد استدرك مولانا على الخليل في العروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة، وعلى أبي يوسف في القضاء، وعلى الإسكافي في الموازنة، وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات، وعلى ابن مجاهد في القراءات، وعلى ابن جرير في التفسير، وعلى أرسططاليس في المنطق، وعلى الكندي في الجدل، وعلى ابن سيرين في العبارة، وعلى أبي العيّن في البديهة، وعلى ابن أبي خالد في الخط، وعلى الجاحظ في الحيوان، وعلى سهل بن هارون في الفقر، وعلى يوحنا في الطب، وعلى ابن يزيد في الفردوس... إلخ»^(١).

ثم يقول بعد ذلك:

«وقد أفسده أيضاً ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه»^(٢).

(١) معجم الأدباء: ١٨٠/٦ - ١٨١.

(٢) نفس المصدر: ١٨٣/٦.

وأَيُّ رجل يبلغ مثل هذه الدرجة من التعظيم والتقدير؛ ويلقى هذا الإكبار والإجلال؛ ويسمع كل هذا الإطراء والثناء من أميره وسائر من لديه، ثم لا يتبلي بهذا المرض العضال؛ ولا تتشرب نفسه بالعجب والزهو والخيلاء - إلا من عصم الله - .

ولعلك الآن راغب في الاطلاع على أمثلة وشواهد ترشدنا إلى حقيقة هذا الأمر؛ وتدلنا على صدق ذلك فأليك منها:

أ - كان «يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعراً، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم ويقول له: قد نحللتك هذه القصيدة، امدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك أبو عيسى وهو بغدادي محكك قد شاخ على الخدائع وتحنك، وينشد فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره أعد يا أبا عيسى، فإنك والله مجيد، زو يا أبا عيسى قد صفا ذهنك، وجادت قريحتك، وتنقحت قوافيك، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي؛ المجالس تخرج الناس، وتهب لهم الذكاء، وتزيدهم الفطنة، وتحول الكودن عتيقاً، والمحمّر جواداً»^(١).

ب - «ناظر - ابن عبّاد - اليهودي رأس الجالوت في إعجاز القرآن، فراجع اليهودي فيه طويلاً، وماتنه قليلاً، وتنكر عليه حتى احتدّ وكاد يتقد، فلما علم أنه قد سجر تنوره، وأسعط أنفه، احتال طلباً لمخادعته، ورفقاً به في مخاتلته، فقال: أيها الصاحب فلِمَ تنقد وتستشيط، وتلتهب وتختلط، كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه؟ فإن كان النظم والتأليف بديعين، وكان البلغاء فيما تدعي عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسي وأقول ما عندي: أن رسائلك

(١) معجم الأدباء: ١٧٧/٦ - ١٧٨.

وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه، وعلى كل حال فليس يظهر لي أنه دونه، وإن ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام، أو بمرتبة من مراتب البلاغة، فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد، وسكن عن حركته، وانحصر ورمه به، وقال: ولا هكذا يا شيخ، كلامنا حسن وبليغ، وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً، ومن البيان نصيباً ظاهراً، ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لا يخمل... إلخ»^(١).

ج - «قال ابن عباد يوماً: كان أبو الفضل - يعني ابن العميد - سيداً، لم يشق غبارنا، ولا أدرك شوارنا، ولا مسح عذارنا، ولا عرف غرارنا لا في علم الدين، ولا فيما يرجع إلى نفع المسلمين... وولدت والشعري في طالعي، ولولا دقيقة لأدركت النبوة، وقد أدركت النبوة إذ قمت بالذب عنها والنصرة لها»^(٢).

د - «كان عنده أبو طالب العلوي فكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه، وخبراً ينمقه ويرويه، يبلق عينيه، وينشر منخريه، ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد، فإذا أفاق قيل: ما أصابك؟ ما عراك؟ ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول: ما زال كلام مولاي يروقني ويؤنقني حتى فارقتني لبي وزايلني عقلي وتراخت مفاصلي وتخاذلت عرى قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي، فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش ويضحك عجباً وجهلاً، ثم يأمر له بالحباء والتكرمة، ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه»^(٣).

(١) نفس المصدر: ٢١٨/٦ - ٢١٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢٣٣/٦.

(٣) نفس المصدر: ٢٣٧/٦.

هـ - «نزل بالصيمرة عند عوده من الأهواز، فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبدالله بن إسحاق، فقام له، فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال: ما قمت لأحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة، وإنما فعل ذلك به لزهده، فإنه كان أحد أبدال دهره، فأما العلم فقد كان يرى من هو أعلم منه فلا يحفل به»^(١).

و - «ورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه: رسائل مَنْ تقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبد كان. قال: ومَنْ؟ قال: رسائل الصابي، وغمزه أحد جلسائه ليقول: رسائل الصاحب فلم يظن، ورآه الصاحب فقال: تغمز حماراً لا يحس»^(٢).

ز - «لم يكن يقيم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ولا يطمع أحد منه في ذلك كائناً من كان»^(٣).

ح - يقول الصاحب في إحدى قصائده:

والمجد أجمع ما حوته يميني	والفخر يصغر أن يكون خديني
والدهر موطأ أخمصي والناس بذ	لة ملبسي والرأي بعض ظنوني
والجود يركع خاضعاً لأناملي	والبدر يسجد خاشعاً لجبيني
والحرب بين صرائمي وصوarmi	إن جا طحون رجائها بزبون ^(٤)

تواضعه:

وبالرغم من هذا العُجب القوي المنصب على نفسه؛ وهذا الرضا

(١) نفس المصدر: ٢٤٦/٦ - ٢٤٧.

(٢) معجم الأدباء: ٢٥٨/٦.

(٣) بغية الوعاة: ١٩٧.

(٤) ديوانه المخطوط: ١١٦ - نسخة مصورة بمكتبتي الخاصة -.

والأنس بكل ما يصدر منه، فإنه كان لين الجانب؛ واسع الصدر؛ كثير التحمل؛ طرياً الأخلاق؛ جَمَّ التواضع؛ وتلك صفات يقل بل يندر تغلغلها في نفوس الأمراء والوزراء في تلك العهود الغابرة.

ونظراً لكثرة ما روي في التاريخ عن تواضع ابن عباد وجميل خلقه وكريم خلاله، فإننا لا نستطيع أن نهمل هذه الكثرة لمجرد تسجيل حادثة أو حادثتين لم يكن فيها إسماعيل متواضعاً - بالمعنى المعروف - .

ومع غض النظر عن كثرة تلك وقلة هذه، فإننا إذ نجد من صاحبننا ما ينافي المشهور عنه والمعروف من خلقه؛ ثم نحرم الدليل على معرفة شاهد الحال وحقيقة الوضع حين حدوث الحادثة، لا يمكننا الانسياق مع هذه النصوص والجري وراءها، وهي - كما قلنا - كالدعاوى المجردة عن الشاهد والدليل، فكيف بنا إذا علمنا أن هذه الحوادث قد سجلت بأقلام أعداء إسماعيل والحاquدين عليه كأبي حيان وأضرابه ممن عُرفوا بالشغف بثلب الكرام، فلا مناص إذن من إهمال هذه القصص والأخبار ما دمنا في شك منها ومن واقعها الصحيح.

ومما احتفظ به التاريخ من الدلالة على مقدار التواضع الذي كان يتحلى به إسماعيل هذه المطارحات الشعرية بينه وبين أبي هاشم العلوي.

يقول الصاحب لأبي هاشم:

إن أبا هاشم يد الشرفِ مادحه آمنٌ من السرفِ
حلٌّ من المجد في أواسطه وخلف العالمين في طرفِ

ويقول أبو هاشم مخاطباً الصاحب:

وإذا الكريم نبت به أيامه لم ينتعش إلا بعون كريمِ

فأعز علي الخطب العظيم فإنما يرجى الكريم لدفع كل عظيم

وكتب الصاحب لأبي هاشم في مرضه:

أبا هاشم مالي أراك عليلاً
لترفع عن قلب النبي حزازة
فلو كان من بعد النبيين معجز
فأجابه أبو هاشم:

دعوتُ إله الناس شهراً محرماً
إلى بدني أو مهجتي فاستجاب لي
فشكراً لربي حين حوّل سقمه
وأسأل ربي أن يديم علاءه
فردّ الصاحب عليه بقوله:

أبا هاشم لم أرض هاتيك دعوة
فلاعيش لي حتى تدوم مسلماً
فإن نزلت يوماً بجسمك علة
فناد بها في الحال غير مؤخر

أرأيت هذه العاطفة الجياشة والتواضع الجرم والأدب الرفيع
والخلق الرصين؟ أينظم هذه الأبيات رجل متكبر متعجرف بعيد عن
التواضع والرقّة ولين الجانب؟

ويقول الصاحب لأبي بشر الجرجاني - قاضي جرجان - وقد

اعتل:

تشكى الفضل من سقم عراه
وعاد بعقوتي يشكو جواه
فقلت له: وقاك الله فيه
هو العين التي أبصرت فيها
ستفديه يميني لا شمالي
فإنَّ الفضلُ أجمع من أنينه
كما يحنو القرين على قرينه
فإن السعد يطلع من جبينه
وصار سواد عيني في جفونه
فعين المرء خير من يمينه^(١)

ومما يروى عن إسماعيل إنه كان يتلقى أبا الحسن الجرجاني في بلده جرجان أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد، قال: وقد استعفيت يوماً من فرط تحفيه بي وتواضعه لي فأنشدني:

أكرم أخاك بأرض مولده
فالعزُّ مطلوب وملتمس
وأمدّه من فعلك الحسن
وأعزّه ما نيل في الوطن^(٢)

إلى كثير من أمثال ذلك ممّا تراه مفعماً بالعطف واللين والتواضع والخلق الجميل الكريم.

حلمه وسعة صدره:

ومما يرويه أبو حيان من مثالب ابن عباد قوله:

«الناس كلهم يحجمون عنه لجراءته وسلطته واقتداره وبطشته، شديد العقاب... بذيء اللسان... مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب. إلخ»^(٣).

ثم يروي أبو حيان في أثناء رسالته من الأمثلة على ذلك هذه القصة:

(١) يتيمة الدهر: ٤٥/٤.

(٢) النثر الفني: ٨/٢ - ٩.

(٣) معجم الأدباء: ١٧٥/٦ - ١٧٦.

«قال يوماً صدر قول الشاعر:

والمورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة، فقال ابن الداري:

يزدحم الناس على بابه

فأقبل عليه بغیظ، وقال: ما عرفتك إلا متعجرفاً جاهلاً، أما كان لك بالجماعة أسوة؟»^(١).

ولا يمكنني تصديق أبي حيان والاعتراف بصدق ما قال، بعدما قرأت في التاريخ عدة حكايات رويت عن ابن عبّاد، وكلها تنتهي بحلمه وعفوه وسعة صدره وكظمه لغیظه، ولعلّ من أوضح ما يصلح أن يكون رداً على أبي حيان وبرهاناً على وضعه لقصة ابن الداري - السالفة الذكر - ما رواه ياقوت في قصة مشابهة إذ يقول:

«قال أبو بكر الخوارزمي: أنشدنا صاحب هذه القوافي ليلة - وذكر الأبيات - وقال: هل تعرفون نظيراً لمعناها في شعر المحدثين؟ فقلت: لا أعرف إلا قول البحري:

ومن عجب الدهر أن الأمي - ر أصبح أكتب من كاتبه

قال: فقال: جوّدت وأحسنت. هكذا فليكن الحفظ»^(٢).

ثم حسبنا في معرفة حلمه ما نقرأه في القصص الآتية:

أ - «كان قاضيه - عبد الجبار المعتزلي - يكتب في عنوان كتابه: إلى صاحب. داعيه عبد الجبار بن أحمد، ثم كتب: وليه عبد الجبار بن

(١) نفس المصدر: ٢٢٦/٦.

(٢) معجم الأدباء: ٣١٠/٦.

أحمد، ثم كتب: عبد الجبار بن أحمد، فقال الصاحب لندمائه: أظنه
يؤول أمره إلى أن يكتب: الجبّار»^(١).

ب - يقول أبو حيان: «أنشدت يوماً على باب ذاك - يعني ابن
العميد - قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في ظل دولة جمال ولا مال تمتى انتقالها
وما ذاك من بغضٍ لها غير أنه يؤمل أخرى فهو يرجو زوالها

فرفع إليه إنشادي فأخذني وتوعدني وقال: انج بنفسك فإني إن
رأيتك بعد هذا أولغت الكلاب دمك، وكنت قاعداً على باب هذا منذ
أيام فأنشدت البيتين على سهو فرفع الحديث إليه فدعاني ووهب لي
دريهمات وخريقات وقال: لا تتمنّ انتقال دولتنا بعد هذا»^(٢).

ج - «قال قوم من أهل أصبهان لابن عباد: لو كان القرآن مخلوقاً
لجاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنّا نصلي
التراويح في رمضان؟ قال: لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضاً
ويقول: لا حياة لي بعدك ولا تصلي التراويح واستريح»^(٣).

د - حدث الصاحب فقال: «ما أفضعني إلا شاب ورد علينا إلى
أصبهان بغدادي فقصدني فأذنت له، وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل
طاق، فنظرت إلى صحابي فقال له وهو يصعد إليّ: إخلع نعلك، فقال:
ولمّ ولعليّ أحتاج إليها بعد ساعة، فغلني الضحك وقلت: أتراه يريد أن
يصفعني؟»^(٤).

(١) نفس المصدر: ٢٥٧/٦ - ٢٥٨.

(٢) نفس المصدر: ٢٢٧/٦.

(٣) نفس المصدر: ٢١٨/٦.

(٤) معجم الأدباء: ٢١٤/٦.

هـ - «كان مكّي المنشد قديم الصحة والخدمة للصاحب فأساء إليه غير مرة والصاحب يتجاوز له، فلما كثر ذلك منه أمر الصاحب بحبسه»^(١).

و - كان الصاحب قد «استدعى يوماً شراباً من شراب السكر فجيء بقدر منه فلما أراد شربه قال له بعض خواصه: لا تشربه فإنه مسموم، فقال له: وما الشاهد على صحة ذلك؟ قال: بأن تجربه على من أعطاكه. قال: لا أستجيز ذلك ولا استحلّه، قال: فجربه على دجاجة. قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوز، وأمر بصب ما في القدر، وقال للغلام: انصرف عني ولا تدخل داري بعدها وأفرّز رزقه عليه وقال: لا تدفع اليقين بالشك، والعقوبة بقطع الرزق نذالة»^(٢).

ز - «قال الصاحب ما أفحمني أحد كالبديهي، فإنه كان عندي يوماً وأتينا بفاكهة ومشمش فأمعن فيه، فاتفق أني قلت: إن المشمش يلطخ المعدة، فقال: لا يعجبني الميزبان إذا تطب»^(٣).

ومن التأمل في هذه النصوص نجد صفة الحلم عند إسماعيل بارزة جليلة لكل ذي عينين، فقاضيه يتدرج في تكبره عليه فلا يغيظه ذلك، وأبو حيان يتمنى زوال دولته فلا يزيد ويرعد - كما فعل ابن العميد -، وبعض أهل أصبهان يستهزأون بذهابه إلى كون القرآن مخلوقاً فينساق معهم في تندرهم، وشاب لا يرضى بخلع نعليه في مجلسه فلا يبدو التأثر عليه، وخادمه مكّي يسيء مراراً فيعضو عنه، وخادم آخر يأتيه بالشراب المسموم

(١) معجم الأدياء: ١٨٦/٦.

(٢) نفس المصدر: ١٨٥/٦، وانظر في قصة الكأس: البداية والنهاية: ٣١٥/١١، ومعاهد التنصيص: ١٥٤/٢، والمتنظم: ١٨١/٧.

(٣) يتيمة الدهر: ١٧٦/٣.

فلا يأمر بقتله، بل يديم له راتبه ورزقه الشهري، إلى كثير من أمثال ذلك مما يضيق به المجال.

وهل يكون كل ذلك صادراً من رجل سليل العقاب بذيء اللسان؛ مغلوب بحرارة الرأس؛ سريع الغضب؛ قوي البطش - كما يدعي أبو حيان -.

كرمه وصلاته:

يقول أبو حيان في ذلك:

«شديد العقاب طفيف الثواب»^(١)

ويقول أيضاً:

«إن عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة، وما يبلغ إلى الألف نادر، وما يوفي على الألف بديع. بلى قد نال به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف، وعدد هؤلاء قليل جداً»^(٢).

ويقول أبو العلاء الأسيدي:

إذا رأيت مسجى في مرقعة
فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت
به الخطوب إلى لؤم ابن عباد^(٣)

ويقول أبو بكر الخوارزمي:

لا تحمدنَّ ابن عباد وإن هطلت
كفاه يوماً ولا تدممه إن حرما

(١) معجم الأدباء: ١٧٥/٦.

(٢) معجم الأدباء: ٢٣٦/٦ - ٢٣٧.

(٣) معجم الأدباء: ٢٩٣/٦، وبيمة الدهر: ٢٥١/٣.

فإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً^(١)
ويقول أبو الحسن الغويري:

إن كان إسماعيل لم يدعني لأنّ أكل الخبز صعب عليه
فإنني أكل في منزلي إذا دعاني ثم أمضي إليه^(٢)

ومن هذه الجمل المثورة والأبيات المتفرقة ترى أن هؤلاء الرجال قد حكموا على ابن عبّاد بالبخل والشح واللؤم؛ وتفاهة العطاء؛ وتطيف الثواب؛ وقلة البذل؛ بالشكل الذي يبخل فيه الصاحب بأكل الخبز في داره، وبنحوٍ يوجب أن يلقب قاصده بالمسكين الذي قذفت به الخطوب، فإذا أراد أن يعطي شيئاً أو يمنح أحداً فما ذاك إلا خطرات من وساوسه، فهو يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً.

وإني لأعجب من رجل كالصاحب ببخله الذي ينسبه هؤلاء له؛ وبهذا المقدار الكبير من الخساسة والدناءة والشح، كيف مدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين^(٣)، وكيف تهافت العلماء والأدباء على باب داره بهذا الشكل الفذ العظيم، حتى «شبهه مادحوه بهارون الرشيد، وذلك لأنه أشبه الرشيد بأن جمع حوله أحسن أهل اللسن»^(٤)، وهل يتم ذلك لأحد بغير البذل والكرم والعطاء والسخاء؟.

نعم. لقد كان إسماعيل سخي اليد كريم النفس كثير العطاء، ولكنّه لم يكن يعطي كل شاعر وأديب لمجرد أدبه وشعره؛ من دون ملاحظته لمقدار علاقة هذا الشاعر أو الأديب بمجلسه وبشخصه، ولهذا نجده قد

(١) معجم الأدباء: ٢٥٦/٦.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٥١/٣ - ٢٥٢.

(٣) معجم الأدباء: ٢٥٧/٦.

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١٣٤/١.

حرم أبا حيان والخوارزمي والأسدي والغويري من عطائه فحسبوا ذلك بخلاً؛ أو أرادوا إيهام الناس فعدّوا ذلك من البخل؛ وما هو منه بشيء، وأي كريم أو جواد في التاريخ بعثر أمواله ونشرها على أعدائه الحاقدين عليه والطاعنين فيه؟.

وحسبنا في معرفة هذه الصفة من صفاته الخلقية أن نقف على النصوص التالية:

أ - «كان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الأشراف وأهل العلم والغرباء الزوّار ومن يجري مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار»^(١).

ب - «كان الصاحب أبو القاسم يراعي من ببغداد والحرمين من أهل الشرف وشيوخ الكتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء بما يحمله إليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم»^(٢).

ج - روى عوف بن الحسين الهمذاني التميمي: «قال: كنت يوماً في خزانة الخلع للصاحب فرأيت في ثبث الحسبانات... مبلغ عمائم الخبز التي صارت في تلك الشتوة في خلع العلويين والفقهاء والشعراء سوى ما صار منها في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين»^(٣).

د - رأى أبو القاسم الزعفراني الشاعر جميع الخدم والحاشية في دار الصاحب وهم يرفلون بالخزوز الملونة الفاخرة فنظم هذه الأبيات وأنشدها بين يدي ابن عباد:

(١) معجم الأدباء: ٢٤٩/٦.

(٢) نفس المصدر: ٣٠٠/٦.

(٣) نفس المصدر: ٢٦٩/٦.

سواك بعد الغنى ما اقتنى
وأنت ابن عبّاد المرتجى
وخيرك من باسط كفه
غمرت الورى بصنوف الندى
وغادرت أشعرهم مفحماً
أيا من عطاياه تهدي الغنى
كسوت المقيمين والزائري
وحاشية الدار يمشون في
ويأمره الحرص أن يخزنا
تعد نوالك نيل المنى
وممن ثناها قريب الجنى
فأصغر ما ملكوه الغنى
وأشكرهم عاجزاً ألكنا
إلى راحتني من نأى أو دنا
من كُنّا لم نخل مثلها ممكنا
ضروب من الخز إلا أنا

«فقال الصاحب: قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلاً قال له:

احمطني، فأمر له بفرس وبغلة وحمار وناقاة وجارية؛ ثم قال: لو علمت أن الله خلق مركوباً غيرها لحملتك عليه، وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب؛ ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه، ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة، وصيرت تلك الخلع إليه، وسلم ما فضل عن لبسه في الوقت إلى غلامه»^(١).

هـ - «مرض مرة بالاسهال، فكان كلما قام عن المطهرة وضع عندها عشرة دنائير لثلا يتبرم به الفراشون فكانوا يتمنون لو طالت علته، ولما غُوفي أباح للفقراء نهب داره وكان فيها ما يساوي نحواً من خمسين ألف دينار من الذهب»^(٢).

(١) معجم الأدباء: ٢٦٩/٦ - ٢٧٠، وانظر: معاهد التنصيص: ١٥٣/٢، وبتيمة

الدهر: ١٧١/٣، ووفيات الأعيان: ٢٠٧/١، وشذرات الذهب: ١١٤/٣.

(٢) البداية والنهاية: ٣١٥/١١، وانظر: معاهد التنصيص: ١٥٧/٢، والمنتظم:

و - «كان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر مثل ما يجري منه في جميع شهور السنة»^(١).

ز - «كان ينفذ إلى بغداد في السنة خمسة آلاف دينار تفرق على الفقهاء والأدباء»^(٢).

ح - أجمع الشعراء الذين شاركوا في رثائه على ذكر كرمه وجوده وصلواته وعطاياه، وشعر الرثاء - بعد فقد الرجل وعدم وجود من يُخشى أو يُرجى من ذوي قرباه - أصدق الشعر وأبعثه من القلب، وأخلاه من الكذب والوضع والتلفيق، ونقتصر من مجموع تلك القصائد على أبيات من قصيدة الشريف الرضي:

يا طالب المعروف حلّق نجمه حُطّ الحمول وعطل الأجمالا
وأقم على ياس فقد ذهب الذي كان الأنام على نداء عيالا^(٣)
إلى أن يقول:

هيات فاتهم تراث مخاطر حفظ الثناء وضيع الأموالا
قد كان أعرف بالزمان وصرفه من أن يُثمّر أو يجمع مالا
مفتاح كل ندى ورب معاشرٍ كانوا على أموالهم أقبالا^(٤)

(١) هدية الأحباب: ١٧٠، وانظر: الكنى والألقاب: ٣٧٠/٢، ومعاهد التنصيص: ١٥٤/٢، واليتيمة: ١٧٤/٣.

(٢) معاهد التنصيص: ١٥٧/٢، وانظر: المنتظم: ١٨٠/٧، والبداية والنهاية: ١١/٣١٤ - ٣١٥.

(٣) ديوان الشريف الرضي: ٣٧٩.

(٤) ديوان الشريف الرضي: ٣٨٢.

ويقول فيها:

قالوا - وقد فجنوا بنعشك سائراً -: من مِيلَ الجبل العظيم فما لا؟
فتبادروا عَظَّ الجيوب وعاجلوا عَضَّ الأنامل يمناً وشمالاً
ما شققوا إلا كسارك وألموا إلا أنامل نلن منك سجالات
من ذا يكون معوضاً ما مزقوا ومعولاً لمؤملٍ وثمانياً؟
فرغت أكفَّ من نوالك بعدها وأطال عظم مصابك الإشعالات^(١)

بهذا القدر من الشواهد التاريخية أكتفي عن التطويل والتفصيل، وقد عرفنا منها أن صفة الكرم من الصفات المتأصلة المتمركزة في نفس الصاحب، وإن ما يروى في خلاف ذلك إما أن يكون مدسوساً لا واقع له، أو له واقع خاص يختلف عن سرد الرواية وتصويرها.

عداؤه للشعوبية:

بالرغم من فارسية ابن عبّاد وأعجميته؛ فقد كان عدواً للشعوبية، مبنغضاً للتعصب الأعجمي، بل كان - على حد تعبير الشيخ الحر العاملي -: «أعجمياً إلا أنه يفضل العرب على العجم»^(٢).
ومما يروى عنه في ذلك قوله مخاطباً رجلاً يتعصب للعجم ويعيب العرب بأكل الحيات:

يا عائب الأعراب من جهله لأكلها الحيات في الطعم
فالعجم طول الليل حياتهم تنساب في الأخت وفي الأم^(٣)

(١) ديوان الشريف الرضي: ٣٨٢، وانظر في مراثي الصاحب: يتيمة الدهر: ٢٥٤/٣ وما بعدها، ومعجم الأدباء: ٢٧٦/٦ و٢٩٥، وعدة أماكن متفرقة أخرى في الكتاب.

(٢) أمل الأمل: ٤٦٢.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٤٤/٣.

وروى عبد الرحيم العباسي بهذا الصدد هذه القصة:

«قال بديع الزمان الهمداني: كنت عند الصاحب بن عبّاد فأتاه

رجل بقصيدة يفضل فيها العجم على العرب، وهي:

غنينا بالطبول عن الطلول	وعن عنس عذافرة ذمول
وأذهلني عقاري عن عقاري	ففي آست أم القضاة مع العدول
فلست بتارك إيوان كسرى	لتوضح أول حومل فالدخول
وضب بالفلا ساع وذئب	بها يعوي وليث وسط غيل
إذا ذبحوا فذلك يوم عيد	وإن نحروا ففي عرس جليل
يسلّون السيوف برأس ضب	هراشاً بالغداة وبالأصيل
بأية رتبة قدمتموها	على ذي الأصل والشرف الجليل
ألا لولم يكن للفرس إلا	نجار الصاحب العدل النبيل
لكان لهم بذلك خير عز	وجيلهم بذلك خير جيل

فلما بلغ إلى هنا قال له الصاحب: قدك، ثم اشرب ينظر إلى الزوايا وأطراف القوم فلم يرني، وكنت في زاوية من زوايا البيت، فقال: أين أبو الفضل؟ فوثبت وبست الأرض بين يديه، فقال: أجه عن ثلاثك. قلت: وما هي؟ قال: أدبك ونسبك ومذهبك، فقلت - ولا مهلة للقول إلا بما تسمع -:

أراك على شفا خطر مهول	بما أودعت نفسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلاً	متى احتاج النهار إلى دليل
ألسنا الضاربين جزى عليهم	فأي الخزي أقعد بالذليل
متى فرع المنابر فارسي؟	متى عرف الأغر من الحجول؟
متى علقت - وأنت بهم زعيم -	أكف الفرس أعراف الخيول
فخرت بملء ماضغتيك فخراً	على قحطان والبيت الأصيل

وحقك أن تبارينا بكسرى فما ثور ككسرى في الرعيل
فخرت بنحو ملبوس وأكل وذلك فخر ربّات الحجول
تفاخرهن في خد أسيل وفرع من مفارقها رسيل
فأوجد من أبيك إذا أثرنا عراة كالليوث وكالنصول

قال: فلما أجبته بهذه الأبيات نظر الصاحب بن عباد إلى الرجل فقال: كيف ترى؟ قال: لو سمعت به ما صدقت، قال: فاذن جائزتك إن وجدتك بعدها في مملكتي أمرت بضرب عنقك، ثم قال: لا ترون رجلاً يفضل العجم على العرب إلا وفيه عرق من المجوسية يرجع إليها^(١).



مذهبه الديني

أن يكون الصاحب بن عبّاد مسلماً راسخ الإيمان صادق الاعتقاد صريح الاعتراف بالأصول الإسلامية قويّ الدفاع عن الدين؛ فهو أمر مفروغ عنه لدى المؤرخين، حيث أجمعوا على ذلك؛ وحيث صرحت كلمات الصاحب به في سائر كتبه الكلامية ومؤلفاته العقائدية وشعره الديني.

أما النزاع المسجّل المائل في كتب التاريخ فيدور حول تعيين الطريقة المذهبية التي اختارها ابن عبّاد لنفسه، فقد عُدَّ في عداد الشيعة الإمامية والزيدية والمعتزلة والحشوية والحنفية والشافعية؛ من دون أن يحاول هؤلاء المؤرخون على كثرتهم تمحيص النقول واستخلاص الواقع المندس خلال هذه الأقاليل، فرأيت الواجب العلمي يدعوني إلى الوقوف عند هذه النقطة الغامضة من تاريخ الصاحب وقفّة تحل الغموض وتجلو الواقع؛ فلعلي أوفق إلى كشف المجهول وإزاحة الالتباس.

واسجل فيما يلي - مقدمة لبحث الموضوع - سائر أقوال المؤرخين ونقولهم، ليلمس القارىء بنفسه مقدار الاضطراب الذي منيت به هذه الناحية من حياة ابن عبّاد في كتب التاريخ.

١ - كان شيعياً إمامياً:

أ - قال ابن أبي طي: «كان إمامي الرأي، وأخطأ من زعم أنه

كان معتزلياً... قال: وشهد الشيخ المفيد بأن الكتاب الذي نسب إلى الصاحب في الاعتزال وضع على لسانه ونسب إليه وليس هو له»^(١).

ب - قال ابن العماد: «وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علي (ع) وثبت إمامته على من تقدمه، لأنه كان شيعياً»^(٢).

ج - قال محمد تقي المجلسي: «كان من أفضه فقهاء أصحابنا المتقدمين والمتأخرين، وكل ما يذكر من العلم والفضل فهو فوقه»^(٣).

د - لما توفي الصاحب قال عبد الجبار القاضي المعتزلي: «لا أرى الترحم عليه لأنه مات عن غير توبة ظهرت منه»^(٤)، وفي لسان الميزان أنه قال: «كيف أصلي على هذا الرافضي؟»^(٥).

هـ - قال الشيخ الصدوق محمد بن علي المعروف بابن بابويه القمي في مقدمة كتابه: «عيون أخبار الرضا»: «وقع إليّ قصيدتان من قصائد الصاحب الجليل كافي الكفاة أبي القاسم إسماعيل بن عباد أطال الله بقاءه؛ وأدام دولته ونعماءه؛ وسلطانه وإعلاءه؛ في إهداء السلام إلى الرضا علي بن موسى... فصنفت هذا الكتاب لخزائنه المعمورة ببقائه، إذ لم أجد شيئاً أثر عنده وأحسن موقعاً لديه من علوم أهل البيت (ع)؛ لتعلقه بحبهم؛ واستمساكه بولايتهم؛ واعتقاده بفرض طاعتهم؛ وقوله بإمامتهم؛ وإكرامه لذريتهم؛ أدام الله عزه وإحسانه إلى

(١) لسان الميزان: ٤١٦/١.

(٢) شذرات الذهب: ١١٥/٣.

(٣) أعيان الشيعة: ٣٣٤/١١.

(٤) ذيل التجارب: ٢٦٣، والكامل: ١٧٠/٧، ومعجم الأدباء: ٢٩٩/٦.

(٥) لسان الميزان: ٤١٦/١.

شيعتهم؛ قاضياً بذلك حق إنعامه عليّ؛ ومتقرباً به إليه لأيديه الزهر عندي ومنته الغرّ لدي»^(١).

كما صرّح بتشيّعه كلُّ من:

- أبي علي محمد بن إسماعيل: في منتهى المقال: ٥٦.
- محمد بن الحسن الحر العاملي: في أمل الآمل: ٤٣.
- أبي القاسم القوبائي: في الإرشاد: ٣١.
- البهائي محمد بن الحسين: في الإرشاد: ٣٢ - ٣٣.
- القاضي نور الله المرعشي: في أعيان الشيعة: ٣٦٣/١١.
- ابن شهرآشوب: في معالم العلماء: ١٣٦.
- محمد باقر المجلسي: في بحار الأنوار: ١٦/١.
- محمد باقر الخونساري: في روضات الجنات: ١٠٥.
- السيد محسن الأمين: في أعيان الشيعة: ٣٦٣/١١.
- السيد حسن الصدر: في تأسيس الشيعة: ١٥٩.
- الشيخ آقا بزرك الطهراني: في الذريعة: ٥٦/١ و ٢١/٤.
- الشيخ عباس القمي: في تنمّة المنتهى: ٤٥٨/٢.
- الشيخ عبدالحسين الأميني: في الغدير: ٥٥/٤.
- الشيخ عبد العزيز الجواهري: في آثار الشيعة الإمامية: ٨٥/٤.

٢ - كان معتزلياً:

أ - خاطب الأمير فخر الدولة وزيره ابن عباد فقال: «بلغني إنك تقول: إن المذهب مذهب الاعتزال...»^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا: ٣.

(٢) معجم الأدباء: ٢٨٤/٦.

ب - قال الصفدي: «ومن المعتزلة أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد»^(١).

ج - قال ابن حجر: «كان صدوقاً إلا أنه كان مشتهراً بمذهب المعتزلة داعية إليه»^(٢).

د - قال أبو حيان التوحيدي: «كان لابن عبّاد قوم يسميهم الدعاة يأمرهم بالتردد إلى الأسواق وتحسين الاعتزال للبقال والعطّار والخباز ونحو ذلك»^(٣).

وقال: «والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته مهجنة بطرائفهم»^(٤).

وقال لما غضب الصاحب عليه حينما بلغه استهزاء التوحيدي برسائله: «حتى كأني طعنت في القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيض أو عقرت ناقة صالح أو سلحت في بئر زمزم أو قلت: كان النظام مأبوناً أو مات أبو هاشم في بيت خمار أو كان عبّاد معلم صبيان»^(٥).

وقال: «قال ابن عبّاد في الخلوة وقد جرى حديث المذهب: كيف أترك هذا المذهب - يعني الاعتزال - وقد نصرته وأشهرت نفسي به وعاديت الصغير والكبير عليه وانقضى عمري فيه»^(٦).

هـ - قال الدكتور أحمد أمين: «والصاحب بن عبّاد كان يعتقد

(١) الكشكول للبهائي: ٢١٢.

(٢) لسان الميزان: ٤١٣/١.

(٣) لسان الميزان: ٤١٥/١.

(٤) الامتاع والموانسة: ٥٤/١.

(٥) معجم الأدباء: ٣٤/١٥ - ٣٥.

(٦) لسان الميزان: ٤١٥/١.

مذهب الاعتزال وينصره وبذلك اعتنق كثير من أهل البلاد الاعتزال»^(١).

وقال: «كان الصاحب بن عباد نصر الاعتزال وقرب إليه المعتزلة إذ كان معتزلياً»^(٢).

و - قال الدكتور ذبيح الله صفا ما ترجمته: «كان بعض رجال الشيعة من تلاميذ أئمة المعتزلة؛ وقد قربوا بين عقائدهم وعقائد أولئك، ومن هؤلاء الصاحب الكافي إسماعيل بن عباد المتوفى عام (٣٨٥هـ) الذي كان من تلاميذ أبي هاشم الجبائي، وقد جمع أبو هاشم بين الاعتزال والتشيع فكوّن منها الطريقة البهشية التي أصبح غالب المعتزلة في أول القرن الخامس من أتباعها»^(٣).

ز - قال أبو بكر عبد الله بن محمد الأسكي في الصاحب:

كل برٍ ونوالٍ وصلته واصل منك إلى المعتزلة
يا بن عبادٍ ستلقى ندماً لفراق الجيرة المرتحلة^(٤)

ح - قال الدكتور إن عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف في مقدمتهما لرسائل الصاحب: «ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه... والغريب أن الصاحب لا يدعو إلى التشيع في رسائله ويدعو إلى الاعتزال وهناك رسالتان طريفتان في الباب السابع عشر وهما نصان صريحان في أنه كان يبعث دعاة له إلى

(١) ظهر الإسلام: ٢٤٩/١.

(٢) ظهر الإسلام: ٢٥٣/١.

(٣) تاريخ أدبيات در إيران: ٥٣/١، وتراجع ص ٢٠٣ منه.

(٤) تمة البيّمة: ٩٦/١.

البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول في مذهب المعتزلة»^(١).

ط - كما ذهب إلى اعتزاله كل من:

الشيخ المفيد المتوفى عام (٤١٣هـ)^(٢) وقد ألف كتاباً في الرد على
الصاحب باسم: «النقض على ابن عبّاد في الإمامة»^(٣).

والسيد المرتضى حيث ألف كتاباً باسم الانصاف في الرد على ابن
عبّاد^(٤).

٣ - كان شيعياً معتزلياً:

أ - قال الرافعي القزويني: «ولولا أن بدعة الاعتزال وشنعة التشيع
شنت أوجه فضله، وغلوّه فيهما حظّ من علوّه لقلّ من يكافئه»^(٥).

ب - قال عبد الرحيم العباسي: «وكان شيعياً جلدأ - كآل بويه -
معتزلياً»^(٦).

ج - لما ورد عبد السلام المأموني الشاعر إلى الري ومدح
الصاحب فنال إعجابه واحترامه دبت عقارب الغيرة في نفوس ندماء ابن
عبّاد وشعرائه؛ فوشوا به إلى الصاحب وهم تارة «ينسبونه إلى الدعوة في
بني العباس ومرة يصفونه بالغلو في النصب واعتقاده تكفير الشيعة
والمعتزلة»^(٧).

(١) مقدمة الرسائل: (ع).

(٢) اليقين: ١٧٤.

(٣) رجال النجاشي: ٢٨٤.

(٤) اليقين: ١٧٤.

(٥) لسان الميزان: ٤١٦/١.

(٦) معاهد التنصيص: ١٥٧/٢.

(٧) بتيمة الدهر: ١٤٩/٤.

٤ - كان زيدياً حنفياً:

قال أبو حيان: «ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية»^(١).

٥ - كان شافعيّاً شيعياً:

«وكان - مع اعتزاله - شافعي المذهب شيعي النحلة»^(٢).

٦ - كان حشويّاً:

«كان حشويّاً لا يعول عليه، وكان يبغض من يميل إلى الفلسفة»^(٣).



هذا بعض ما سجله المؤرخون من أقوال متضاربة وآراء مختلفة ونقول متناقضة في هذا الموضوع؛ من دون أن يجشموا أنفسهم بحث الموضوع ونخل الآراء واستنتاج الحقيقة الضائعة بين هذه الأكوام.

وإذا قرأنا تاريخ الصاحب وكتبه وشعره ورسائله لم نجد أي أثر لشافعيته وزيديته وحنفيته وحشويته، وما ذكره المؤرخون من تمذهبه بهذه المذاهب لا يخرج عن أن يكون عن جهل واشتباه؛ أو قصد لتشويه سمعته وطعنه في عقيدته، وإذن فلا حاجة للوقوف عند هذه الناحية بعد فقدنا لما يدعمها من دليل.

ولكن الوقفة الكبرى يجب أن تكون عند النصوص التي ذهبت إلى تشييعه والأخرى التي ارتأت اعتزاله، لأن الأدلة على كلا الطرفين متوفرة؛ والبراهين على كلا النقلين قائمة، وفيما يلي قائمة بما دل على

(١) الامتاع والمؤانسة: ٥٥/١.

(٢) لسان الميزان: ٤١٣/١.

(٣) نفس المصدر: ٤١٤/١.

تشيع صاحب أو اعتزاله مما سجله صاحب نفسه في شعره ونثره، تمهيداً لما سوف نذكره بعد ذلك من حقيقة مذهبه الذي كان عليه:

ما يدل على اعتزاله:

١ - قال في الإبانة: «وذهبت طائفة من الشيعة ذاهلة عن تحقيق الاستدلال إن علياً (ع) كان في تقية فلذلك ترك الدعوة لنفسه، وزعمت أن عليه نصاً جلياً لا يحتمل التأويل، وقالت العدلية: هذا فاسد. كيف تكون عليه التقية في إقامة الحق وهو سيد بني هاشم، وهذا سعد بن عبادة نابذ المهاجرين وفارق الأنصار ولم يخش مانعاً ودافعاً وخرج إلى حوران ولم يبايع، ولو جاز إخفاء النص الجلي عن الأمة في مثل الإمامة لجاز أن ينكتم صلاة سادسة وشهر يصام فيه غير شهر رمضان فرضاً، وكل ما أجمعت عليه الأمة من أمر الأئمة الذين قاموا بالحق وحكموا بالعدل فهو صواب»^(١).

٢ - قال في عنوان المعارف: «وأتبعت ذلك بذكر من خوطب بالخلافة على النسق غير مرتب للمفضول والفاضل والجائر والعاقل، إذ لو ابتدأت بأتم الخلفاء فضلاً وأعدلهم لافتتحت بسيد المهاجرين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)»^(٢).

٣ - قال في التذكرة: «الأصول الخمسة: التوحيد والعدل والصدق في الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٣).

(١) الإبانة: ٢٨. ضمن المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات.

(٢) عنوان المعارف: ٥، في المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات.

(٣) نفائس المخطوطات: ٨٧/٢.

٤ - استعماله الكثير لكلمتي العدل والتوحيد اللتين كانتا من شعار المعتزلة وعباراتهم الخاصة - وإن كانت الشيعة عدلية أيضاً -، حيث لم نجد في ذلك العصر من يكثر من ترداد هاتين الكلمتين ومن يجعلها علماً وعنواناً سوى المعتزلة. خصوصاً وقد عبر الصاحب عن نفسه وعن أصحابه بالعدلية في رسالة الإبانة الصريحة باعتزاله، وفي رسالته في ترجمة عبد العظيم الحسيني روى ما رُوي عن عبد العظيم في العدل والتوحيد فقط^(١)، ويقول في رسالة له إلى أحد أصدقائه: «كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده والتصديق بوعدده ووعيده... وقد أعان الله على بث كلمة الحق وسمع الأكثر على لين ورفق»^(٢)، ويقول في رسالة أخرى إلى أهل الصيمرة: «إذ كنتم بحمد الله ومنه وطوله وفضله المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله وصدقه في وعيده ووعدده»^(٣).

ويقول في شعره:

أدينه بالعدل والتوحيد والصدق في الوعد وفي الوعيد



قد جهلت في قدم القرآن كمثل جهل عابد الصلبان



الحمد لله إذ كان المشيب على الـ توحيد والعدل لا جبر وتشبيه



(١) نفائس المخطوطات - المجموعة الرابعة - : ٢١ - ٢٢.

(٢) رسائل الصاحب بن عباد: ٢١٩.

(٣) نفس المصدر: ٢١٩.

العدل والتوحيد كل معاقلي وولاء آل الطهر كل حصوني



العدل والتوحيد في جانب وحب آل البيت في جانب

٥ - قال في الهداية والضلالة: «لأن مشائخنا كأبي الفضل جعفر بن حرب وأبي موسى عيسى بن سمح وأبي جعفر الإسكافي وأبي علي محمد بن عبد الوهاب وأبي القاسم البلخي وأبي عثمان عمرو بن بحر قد صنفوا في هذا الباب كتباً مفردة»^(١).

ما يدل على تشييعه:

يقول صاحب في إحدى قصائده:

وأوصى إلى خبر الرجال ابن عمه وإن ناصب الأعداء فيه فما هدوا
تولّى أمور الناس لم يستقلهم ألا ربّما يرتاب من يتقلّد
ولا ارتجعت منه - وقد سار - سورة وغضوا لها أبصاركم وتبددوا
ويقول في أخرى:

قالت: فمن ساد في يوم الغدير ابنٌ فقلت: من صار للإسلام خير ولي
ويقول أيضاً:

أهلاً وسهلاً بأهل بيتك يا إمامَ عدلٍ أقامه الله
ويا غدير انبسط لتسمعهم من كنت مولاه فهو مولاه
ويقول أيضاً:

يا حيدر الشهم البطلُ من لم يشايحك يضلُ
أنت الذي وليّ في براءة فما اعتزلُ

(١) الهداية والضلالة: ٤٨.

أنت الذي تدعى إلى الـ
 أنت الذي عقوده
 طير على رغم السفلى
 يوم الغدير لا تحل
 ويقول أيضاً:

أنت يوم الغدير صدر الموالى
 ويقول:

حلوا وقد عقدوا كما نكثوا وقد
 وافوا يخبرنا بضعف عقولهم
 عهدوا فقل في نكث باغ مبطل
 إن المدبر ثم ربه محمل
 هل صير الله النساء أئمة؟
 يا أمة مثل النعام المهمل
 ويقول:

تركوا الشراب وقد شكوا علل الصدا
 وتعللوا جهلاً بلمع سراب
 لم يعلموا أن الوصي هو الذي
 حكم الغدير له على الأصحاب



هذه بعض كلمات الصاحب وأبياته المتضاربة في بيان المذهب الذي ارتضاه لنفسه، ولعل بين بعض هذه النصوص تناقضاً صريحاً لا لبس فيه؛ كنفية للنص الجلي ثم اعترافه بأن الغدير قد حكم للوصي على الأصحاب، ولا بد لي قبل تسجيل الرأي النهائي في الموضوع أن أمهد للنتيجة بمقدمتين:

(الأولى): إن كثيراً من الالتباس وكثيراً من الخبط والخلط قد وقع في موضوع التشيع والاعتزال حتى وجدنا كثيراً من الشيعة وقد نسب إليهم الاعتزال والعكس بالعكس.

ويرجع هذا الالتباس والخلط إلى عدة أسباب ساعدت عليه، وفي طليعتها هذا التوافق الكبير بين الشيعة والمعتزلة في أكثر الآراء الكلامية والأصول الفلسفية، وخصوصاً في موضوع صفات الله - ثبوتية وسلبية - وعدله وخلق الأفعال وما إليه؛ مما يسبب الاشتباه للمؤرخ فيظن هذا كذاك أو ذاك كهذا^(١).

ولا أبالغ إذا زدت فقلت: إن الدراسة الدقيقة لفلسفتي الشيعة والمعتزلة تدلنا بوضوح على أن أسس الاعتزال وأصوله الأولى مأخوذة من التشيع ومشتقة منه؛ وإن فكرة المذهب وفلسفته مقتبسة - بدقة - من مبادئ التشيع وفلسفته، وتكفينا نظرة واحدة إلى نهج البلاغة للإمام علي (ع)؛ وإلى مرويات المحدثين عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق (ع) في الكلام وأصول الدين لإثبات صدق هذه الدعوى.

ويؤكد ذلك ما روي من أن واصل بن عطاء قد أخذ أصول الاعتزال الأولى من أبي هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب (ع)^(٢)، وإنه لأقصر الطرق الموصلة إلى علي (ع) وآرائه العلمية والفلسفية.

ولا أنفي أن يكون الاعتزال قد تطور بعد حين من ظهوره؛ فتعددت اتجاهاته وتشعبت مدارسه؛ حتى اختلف عن التشيع في بعض النقاط اختلافاً جوهرياً بارزاً للعيان، كما تجد ذلك في المقارنة التي عملها السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين بين آراء الشيعة والمعتزلة

(١) يقول الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام: «يعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا، ويظهر أن التشيع اقترن في هذا العصر - القرن الرابع - اقتراناً تاماً بالاعتزال؛ إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعاً». رسائل صاحب: ص ع.

(٢) فلسفة المعتزلة: ١٣/١.

في بعض الأصول^(١). ولكن الجذور الأولى للاعتزال مأخوذة من التشيع بلا شك.

وهذا هو أكبر الأسباب - في رأيي - لهذا الخلط التاريخي بين الشيعة والمعتزلة وبين التشيع والاعتزال؛ مضافاً إلى العامل السياسي عامل المطاردة التي منيت بها الشيعة؛ والضغط الشديد والمحاربة السافرة التي جوبه بها أنصار هذا المذهب ومعتنقوه، في الوقت الذي كان القول ببعض أصول الاعتزال رائجاً مشهوراً، وكان التظاهر به لا بسبب بلاء ولا يجر إلى نقمة، مع اشتراك الاعتزال والتشيع في القول بأكثر الأصول الدينية، ومع ذهاب أكثر المعتزلة إلى تفضيل علي (ع) على من تقدمه من الخلفاء، وهكذا كان باستطاعة الشيعة أن يحقن دمه بالتظاهر بالاعتزال، ثم كان باستطاعته الدعوة إلى بعض عقائده وأصوله مصبوغة بصيغة المعتزلة، فكان ذلك من أسباب خلط المؤرخين في هذا الموضوع.

هذا كله بالإضافة إلى أن بعض المؤرخين - غير المؤتمنين - قد حاولوا أن ينسبوا للتشيع كل من مدح علياً (ع) وأثنى عليه وروى بعض فضائله ومناقبه من المعتزلة؛ بل نسبوا للتشيع كل من اتصل برجال الشيعة وتلمذ عليهم وأخذ منهم، كما تجد ذلك في ترجمة ابن أبي الحديد المعتزلي ونجم الدين علي بن عمر الكاتبي وكثير من أمثالهما.

ولا يسعنا في هذه العجالة تفصيل البحث في هذه الشؤون فلذلك موضع آخر، بل تكفينا الإشارة الموجزة والنظرة العابرة في معرفة بعض الأسباب التي سببت هذا الالتباس التاريخي في تعريف التشيع والاعتزال والتفريق بين الشيعة والمعتزلة.

(١) راجع: نفائس المخطوطات - المجموعة الخامسة -: ٧٢ - ٨٢.

ولا غرابة إذن إذا ما رأينا المؤرخين وهم ينسبون ابن عبّاد إلى التشيع والاعتزال بنحو الجزم تارة وبنحو التشكيك أخرى، فإن أسباب الخلط - كما أسلفنا - متعددة متكررة.

(الثانية): عرفت إيران بعض مبادئ الاعتزال من يوم ميلاده بل من قبل أن يكون مبدئاً وعقيدة، لأن الجهمية - أتباع جهم بن صفوان - كانت تدعو إلى خلق القرآن ونفي الأزل؛ وكانت منتشرة الرأي قوية الدعاية وخاصة في منطقة خراسان، ثم تلا الجهمية - بعد حين - حفص بن سالم حيث سافر إلى خراسان وأعلن دعوته هناك فأجابه خلق كثير^(١).

وبواسطة حفص دخل الاعتزال إيران فحل في المنطقة التي كانت تؤمن قبل ذلك ببعض مبادئ الاعتزال في ضمن تعاليم الجهم بن صفوان الجبري، ثم كان لواصل - بعد ذلك - أثر كبير في انتشار الاعتزال في تلك النواحي حيث كان يخرج بنفسه لمناظرة السمنية فيجيبونه إلى الإسلام^(٢)، وكذلك كانت مساعي أبي القاسم البلخي ذات شأن بارز في شيوع الدعوة هناك^(٣).

وتطورت الدعوة الاعتزالية مع الزمن حتى بلغت ذروتها في عهد المأمون والمعتصم والواثق، فراحت تغزو المسلمين وتحتل الأذهان في كل بلد وكل صقع، وقد حاول رجالها أن يدعموها بالإقناع المنطقي من جهة والضغط المسلح من جهة أخرى؛ فكان لاجتماع المنطق والسلاح في تدعيم هذه الفكرة أثره الكبير في تقدم الدعوة وشيوعها وانتشارها في سائر أصقاع المعمورة.

(١) المنية والأمل: ١٩ - ٢٠.

(٢) المنية والأمل: ٢١.

(٣) نفس المصدر: ٥١.

وما إن مات الواثق واستولى المتوكل على زمام السلطة حتى أخذت قوة المعتزلة بالانهيار؛ ومنى سلطانها بالاندحار؛ حيث أعلن المتوكل - رسمياً - سخطه وعدم رضاه على هذه الجماعة، ثم أخذ في محاربتهم والتنكيل بهم بلا رحمة ولا هوادة، وأظهر الناس الشماتة بهم والتشفي منهم، وتجلى ذلك بأظهر صورته في تشييع جنازتي أحمد بن نصر وأحمد بن حنبل حيث شيعتا بما لم يسبق له مثيل.

ولما شعر المعتزلة بالخطر الذي يهددهم ويحيط بهم من كل جانب رأوا ضرورة الابتعاد عن عاصمة الخلافة - بغداد - ليكونوا أبعد عن المراقبة وترصد العيون؛ فاتجهوا نحو إيران بشكل منظم جداً، وكان اختيارهم لإيران مبنياً على علمهم بأن أذهان الفرس لا تزال على ذكر من بعض آرائهم ومعتقداتهم؛ حيث سبق لخراسان أن كانت جبرية من أتباع الجهم الذي يوافق المعتزلة في كثير من النقاط، كما سبق لأهلها الاستماع إلى واصل بن عطاء وحفص بن سالم وأبي القاسم البلخي؛ وهؤلاء من أقطاب المعتزلة وكبارهم في العهود الاعتزالية الأولى - كما مر سابقاً -.

وهكذا بدأ المذهب يستعيد مجده في إيران بعد أن فقدته في العراق فانتشر في أصفهان بواسطة محمد بن إبراهيم الزبيرى من أتباع أبي الهذيل العلاف^(١)، وفي جرجان ونيسابور بواسطة أتباع أبي هاشم بن الجبائي^(٢)، وفي الري وحواليها على يد أصحاب الحسين بن محمد النجار^(٣).

(١) فلسفة المعتزلة: ٣٤/١.

(٢) نفس المصدر: ٣٤/١.

(٣) الملل والنحل: ٦١.

ودخل في الاعتزال جماعة من مشاهير الفقهاء^(١)، حتى رأى المقدسي في رحلته في أطراف العالم الإسلامي أن عوام الري يتابعون الفقهاء في خلق القرآن حتى لتقع العصبية بينهم في ذلك، كما رأى أن معظم سكان خوزستان من المعتزلة وقد التقى في رامهرمز - إحدى مدن خوزستان - بشيخ يدرس الكلام على مذاهب المعتزلة^(٢).



وفتح ابن عبّاد عينيه في هذا المحيط المشبع بهذه الروح؛ وفي هذه البيئة المؤمنة بهذا المبدأ؛ وعلى والده العالم المعتزلي الذي صنف كتاب في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه^(٣)، فلا غرابة إذا ما تمذهب ابن عبّاد بهذا المذهب؛ واتخذة ديناً وطريقاً إلى الله تعالى مقلداً في كل ذلك أهل بيته وبيئته، فكان اعتزال الصاحب في أول نشأته أمراً طبيعياً ونتيجة منطقية لمن يولد في بلدة معتزلية ويعيش في كنف أب معتزلي.

وهكذا بقي الصاحب معتزلياً حتى مات من دون أن ينقل عدوؤه عن ذلك أو انتقاله منه إلى غيره، إلا في مسألة الإمامة حيث نرى الصاحب فيها ذا قولين، فهو يصرح في رسالة الإبانة - كما مر عليك - بعدم وجود نصّ جلي على إمامة علي (ع)؛ ثم نراه في مواطن أخرى من شعره وهو معترف بذلك أوضح الاعتراف وأجلاه، مما يظهر أن الإبانة قد ألفت في شبابه يوم كان منكرراً للنص الجلي، ثم انتهى بتطور الزمن

(١) خطط المقرئ: ١٨٤/٤.

(٢) أحسن التقاسيم: ٤١٣ و ٤١٥ و ٤٩٥.

(٣) معجم الأدباء: ١٧٢/٦.

إلى الاعتراف بالنص كما أسلفنا من دون أن يؤثر ذلك في اعتزاله مطلقاً، وفي الاعتراف بالنص يقول:

ما ضرّه جحد الرجال له وغدير خم كاشف الأمر
ويقول:

وقضى الغدير بما قضى والصبح للظلماء طارذ
ويقول:

جذب النبي بضبعه يوم الغدير ووكد التعريف بالتعيين
ويقول:

ما باله وليّ في براءة إذ صـرفوا
ما بالهم يوم الغدير لم ينلهم شرف
مضافاً إلى ما سبق الاستشهاد به من شعره الدال على تشيعه.

فالصاحب - إذن - معترف بالنص الجلي في أكثر سني حياته ولكنه لم يتبرأ من اعتزاله - بعد اعترافه بالنص -، فهو يقول:

قلت: فما اخترت من دين تفوز به؟ فقلت: إني شيعي معتزلي
ويقول عند تعرضه لبني أمية:

إن لم أتابع لعنها فتركت دين من الاعتزال وتركه إلحاد
إن لم أفضل أحمداً ووصيّه فهدمت مجداً شاده عبّاد

ولا تناقض في ذلك ولا تضاد، لأن الاعتزال مذهب عقلي صرف حُكّم فيه عقل الإنسان بعد أن حرر من كل قيود التقليد، فدرس المعتزلة أصول الدين دراسة حرة مجردة، واقتبسوا كل ما روي عن علي (ع) بهذا الصدد، ثم كونوا لهم رأياً خاصاً بهذه الشؤون لا يتنافى مع الإيمان

بالوصية أو عدم الإيمان بها، ولذلك فلا غرابة إذا ما كان صاحب شيعياً ومعتزلياً كما لا غرابة إذا ما كان غيره سنياً ومعتزلياً^(١).

وإذن. فالصاحب شيعي ومعتزلي - كما عبر عن نفسه وأفصح عن عقيدته -، ولا يصح لنا أن ننساق مع بعض المؤرخين الذين نفوا اعتزاله بشكل جازم، فإن حكمهم عليه بالتشيع وحده حكم صادر عن العاطفة ومنبعث عن الرغبة النفسية من دون استناد إلى الواقع؛ أو تمحيص للحقائق.

وللصاحب - بعد ذلك - من القصص المشعرة باعتزاله والمبينة لمقدار علاقته المتينة مع أقطاب المعتزلة ورجالهم. شيء كثير مسجل في معاجم التاريخ لا أجد حاجة لنقله وسطره فليراجع هناك^(٢).



(١) يقول الدكتور البير نادر: «وبالرغم عن ندرة المصادر التي وصلتنا عن المعتزلة - لا سيما فيما يتعلق بمسألة الإمامة - استطعنا بعد الجهد استخلاص آرائهم المتباينة في هذه المسألة فليس للمعتزلة رأي واحد في هذا الموضوع الخطير. إن الأكثرية منهم يشاطرون الشيعة في قولهم: بأن «لا إمامة إلا بالنص والتعيين». والأقلية منهم يشاطرون أهل السنة في قولهم بأن الإمامة ينالها من هو أهل لها». فلسفة المعتزلة: ١٤٨/٢ - ١٤٩.

ويروى الشهرستاني عن النظام قوله: «لا إمامة إلا بالنص والتعيين ظاهراً مكشوفاً، وقد نص التعيين على [علي] في مواضع وأظهره إظهاراً لم يشبه على الجماعة، إلا أن عمراً كتم ذلك، وهو الذي تولى بيعة أبي بكر يوم السقيفة». الملل والنحل: ٦٤/١.

(٢) معجم الأدباء: ٢١٧/٦ - ٢١٨؛ و٢٢٥/٦؛ و٢٤٦/٦؛ و٢٥٧/٦ - ٢٥٨؛ و١٩/١٩٠، والحضارة الإسلامية: ٢٧٦/١.

القسم الثاني

قبل الوزارة

تمهيد:

في العام الحادي والعشرين بعد الثلاثمائة من الهجرة ولدت دولة آل بويه؛ تلك الدولة التي «نبعت بما لم يكن في حساب الناس، ولم يخطر ببال أحد، فدوخت الأمم وأذلت العالم، واستولت على الخلافة فعزلت الخلفاء وولتهم، واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم وأمور العراق، وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق»^(١).

ولم يكن أصل هذه الأسرة ديليماً - كما ذهب إلى ذلك بعض مؤرخة هذا العصر - بل كانت تنتسب بجذورها إلى الفرس، «وإنما قيل لهم الديالمة لأنهم جاوروا الديلم وكانوا بين أظهرهم مدة»^(٢).

وكان بويه أبو الملوک من ذوي الحال المتوسط؛ فكان يصيد

(١) الفخري: ٢٤٤.

(٢) البداية والنهاية: ١١/١٧٣، ويراجع في ذلك: الفخري: ٢٤٤، والكامل: ٦/٢٣٠، وظهر الإسلام: ١/٥٠.

السّمك ويعينه أولاده على تحصيل القوت، حتى روي عن معز الدولة أنه كان يحتطب الحطب^(١).

وكان من ابتداء أمر أولاد بويه: إنهم انخرطوا في سلك الجندية في جيش ما كان بن كالي الديلمي أحد قواد العلويين - ملوك طبرستان والديلم في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع -، وكان لهذا القائد شأن بارز في تاريخ الديلم وطبرستان؛ حيث استولى عليها بعد زوال ملك العلويين، وبقي أميرها المطلق حيناً من الدهر؛ إلى أن ثار عليه أسفار بن شيرويه الديلمي - وكان من قواد جيش ما كان - وناصبه الحرب والعداء فسطع نجمه واشتد بأسه، فلم يجد ما كان بُدّاً من الاتفاق مع مرداويج بن زيار على محاربة أسفار، وهكذا كان. ولما تمّ لهما النصر نقض مرداويج العهد مع صاحبه وسلّ السيف عليه فغلبه، وانهزم ما كان ملتجئاً إلى صاحب خراسان.

وما إن شاهد أولاد بويه هزيمة قائدهم وضعف شأنه وتردي وضعه وشدة ضائقته وفقره حتى صار حوه برغبتهم في فراقه والابتعاد عنه، ووعدوه الرجوع إليه حيثما يحسن وضعه فأذن لهم بذلك فساروا إلى مرداويج بن زيار، ومعهم جمع من قواد ما كان وأفراد جيشه، فاستقبلهم مرداويج استقبالاً حسناً، وولّى كل قائد منهم ناحية من نواحي الجبل، واختار عليّ بن بويه - عماد الدولة - لولاية الكرج، وكتب للجميع عهودهم الرسمية وسيّرهم إلى مناطق عملهم، فمروا بالري وفيها وشمكير نائباً عن أخيه، وأبو عبدالله الحسين العميد ناظراً في الأمور، فاستطاع

(١) الفخري: ٢٤٤، والبداية والنهاية: ١١/١٧٣، والكامل: ٦/٢٣٠، وشذرات الذهب: ١٨/٣.

عماد الدولة أن يجذب العميد إلى جانبه بعدة هدايا وكثير من الملاحظات .

«ثم أوجب الرأي عند مرداويج أن يتعقب ما أمر به من تولية أولئك القواد، وكتب إلى أخيه وشمكير وإلى أبي عبد الله العميد بمنعهم من الخروج من الري، وإن كان بعضهم خرج مُنْع من بقي، وكانت الكتب تصدر أولاً إلى العميد فيقف عليها ثم تعرض على وشمكير جملتها، فحين وقف على الكتاب تقدم إلى علي بن بويه سرّاً أن يبادر إلى عمله فسار من وقته وساعته وطوى المنازل، وأصبح العميد من الغد فأظهر الكتب، فلما عرضها على وشمكير كان قد صار علي بن بويه على مسافة بعيدة فمنع من لم يكن خرج من أولئك القواد، وفاز علي بن بويه بالولاية التي كانت سبب ملكه»^(١).

وصل علي بن بويه إلى الكرج فساس أهلها سياسة رشيدة، ولطف بعمّال البلاد فكانوا يكتبون لمرداويج الكتب، وكلها شكر له على حسن اختياره، وصادف في أثناء ذلك أنه افتتح قلاعاً تعود للخرمية وظفر منها بذخائر وافرة صرفها - جميعاً - في استمالة الرجال وصلاتهم فشاع ذكره وقوى أمره، «وكان مرداويج ذلك الوقت بطبرستان، فلما عاد إلى الري أطلق مالا لجماعة من قواده على كرج فاستمالهم عماد الدولة ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته، وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنقاذ أولئك القواد إلى كرج، فكتب إلى عماد الدولة وأولئك يستدعيهم إليه وتلطف بهم، فدافعه عماد الدولة واشتغل بأخذ العهود عليهم، وخوّفهم من سطوة مرداويج، فأجابوه جميعهم

(١) تجارب الأمم: ٢٧٨/٥، وقريب منه في الكامل: ٢٣١/٦ - ٢٣٢.

فجبي مال كرج، واستأمن إليه شيرزاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه بذلك»^(١).

وهكذا تم لعلي بن بويه في عام (٣٢١هـ) الاستيلاء التام على الكرج فحدثته نفسه بالهجوم على أصفهان فهجم عليها واستقبلته ظروف موالية أعانته على نجاح الهجوم فاحتل أصفهان «وعظم في عيون الناس لأنه كان في تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف رجل، وبلغ ذلك الخليفة فاستعظمه»^(٢) كما بلغ مرداويج فأقلقه وأخافه.

وخفت جيوش مرداويج لقتال عماد الدولة فخشي ابن بويه منها فانسحب من أصفهان متوجهاً إلى أرجان فاحتلها واستخرج منها أموالاً جزيلة شدَّ بها أزر ملكه وجيشه.

وفي أثناء هذا العام حبَّب أبو طالب النويندجاني لعماد الدولة احتلال شيراز لضعف عاملها وسوء سيرته فسار إليها واحتل النويندجان بطريقه وأقام فيها مدة، وأرسل أخاه الحسن بن بويه إلى كازرون وما يجاورها من بلدان فارس فدخلها وجبى منها أموالاً جلييلة، فتحرك عامل تلك المنطقة - ومعه جيشه - لحرب ركن الدولة فواقعهم ابن بويه وهزمهم وهو في عدة قليلة ثم عاد سالماً إلى قواعد أخيه.

وتوجه علي بن بويه بعد ذلك إلى شيراز فالتحم جيشه وجيش خصمه ياقوت - والي البلدة - بحرب طاحنة أدت - بتأثير بعض الصدف من جهة وبسالة جيش عماد الدولة من جهة أخرى - إلى هزيمة ياقوت وانتصار ابن بويه، «وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه في ذلك

(١) الكامل: ٢٣٢/٦، وقريب منه في تجارب الأمم: ٢٧٩/٥.

(٢) الكامل: ٢٣٢/٦، ومثله في البداية والنهاية: ١٧٤/١١.

اليوم من أحسن الناس أثراً، وكان صبيّاً لم تنبت لحيته، وكان عمره تسع عشرة سنة»^(١).

وباحتلال عماد الدولة شيراز وإضافتها إلى رقعة حكمه قوي أمره ورسخ ملكه مضافاً إلى المصادفات الحسنة التي ساعدته على تحصيل المال الذي ملأ خزائنه وأشبع منهم جيشه.

ولما تم له هذا الرسوخ وهذه السيطرة على شيراز وفارس أرسل رسالة للخليفة العباسي الراضي بالله ووزيره أبي علي بن مقلة يظهر لهما الطاعة ويطلب منهما أن يقاطعا تلك البلاد التي كانت تحت يده مقابل مليون درهم يقدمها لهما، فأجيب إلى ذلك، «وأنفذوا له الخلع وشرطوا على الرسول أن لا يسلم إليه الخلع إلا بعد قبض المال، فلما وصل الرسول خرج عماد الدولة إلى لقائه وطلب منه اللواء فذكر له الشرط فأخذهما منه قهراً ولبس الخلع ونشر اللواء بين يديه ودخل البلد وغالط الرسول بالمال فمات الرسول عنده سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وعظم شأنه وقصده الرجال من الأطراف»^(٢).

وبلغت أخبار تقدم ابن بويه وعلاقته ببغداد سمع مرداويج فصمّم على الذهاب إلى الأهواز واحتلالها ليقطع الطريق على جيش الخليفة إذا ما رام إنجاد عماد الدولة، ثم يزحف بعد ذلك إلى جهة خصمه مطمئناً من المؤخرة كل الاطمئنان فلعنه يستطيع التخلص منه أو تقليص أمره - على الأقل -.

وبدأ مرداويج بتنفيذ خطته فسار إلى الأهواز واحتلها بعد حرب ونزاع، فبلغ ذلك عماد الدولة وخشي وخامة العاقبة فراسل كاتب

(١) الكامل: ٢٣٥/٦، وقريب منه في تجارب الأمم: ٢٩٨/٥.

(٢) الكامل: ٢٣٥/٦.

مرداويج يستميله ويتملقه ويطلب منه أن يكون وسيطاً بينه وبين مرداويج بالصلح، ففعل الكاتب ذلك وأقنع مرداويج بالفكرة فوافق عليها مُشترَطة بالطاعة والخطبة له، ورضخ ابن بويه للشرط وأنفذ أخاه ركن الدولة الحسن رهينةً عند مرداويج فاستقر الوضع وهدأت الحالة إلى حين.

وتدور الدائرة على مرداويج بعد أشهر من الصلح - في تفصيل لا يسعه المجال - وتتكشف النتيجة عن قتل مرداويج وتخلص ركن الدولة من الأسر - وكان رهينة عند الزياريين -، ثم ارتفاع أمر عماد الدولة بعد موت خصمه القوي العنيد.

وبالنظر إلى عدم وفاء عماد الدولة بشروطه التي أعطاها للخليفة في أمر المال أرسل الخليفة جيوشه إلى الأهواز - بعد مقتل مرداويج -، وكان على رأسها ياقوت وكاتبه البريدي أبو عبد الله، فالتقت بجيش ابن بويه في نواحي أرجان، وبدأت الحرب ثم وضعت أوزارها بهزيمة ياقوت وأصحابه وظهور فكرة الصلح، فوافق ابن بويه على ذلك، فكتب البريدي إلى الخليفة كتاباً طلب فيه إقرار عماد الدولة على البلاد التي استولى عليها فأقره الخليفة على ذلك.

وفي عام (٣٢٣) جهز عماد الدولة أخاه الحسن ركن الدولة وسيّره إلى بلاد الجبل في جيش جرار فسار إلى أصبهان واستولى عليها وأزال عنها نواب وشمكير - أخي مرداويج وخليفته في الملك - كما أزالهم عن عدة مناطق أخرى.

ولما غضب الخليفة على أبي عبد الله البريدي وحرابه في الأهواز فرّ مستجيراً بعماد الدولة فأجاره فحبب له البريدي احتلال بغداد فأمر بذلك أخاه أحمد معز الدولة.

وبقيت بغداد شغل أحمد الشاغل فكان يحاول ذلك ويخفق عدة مرات حتى نجحت محاولاته عام (٣٣٤) فدخل بغداد ظافراً منتصراً.

وهكذا كان هؤلاء الأخوة الثلاثة يتقاسمون حكم إيران والعراق، فلمعز الدولة العراق والأهواز، ولعماد الدولة بلاد فارس، ولركن الدولة الري وأصبهان والجبيل.

وكانت العلاقات بين هؤلاء الأخوة على أفضل ما يتصور وداً وشفاءً واحتراماً وإخلاصاً، و«كان معز الدولة أحمد بن بويه صاحب أمر الخلافة يوثق يديه يحب أخاه عماد الدولة ويحترمه ويكاتبه بالعبودية ويقبل الأرض بين يديه إذا اجتمعا - مع عظم سلطانه - لكونه أكبر سنًا».

وفي عام (٣٣٨) وافى عماد الدولة أجله فذهب إلى رحمة ربه بعدما جعل عضد الدولة ابن أخيه ركن الدولة خليفة له ووليَّ عهده.

وفي عام (٣٥٦) توفي معز الدولة بعد مرض عضال، وأوصى بالملك لابنه بختيار عز الدولة.

وفي عام (٣٦٦) أحس ركن الدولة بالموت فعهد «إلى ولده عضد الدولة بالملك بعده، وجعل لولده فخر الدولة أبي الحسن علي همذان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد الدولة أصبهان وأعمالها، وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة»^(١)، ثم توفي بعد ذلك بمدة قصيرة.

منصب الكتابة:

لما توفي أبو علي القمي وزير ركن الدولة عام (٣٢٨) تولى أبو الفضل محمد بن العميد الوزارة لركن الدولة؛ تقديراً لكفاءته؛ ووفاءً لحسن صنيع والده العميد مع عماد الدولة - كما مرَّ بيانه -، وكان ابن العميد على جانب كبير من العلم والفضل والأدب والبلاغة؛ فلا غرو إذا ما كان مجلسه غاصاً بالشعراء والأدباء والعلماء، كما لا غرو إذا ما تهافت طلاب العلم ورواد الأدب عليه لينهلوا منه ويرتشفوا من نيميره.

وكان ابن عبّاد - الشاب الطموح كذلك، فقد اتصل بابن العميد اتصال دراسة وتأدب، ثم تطورت الصلة إلى كتابة وخدمة، وكان شفيح ابن عبّاد في تقدمه واتصاله بابن العميد مركز والده عبّاد - وزير ركن الدولة -؛ وقابليته الشخصية البارزة؛ وكفاءته التي أحس بها ابن العميد فأراد الاستفادة منها في هذه السبيل.

يقول ياقوت:

«كان الصاحب في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضل بن العميد علياً خاصة»^(١).

(١) معجم الأدباء: ٦/١٧٢.

وهكذا ذكر باقي المؤرخين من أن أول صلة ودراسة علمية للصاحب كانت على يد ابن العميد وفي مجلسه، وإن أول عمل كان للصاحب هو كتابة خاصة ابن العميد^(١)، ولم يخالف في ذلك سوى آدم متز حيث يقول:

«كان في بدء أمره معلماً في قرية، ثم ترقى به الحال بعد أن كان من صغار الكتاب إلى أن بلغ منصب الوزير المدبر لأمر الملك»^(٢).

ولم نجد ما يؤيد ذلك في كتب التاريخ، وأظنه اشتهاها بأبيه عباد الذي روى أبو حيان إنه كان معلماً في قرية طالقان الديلم.

ومهما يكن من أمر. فقد اتصل إسماعيل بابن العميد، ثم تطور الاتصال حتى أصبح إشراقاً على كتابة الخاصة، وصادف في أثناء ذلك تهيؤ الأمير مؤيد الدولة للسفر إلى بغداد فاختر له ابن عباد كاتباً، وفي ذلك يقول مسكويه في حوادث عام (٣٤٧هـ):

«ورد الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة إلى بغداد يخطب ابنة معز الدولة، ومعه أبو علي بن الفضل القاشاني وزيراً، ومعه أبو القاسم إسماعيل ابن عباد يكتب له على سبيل الترسل»^(٣).

وكان اختيار ابن عباد - وهو في الحادية والعشرين من العمر - للكتابة لأبي منصور؛ وإرساله صحبة الأمير في تلك الرحلة التي كانت مطبوعة - بلا شك - بطابع الأبهة والجلالة والفخر واختيار العناصر الكفؤة القوية؛ خصوصاً وأن مقصدهم في رحلتهم بغداد: مهد العلم والأدب والفضل في ذلك العهد؛ كان كل ذلك دليلاً على الكفاءة

(١) الوسيط: ٢١٢.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية: ١٣٤/١.

(٣) تجارب الأمم: ١٦٨/٦.

والرجاحة وقوة الفكر ودقة الفهم عند الصاحب بن عباد.

وعثرت في معجم الأدباء على رسالة كتبها ابن العميد لابن عباد يستدعيه فيها ليكون مشرفاً على تربية أحد أولاد ركن الدولة جاء في أوائلها:

«مولاي وإن كان سيداً بهرتنا نفاسته، وابن صاحب تقدمت علينا رياسته، فإنه يعدني سيداً ووالداً، كما أعدّه ولدأً واحداً، ومن حق ذلك أن يعضد رأبي برأيه ليزداد استحكاماً، وتظاهر عقداً وإبراماً».

ثم يقول بعد سطور:

«مولاي غني عن هذا العمل بصونه وتصلفه وعزوفه، وبهمته عن التكثر بالمال وتحصيله، لكن العمل فقير إلى كفايته، يحتاج إلى كفالته، وما أقول: إن مرادي ما يعقد من حساب وينشأ من كتاب، ويستظهر به من جمع وبذر ومن عطاء ومنع، فكل ذلك - وإن كان مقصوداً وفي آلات الوزارة معدوداً - ففي كتاب مولاي من بقي به ويستوفيه، ويوفي عليه ما يسر مساعيه، ولكن وليّ النعمة يريد له تهذيب ولده، ومن هو ولي عهده من بعده، والمأمول ليومه وغده. أدام الله أيامه، وبلغه فيه مرامه».

إلى أن يقول في أواخرها:

«فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته، فمن هذه الدولة جرى ما فضّله وفضّل الشيخ الأمين من قبله... إلخ»^(١).

والمؤسف هنا إننا لم نعر على تاريخ كتابتها، ولم نعلم إنها كانت قبل صحبة ابن عباد لمؤيد الدولة إلى بغداد أم بعد ذلك؟

(١) معجم الأدباء: ٢٢١/٦ - ٢٢٤.

وإنما قلت: مؤيد الدولة - مع عدم ورود اسمه في الرسالة - لأنه هو الذي خلف أباه في مركز ملكه، وأما عضد الدولة فقد خلف عمه عماد الدولة وإن كان له الإشراف على أخيه.

وظني - ولعلّه صادقي - إن هذه الرسالة كانت قبل عام (٣٤٧) وهو العام الذي سافر فيه أبو منصور إلى بغداد لخطبة ابنة عمه، ويرجحه - عندي على الأقل - ما رواه المؤرخون من أن ابن عباد إنما سمي بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة منذ الصبا^(١).

وسواءً أكان الموصوف بالصبا هو إسماعيل - كما يرجح - أو مؤيد الدولة فإن ذلك يقتضي أن يكون قبل العام المشار إليه.

أما لماذا كتب ابن العميد رسالة لابن عباد في هذا الموضوع ولم يستدعه لهذا الغرض؛ وأين كان الصاحب لترسل إليه الرسالة؟ فذلك أمر لا أعلمه ولم أعثر على نص يوضح الحقيقة فيه.

وأخيراً فقد أصبح الصاحب - منذ هذا العهد - كاتباً «لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخي عضد الدولة بن ركن الدولة الديلمي، ومؤيد الدولة حينئذٍ أمير وأحسن في خدمته، وحصل له عنده بقدّم الخدمة قَدَم، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة»^(٢).

وبمجرد وصول ابن عباد إلى هذه الرتبة فارق ابن العميد وترك صحبته، فكان لا يفارق مؤيد الدولة في حل ولا في سفر - وقد مرّ عليك نبأ رحلته معه إلى بغداد -، وروى أبو حيان التوحيدي أنه كان

(١) راجع: النجوم الزاهرة: ٤/١٧٠، وابن خلكان: ١/٢٠٧، وبغية الوعاة: ١٩٦.

(٢) معجم الأدباء: ٦/١٧٢ - ١٧٣.

بالري عام (٣٥٨) وكان «ابن عبّاد بها مع مؤيد الدولة قد ورد في مهمات وحوائج»^(١)، وإن ابن عبّاد - في هذه السفارة - حضر مجلس ابن العميد^(٢).

وبقي الصاحب على علاقته هذه بأميره حتى توفي ركن الدولة عام (٣٦٦هـ)، فلما «ولي مؤيد الدولة بلاده بالري وأصبهان وتلك النواحي خلع على أبي الفتح ابن العميد وزير أبيه خلع الوزارة، وأجراه على ما كان في أيام أبيه»^(٣)، و«الصاحب على جملته في الكتابة لمؤيد الدولة، فكره أبو الفتح موضعه فبعث الجند على الشعب وهموا بقتل الصاحب»^(٤).

وأبو الفتح هذا هو ابن أبي الفضل بن العميد أستاذ الصاحب ومرشده لأول، ولما توفي أبو الفضل عام (٣٦٠) ولّى ركن الدولة ابنه أبا الفتح وزارة أبيه، وجعل له من التصرف ما كان لأبيه، وكان أبو الفتح فتى مغروراً مأخوذاً بطيش الشباب ونزقه، وقوة المنصب وعظمته، فلم يكن من الهين عليه رؤيته لابن عبّاد في اتصاله بمؤيد الدولة وصحبته معه، ووثوق الأمير به واعتماده عليه، فلم يجد بداً - إرضاءً لطيشه - من بعث الجند على الشعب وتحريضهم على قتل ابن عبّاد والتخلص منه.

ويروي لنا أبو حيان التوحيدي بعض التفاصيل فيقول:

«كان ابن عبّاد قد ورد الريّ، وحطبه رطب، وتنوره بارد، وأمره غير نافذ، هذا في الظاهر، وأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثبه على أبي الفتح بما يجد السبيل إليه من الطعن والقدح، فأحسّ بذلك ابن

(١) معجم الأدياء: ٢٠٩/٦.

(٢) معجم الأدياء: ٢٢٤/٦ - ٢٢٥.

(٣) معجم الأدياء: ١٧٣/٦.

(٤) معجم الأدياء: ١٩٤/١٤.

العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغب وعظم الخطب وهم بقتله، وقال للأمير: ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام الخسف، والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمزات الهوان، فقال له في الجواب: كلامك مسموع، ورضاك متبوع، فما الذي يبرد فورتك عنه؟، قال: ينصرف إلى أصفهان موفوراً، فوالله لو طالبتة منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه، ولئن أحس الأولياء الذين أصطنعهم بمالي وإفضالي بكلامه في أمري وسعيه في فساد حالي ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ومن المزن إذا نطف، فقال له: لا مخالف لرأيك والنظر لك والزمام بيدك».

«وتلطف ابن عباد في خلال ذلك لأبي الفتح، وقال له: أنا أتظلم منك إليك وأتحمل بك عليك، وهذا الاستيحاش سهل الزوال إذا تألفت الشارد من حلمك، وعطفت على الشائع من كرمك. ولني ديوان الإنشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك، وأحضرني بين أمرك ونهيك، وسمني برضاك فإني صنيعه والدك، واتخذني بهذا صنيعه لك، وليس يجمل أن تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه، ومتى أجبتني إلى هذا وأمنتني فإني أكون خادمك بحضرتك، وكاتباً يطلب الزلفة عندك في صغير أمرك وكبيره، وفي هذا إطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائي عليّ، فقال في الجواب: والله لا تجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الأمير، ولا يكون لك إذن عليّ ولا عين عندي، وليس لك مني رضاً إلا بالعود إلى مكانك من أصبهان والسلو عما تحدث به نفسك».

«فخرج ابن عباد من الري على صورة قبيحة متنكراً بالليل، وذلك أنه خاف الفتك والغلبة، وبلغ أصبهان وألقى عصاه بها ونفسه تغلي

وصدره يفور، والخوف شامل، والوسواس غالب، وهمّ أبو الفتح بإنفاذ من يطالبه ويؤذيه ويهينه ويعسفه فأحسّ هو بالأمر»^(١).

وحدّث الصاحب عن بعض هذه النكبة فقال:

«إن مؤيد الدولة قال لي عند خروجي إلى أصفهان: إن ورد عليك كتاب بخطي أو جاءك أجلٌ حجابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من أصفهان ولا تفارقها إلى أن يجيئك فلان الركابي، فإنه إن اتجهت لي حيلة على هذا الرجل وأمكنتني الله من القبض عليه بادرت به إليك، وهو العلامة بيني وبينك»^(٢).

ووصف الصاحب كيفية خروجه فقال مخاطباً الشريف أبا طالب العلوي:

«أيها الشريف. أين الحق الذي وكدناه أيام كادت الشمس تزول، والزمان علينا يصول، وأنا أقول وأنت تقول، والحال بيننا يحول، سقى الله ليلة تشيعك وتوديعك، وأنت متنكر تنكراً يسوء الموالي، وأنا متفكر تفكراً يسوء العدو، ونحن متوجهون إلى ورّامين خوفاً من ذلك الجاهل المهين»^(٣).

وهكذا فر ابن عبّاد من الري إلى أصفهان وكله قلق وخوف وترقب، وبقي صاحبه الأمير مؤيد الدولة يترقب الفرص وينتظر المناسبات حتى استغل فرصة ما قرره صاحب خراسان من الزحف على

(١) معجم الأدباء: ٢١٧/١٤ - ٢١٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢١١/١٤.

(٣) معجم الأدباء: ١٩٤/٦، ويراجع في شماتة ابن العميد وفرحه بفرار الصاحب:

معجم الأدباء: ٢٥٠/٦ - ٢٥١، والمنتظم: ١٧٩/٧.

مؤيد الدولة والدلوف إليه، فعمل لابن العميد حيلة أدت إلى قتله والتخلص منه^(١).

وما إن تم القبض على ابن العميد حتى «استدعى ابن عبّاد من أصفهان وولي الوزارة، ودبرها برأي وثيق وجد رتيق»^(٢).



(١) راجع في تفصيل ذلك: معجم الأدباء: ٢٠٦/١٤ - ٢١٠، ونفس المصدر: ١٤/٢٢٧ - ٢١٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢٢٧/١٤.

بعد الوزارة

في عهد مؤيد الدولة:

أصبح ابن عبّاد وزيراً لمؤيد الدولة - كما أسلفنا -؛ من دون وجود معارض يُخشى كيده وحقده، فكان أول أعماله العفو عن أصحاب خصمه ابن العميد بأجمعهم، وفي ذلك يقول أبو بكر الخوارزمي من رسالة له إلى أحد أصدقائه:

«وجدت فلاناً وفلاناً ندماء ابن العميد - رحمه الله -، وقد ألبسهم الخذلان ثيابه، ونفض عليهم الإدبار ترابه، ونبذهم الإقبال وراء ظهره، ونظر إليهم الزمان بمؤخر عينه، فهم أرخص من التمر بكرمان، وأضيق من الورد في شهر رمضان، وأثقل من الفرو في حزيران، وأكسد من أبي بكر الخوارزمي بخراسان، وكذلك تكون مضارع البغي والعدوان، وحصائد البهت والبهتان، ولقد جلسوا على قارعة الأمصار، واعترضوا ليد التحكم والاقْتدار، واستهدفوا لسهام الأيام والأقْدار، ولولا أنْ أمورهم أفضت إلى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع، ولديه من الحلم والحياء وسيلة وشافع، وهذا وقد ولغوا في دمه، ورتعوا في لحمه، وخبوا وأعتقوا في ذمه بل في شتمه، فلم يبقوا في القوس منزعاً، ولم يتركوا للصالح موضعاً، فلما دفع الإقبال ربقتهم إليه، وصارت حياتهم وموتهم في يديه، أسبل عليهم ستر العفو والمغفرة، وأتبع فيهم

حكم الصفح بعد المقدرة، وقلم عنهم أظافير الحدثان، وقام دونهم في وجه الزمان»^(١).

وكان لقابليّات الصاحب ومقدرته؛ وبُعد تفكيره؛ وحسن إدارته وفهمه؛ أثرها الكبير في عظم منزلته ومكانته في نفس أميره المباشر مؤيد الدولة؛ والملك المشرف عضد الدولة، فلا غرو إذا ما كانا كثيري الاحترام له والاحتفاء به والتقدير لكريم جهوده ومسامحه، حتى كان عضد الدولة يخاطبه «خطاباً لا يشرك معه فيه أحداً»^(٢)، وحتى ادعى أبو حيان بأنه «قد أفسده ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه»^(٣).

ولم تكن علاقة ابن عباد بمؤيد الدولة وعضد الدولة علاقة الرئيس بالمرؤوس والأمير بالمأمور، بل كانت علاقة صداقة متينة واحترام متبادل وود كبير، وقد روي عن أبي نصر صاحب عضد الدولة ومعتمه قوله: «إنَّ عضد الدولة ينزله - والضمير للصاحب - المنزلة الكبيرة، ويؤثر أن يقضي حقه»^(٤).

ولما تحرك عضد الدولة عام (٣٦٩) لمحاربة أخيه فخر الدولة - الذي نقض العهد ولم ينفذ وصية أبيه له بإطاعة عضد الدولة -؛ وفتح مناطق ملك أخيه واحتلها؛ قفل راجعاً إلى نهاوند و«أقام بها، ورتب العمال في النواحي، وجدَّ في تناول الموجود لأنه كان من رأيه أن يجعل همذان ونهاوند لمؤيد الدولة، ثم انتقل في صفر من نهاوند إلى همذان ونزل دار فخر الدولة بها»^(٥).

(١) رسائل الخوارزمي: ٥٢.

(٢) معجم الأدباء: ٦/٢٨٠.

(٣) نفس المصدر: ٦/١٨٣.

(٤) ذيل تجارب الأمم: ١٨.

(٥) نفس المصدر: ١٠.

وأراد مؤيد الدولة أن يؤكد لأخيه العضد علاقته به وخضوعه له؛ فاختار الصاحب ليكون رسولاً من قبله إلى أخيه يبذل له الطاعة والموافقة^(١)، وكان ذلك عام (٣٧٠)^(٢) «فتلقاه عضد الدولة على بُعد من البلد، وبالغ في إكرامه، ورسم لأكابر كتّابه وأصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك؛ حتى أنهم كانوا يغشونه مدة مقامه مواصلة، ولم يركب هو إلى أحدٍ منهم، وكان غرض عضد الدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأسيس الصاحب»^(٣).

«ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب أموره ببعده، فوقع الشروع في تقرير ارتفاع همدان ونهاوند معهما عليه»^(٤)، ثم تم التفاهم على أمر هذين البلدين بما أرضى الطرفين.

وفي شهر ربيع الآخر خرج عضد الدولة إلى خارج همدان بقصد التوجه إلى العراق ف «خلع على الصاحب الخلع الجليلة؛ وحمله على فرس بمركب ذهب، ونصب له دستاً كاملاً في خركاه يتصل بمضاربه وأجلسه فيه، وقطعه ضياعاً جليلاً من نواحي فارس، وحمل إلى مؤيد الدولة في صحته ألطافاً كثيرة، وضم إليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة»^(٥).

وهكذا نرى من مجموع هذه النصوص مقدار متانة العلاقة والاحترام المتبادل بين عضد الدولة وابن عباد بالشكل الذي لا يدع

(١) يراجع في تفصيل ذلك: الكامل: ١٠٤/٧.

(٢) هكذا روت كتب التاريخ خلافاً لأبي حيان الذي يروي إنها كانت عام ٣٦٩ كما

نقل عنه في معجم الأدباء: ١٨٧/٦.

(٣) ذيل تجارب الأمم: ١٠ - ١١.

(٤) نفس المصدر: ١١.

(٥) نفس المصدر: ١١. ويراجع الكامل: ١٠٤/٧.

مجالاً لاحتتمالٍ أو شك في كل ذلك، وقد أيدته الحوادث والوقائع التاريخية كل التأييد، ودلت عليه مراسلات الصاحب ومكاتباته لعضد الدولة بصراحة ووضوح.

ولكنَّ الشيء الذي يلفت النظر أن نقرأ في بعض المراجع التاريخية أخبار محاولة مدبرة من قبل عضد الدولة للقبض على الصاحب، ثم تركه لتنفيذها حينما علم بظهور خبرها واطلاع بعض حاشيته عليها، وإليك بعض تفاصيلها منقولةً عن ياقوت الحموي كما رواها عن أبي علي المحسن التنوخي:

«قال: كنت بهمدان مع الملك عضد الدولة، فانفق أن مضيت يوماً إلى أبي بكر بن شاهويه رسول القرامطة والمتوسط بين عضد الدولة وبينهم وكان له صديقاً، ومعني أبو علي الهائم وجلسنا نتحدث... فقال لي: اجعل أيها القاضي في نفسك المقام في هذه الشتوة في هذا البلد، فقلت: لِم؟، فقال: إن الملك مدبر في القبض على الصاحب أبي القاسم بن عباد وكان قد ورد إلى حضرته بهمدان، وإذا كان كذلك تشاغل بما يتناول معه الأيام، وانصرفت من عنده، فقال أبو علي الهائم: قد سمعت ما كنتما فيه وهذا أمر ينبغي أن تطويه ولا تخرج به إلى أحد، ولا سيما إلى أبي الفضل بن أحمد الشيرازي، فقلت: أفعل، ونزلت إلى خيمتي وجاءني من كانت له عادة جارية بملازمتي ومواصلي... وفيهم أبو الفضل بن أحمد الشيرازي، فقال لي: أيها القاضي أنت مشغول القلب فما الذي حدث؟، فاسترسلت على أنس كان بيننا، وقلت: أما علمت أن الملك مقيم وقد عمل على كذا في أمر الصاحب، وهذا دليل على تناول السنة، فلم يتمالك أن انصرف...، فكتب إلى عضد الدولة رقعة يقول فيها: كنت عند القاضي أبي علي التنوخي فقال كذا وكذا، وذكر أنه قد عرفه من حيث لا يشك فيه

وعرفت إنه كان عند أبي بكر بن شاهويه، وربما كان لهذا الحديث أصل، وإذا شاع الخبر به وأظهر السر فيه فسد ما دُبّر في معناه، فلما وقف عضد الدولة على الرقعة وجم وجوماً شديداً وقام من سماط كان قد عمله في ذلك اليوم...»^(١).

ويضيف التنوخى قائلاً:

«ثم رحلنا عائدين إلى بغداد، فرآني الملك في الطريق وعليّ ثياب حسنة وتحتي بغلة بمركب وجناح جواد، فقال لي: من أين لك هذه البغلة؟ قلت: حملني عليها الصاحب أبو القاسم بمركبها وجناحها وأعطاني عشرين قطعة ثياباً وسبعة آلاف درهم، فقال: هذا قليل لك منه مع ما تستحقه عليه، فعلمت أنه اتهمني به، وبأني خرجت بذلك الحديث إليه، وما كنت حدثته به»^(٢).

والمؤسف أنّ هذه التفاصيل كلها لم تشر إلى الأسباب المباشرة التي حملت عضد الدولة على القيام بتنظيم هذه المؤامرة المحكمة للقبض على ابن عبّاد؛ فلم نعرف الدافع الحقيقي لذلك، ولعلّ السبب فيه علاقة الصاحب بفخر الدولة أخي عضد الدولة وعدوه اللدود، حيث دلت بعض الحوادث التاريخية على وجود علاقة خاصة بينهما، وإن كان الصاحب - في ظاهره - عدواً لفخر الدولة وحرماً عليه، وهو أول من بشر عضد الدولة بالنصر على عدويه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير برسالة مفصلة هي الأولى من كتاب رسائله، ولعلّ الوشاة والمشائين بالنميم قد حدثوا عضد الدولة وأبلغوه أبناء هذه العلاقة - على حقيقتها أو مكبرة مشوهة - فغضب عليه.

(١) معجم الأدباء: ١٠٧/١٧ - ١٠٩، وقريب منه في ذيل التجارب: ١٩.

(٢) معجم الأدباء: ١١٣/١٧، وقريب منه في ذيل تجارب الأمم: ٢٠.

ومهما يكن من أمر، فقد بقيت ظواهر الحال حسنة بين الطرفين طيلة حياة عضد الدولة حتى توفي عام (٣٧٢هـ)، ولما بلغ ذلك سمع مؤيد الدولة صمم على الاستيلاء على ملك أخيه والقيام مقامه فيها، ولم يشر المؤرخون إلى موقف الصاحب من تصميم أميره المؤيد وإلى مقدار جهده في هذه السبيل.

ولكنني أعتقد أن هذه المحاولة وهذا التصميم من مؤيد الدولة لم يكن إلا بتحريض من الصاحب عليه وسعي في سبيله، لأن حكم بغداد والاستيلاء على دست الوزارة فيها كان من أحلام الصاحب وآماله التي لا تفارقه لحظة واحدة، وكانت هذه المحاولة واحدة من عدة محاولات قام بها من وراء الستار باسم أمرائه لغرض التربع على كرسي الحكم ببغداد إرضاءً لطموحه وإشباعاً لرغبته.

وأنفذ مؤيد الدولة «أبا علي القاسم إلى فارس متحملاً لرسالة إلى الأمير أبي الفوارس ابن عضد الدولة، فورد كتاب أبي علي هذا عليه بوقوع الخطبة له في بلاد فارس وثبوت اسمه على الدينار والدرهم...»، ثم راسل أخاه فخر الدولة بالوعود الجميلة، وبذل له ولاية جرجان وتقويته بما يحتاج إليه من الأموال، فلم يسكن فخر الدولة إلى قوله وأقام بموضعه، وبينما الحال على ذلك إذ جاءه الأمر الذي لا يغلب والنداء الذي لا يحجب^(١)، فتوفي عام (٣٧٣هـ).

في عهد فخر الدولة:

توفي مؤيد الدولة في عام (٣٧٣هـ) - كما مر - من دون أن يعهد لأحد من بعده بالأمر، وكان الصاحب قد طلب منه حينما دنت إليه الوفاة أن يعهد، فأبى وقال: أنا في شغل عن هذا^(١).

وما إن أعلن موته حتى كتب الصاحب «في الوقت إلى فخر الدولة بالإسراع، وأرسل أخاه وبعض ثقائه ليستوثق منه باليمين على الحفظ والوفاء بالعهد، وتجرد الصاحب لضبط الأمر، ووضع العطاء في الجند، ونصب أبا العباس خسر فيروز بن ركن الدولة في الإمارة؛ تسكيناً للفتنة؛ وإزالة للخلف في عاجل الحال، وكتب الناس مثنى وفرادى إلى فخر الدولة بالطاعة؛ وهو يومئذ بنواحي نيسابور على حالة مختلفة وإضافة شديدة».

«فلما ورد إلى فخر الدولة كتاب ابن عباد وتلاه كُتِبَ وجوه العساكر أولاً فأولاً؛ سار على الفور، وعرف قابوس الخبر فأرسل إليه: إن بيننا ما أريد مفاوضتك فيه، فأجابه: بأنني قد توجهت ولا قدرة لي على العود بعد التوجه، ومهما أردت فكاتب به، وبادر يطوي المنازل نحو جرجان»^(٢).

(١) الكامل: ١١٧/٧.

(٢) ذيل تجارب الأمم: ٩٣.

ووردت الأنباء تخبر بقرب وصول فخر الدولة إلى جرجان، فجمع الصاحب سائر أفراد الجيش ورجاله وقال لهم: «إنما أخذت البيعة عليكم لأبي العباس خسر فيروز على أنه خليفة أخيه فخر الدولة، فبادروا إلى تلقّيه وخدمته، فندبوا عند ذلك أبا الحسين محمد بن علي بن القاسم العارض... فسار إليه... فأكرمه فخر الدولة...، ثم تلقاه الصاحب أبو القاسم بن عباد مع الأمير أبي العباس خسر فيروز وأكابر القواد؛ فرحب به فخر الدولة وبالغ في إكرامه، وتناهى في إعظامه، ونزل بظاهر المدينة... ثم دخل البلد من غده وأخذت البيعة له بالطاعة والمخالصة، واستقرت الإمارة عليه»^(١).

و«لما انتظم الأمر لفخر الدولة قال له الصاحب: قد بلغك الله يا مولاي وبلغني فيك ما أمّلته لنفسك وأمّلته لك، ومن حقوق خدمتي عليك إجابتي إلى ما أوتره من ملازمة داري واعتزال الجندیّة والتوفر على أمر المعاد، وقال له [فخر الدولة]: لا تقل أيها الصاحب هذا فإنني ما أريد الملك إلا لك، ولا يجوز أن يستقيم أمري إلا بك، وإذا كرهت ملابسة الأمور كرهت ذاك بكراهيتك وانصرفت، فقبل الأرض شكراً وقال: الأمر أمرك»^(٢).

ثم خلع فخر الدولة على الصاحب خلع الوزارة، و«أكرمه وعظّمه وصدر عن رأيه في جليل الأمور وصغيرها»^(٣) بما لم يسبق له مثيل.

ولم يكن الصاحب في استعفائه من الوزارة قاصداً ذلك حقاً، بل كان يهدف من هذا الأسلوب إلى معرفة نفس صاحبه ورأيه فيه ومقدار

(١) ذيل تجارب الأمم: ٩٤.

(٢) نفس المصدر: ٩٤ - ٩٥، وقريب منه في الكامل: ١١٧/٧.

(٣) الكامل: ١١٧/٧ - ١١٨.

علاقته به، وكان جواب فخر الدولة مساوياً لما يفرضه الواجب عليه؛ ويدعو النبل والشرف إليه، إذ لولا الصاحب وحزمه لما استطاع فخر الدولة الحصول على الأمرة والوصول لهذه الرتبة، فهو الذي مهّد للأمر وهيئاً المجال؛ وكتب لفخر الدولة؛ وأخذ البيعة من الجند للأمير أبي العباس خسر فيروز بشكلٍ مؤقتٍ دفعاً للفتنة وإسكناً للنائرة، فكان هذا كله بفضل الصاحب وبعد نظره، ولولا ذلك لما تم الأمر للأمير فخر الدولة بهذا النحو من اليسر والبساطة والسهولة.

وكان هذا الاهتمام الكبير من قبل الصاحب في سبيل فخر الدولة وإمرته هو المحفز لي على عزو غضب عضد الدولة على الصاحب إلى الظن بوجود نحوٍ من العلاقة المستترة بينه وبين فخر الدولة، خصوصاً ونحن نلاحظ الصاحب في رسالته التي كتبها لعضد الدولة يبشره بالنصر على قابوس وفخر الدولة أنه لم يشتم الفخر ولم يذكره بسوء، بل كان كل حديثه عنه أنه قال: «إلى أن صار [قابوس] السبب في استزلال فلان [يعني فخر الدولة] فدلاه بغروره، واستهواه إلى جانب ثبوره»^(١) فكأنه أراد أن يفهم عضد الدولة بأن خروج فخر الدولة عليه لم يكن عن بغض كامن أو حقد متطامن في نفسه، وإنما كان نتيجة إغواء وإغراء واستهواء يقع ذنبه كله على عاتق قابوس وحده.

وكانت لاهتمام الصاحب بفخر الدولة وإمرته عدة أسباب بعثته على ذلك، لعلّ - في طليعتها - علمه بضعف (الفخر) وعجزه عن إدارة شؤون الدولة بدونه، على العكس من مؤيد الدولة وعضد الدولة الأميرين المحنكين الذين كانا على جانب كبير من الكفاءة والدهاء والفتنة، بالدرجة التي تمكّنهما من الاستغناء عن الصاحب أو غيره في أي ظرف

(١) رسائل الصاحب بن عباد: ٥.

أو وقت، فلم يكن ابن عباد في عهدهما وزيراً حاكماً بأمره بالشكل الذي يمليه عليه عجبه بنفسه، بل كان محدود التصرف مقيد الحركات مترقب الأمر والنهي؛ على النحو الذي كان مخالفاً لخلقه ومزاجه الخاص كل المخالفة، فلا غرو إذا ما رأيناه يستدعي الذي كان فخر الدولة ويقيم مقام أخيه، ليكون - كما يريد - صاحب الأمر والنهي؛ وييده الإبرام والنقض، ويكون أميره محتاجاً له كل الحاجة ومفتقراً إليه كل الفقر، وقد كشف الزمن صحة ذلك، فقد كان الصاحب في واقعه هو الأمير، ولم يكن للأمير سوى توقيع الرسائل وأداء بعض الشؤون الشكلية الأخرى.

ودخل عام (٣٧٣هـ) وفخر الدولة هو الأمير المشرف على الري وما والاها، فكان أول عمل قام به أصحابه - وفي طليعتهم الصاحب - هو تحصيل الخلع الرسمية له من الخليفة العباسي ببغداد، وكان هذا العمل بحاجة ماسة إلى توثيق العلاقة بين فخر الدولة وأمير بغداد صمصام الدولة، لئلا يكون الأخير معارضاً في هذا الموضوع؛ ولمعارضته الأثر الكبير في نفس الخليفة بلا شك، وهكذا كان؛ فقد كثرت المكاتبات وتكرر إرسال الرسل بهذا الشأن، وعافت بعض الظروف والشؤون السياسية عن استمرار المباحثات فتقطعت عدة مرات وعادت، حتى دخل عام (٣٧٤) فتمت فيه المفاوضات، وسلم لأبي العلاء الحسن بن محمد بن سهلوية رسول فخر الدولة مجموع الخلع السلطانية مع العهد واللواء واللقب؛ فخف بها لصاحبه.

وسارت الأمور في عهد فخر الدولة كما يرام، وكانت كفاءة الصاحب في وزارته وإدارته ذات أثر بارز في تذليل الصعاب وتيسير الشؤون العامة بهدوء واستقرار، فلم تقم في ذلك العهد ثورات شعبية أو

انتفاضات ذات شأن، بل كانت تجري سفينة البلاد في دعة وأمان، وكان للقيادة العسكرية التي يشرف عليها الصاحب يد كبيرة في هذا الهدوء والاطمئنان، حيث دلنا التاريخ على أن للصاحب تضلعاً وفهماً للشؤون الحربية كان هو السبب في نجاحه وانتصاره في كل غزواته وحملاته العسكرية.

وهكذا «نجد أديباً مبرزاً كالصاحب بن عبّاد يقود الجيوش أيام وزارته»^(١)، وبهذه القيادة الحكيمة استطاع أن يفتح خمسين قلعة ويسلمها إلى فخر الدولة ليضيفها إلى ملكه^(٢)، واستطاع أن ينتصر عام (٣٧٧هـ) لما سار «إلى طبرستان فأصلحها ونفى المتغلبين عنها، وفتح عدة حصون منها حصن - قريم - وعاد في سنته»^(٣).

وفي عام (٣٧٨) ضرب الصاحب السكة باسم فخر الدولة، وأهدى لأmirه ديناراً وزنه ألف مثقال، «وكان على أحد جانبيه مكتوب:
وأحمر يحكي الشمس شكلاً وصورةً
فأوصافه مشتقة من صفاته
فإن قيل: دينار فقد صدق اسمه
وإن قيل: ألف كان بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله
ولا ضربت أضرابه لسرته
فقد أبرزته دولة فلكية
أقام بها الإقبال صدر قناته

(١) الحضارة الإسلامية: ١١٩/١.

(٢) النجوم الزاهرة: ١٧٠/٤.

(٣) الكامل: ١٣٤/٧.

وصار إلى شاهانِشاه انتسابه
على أنه مستصغر لعُفاته
يخبّر أن يبقى سنين كوزنه
لتستبشر الدنيا بطول حياته
تأثّق فيه عبده وابن عبده
وغرس أياديه وكافي كفاته
وكان على الجانب الآخر سورة الإخلاص ولقب الخليفة الطائع لله
ولقب فخر الدولة واسم جرجان لأنه ضرب بها^(١).

وكانت من أبرز أعماله - خلال وزارته لفخر الدولة - حركته نحو
العراق عام (٣٧٩)، واتجاهه صوب بغداد لاحتلالها والتربع على دستها
الوثير.

ويحدثنا الوزير أبو شجاع عن مقدمات ذلك فيقول: «كان
الصاحب بن عبّاد على قديم الأيام وحديثها يحبُّ بغداد والرياسة فيها،
ويراصد أوقات الفرصة لها، فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا
المراد، وظنَّ أن الغرض قد أمكن، فوضع على فخر الدولة من يعظّم في
عينيه ممالك العراق؛ ويسهّل عليه فتحها، وأحجم الصاحب عن تجريد
رأي ومشورة بذلك؛ نظراً للعاقبة وتبرؤاً من العهدة، إلى أن قال له فخر
الدولة: ما الذي عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه؟ فقال: الأمر
لشاهنشاه، وما يُذكر من جلاله تلك الممالك مشهور لا خفاء به،
وسعادته غالبية، فإذا همَّ بأمرٍ خدمته فيه، وبلَّغته أقصى مراميه».

«فعزم حينئذٍ على قصد العراق، وسار إلى همذان ووافاه بدر بن

(١) نفس المصدر: ١٣٦/٧، ويراجع معجم الأدباء: ٢٦٦/٦ - ٢٦٧.

حسنيته، وأقام بها مدة يجيل الرأي ويقلبه حتى استقر العزم على أن يسير الصاحب وبدر بن حسنيته على طريق الجادة، ويسير فخر الدولة وبقيّة العسكر على طريق الأهواز، ورحل الصاحب مرحلة . . . قيل لفخر الدولة؛ من الغلط مفارقة الصاحب لك، لأنك لا تأمن من أن يستميله أولاد عضد الدولة فيميل إليهم، فاستعاده وسارت الجماعة إلى الأهواز»^(١).

و«كان الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد سبق إلى الأهواز وملكها، ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً، وخيّم ببستان البريدي، وتشوّف الجند إلى ما يكون من عطائه وإحسانه، فلم يكن منه في ذلك ما اقتضته الحال . . . فضاقوا صدوراً . . . وكان من عجيب الاتفاق . . . إن دجلة الأهواز زادت في تلك الأيام زيادة لم تجر بها العادة، ودخل الماء إلى الخيم فأخذ بعضها، فرحل فخر الدولة وعسكره، وعظم في أعينهم ما رأوه . . . وقال بعضهم لبعض: إنما حملنا الصاحب إلى هذه البلاد طلباً لهلاكنا»^(٢).

وبالرغم من تكتم الصاحب ومحاولة عدم ظهوره بمظهر المقترح على فخر الدولة بشأن احتلال العراق - كما مرّ فيما سبق - فالظاهر أنه لم ينجح بذلك وإن الخبر قد شاع حتى لم يعد يخفى على أحد، وهؤلاء أجناد فخر الدولة، كما جاء في النصّ الآنف الذكر - يصرحون بكون الصاحب هو المحرض على هذا العمل، ويظنون بأن ابن عبّاد يهدف - بحركته هذه - إلى إهلاكهم وإتلافهم، كما أننا نجد صدى هذا النبأ في بغداد أيضاً حيث يروي المؤرخون بأن بهاء الدولة أمير بغداد لما سمع

(١) ذيل تجارب الأمم: ١٦٣ - ١٦٤، والكمال: ١٣٩/٧.

(٢) نفس المصدر: ١٦٥ - ١٦٦.

بوصول جيوش فخر الدولة إلى الأهواز في طريقها إلى العراق جهَّز جيشاً كبيراً وجعل على رأسه الحسين بن علي الفراس و«قدَّمه وعظَّمه ولقبه الصاحب مغايلة لابن عباد وخلع عليه»^(١).

والتحم الجيشان بمعركة طاحنة كان المتوقع أن يفوز فخر الدولة بنصرها، ولكنَّ بعض الظروف والمصادفات من جهة؛ وجهل جيش فخر الدولة بطبيعة أرض المعركة من جهة أخرى، كانت كلها من الأسباب المباشرة لاندحار جيش الري حيث كانت بقربهم عدة أنهار جاءها المدُّ في تلك الأيام فطفحت وغمرت الصحارى المحيطة بها، فظن جيش فخر الدولة أن هذا الفيضان عمل مقصود ومكيدة عسكرية؛ وإن بثقاً كبيراً قد فتحه عدوهم عليهم ليغرقهم، ولم يكونوا على علم سابق بالمدود وأحوالها فانهزموا ناكسين على أعقابهم فأسر منهم كثير واستأمن منهم كثير.

وهناك من المؤرخين مَنْ ينسب هذه الهزيمة للصاحب، وأنه تعمَّد ذلك عناداً لفخر الدولة فيقول: «ربما كان سبب هذا الفعل من الصاحب ما اعتمده فخر الدولة معه من الارتياح به؛ وردّه حين سار من همدان على جادة العراق؛ خوفاً من ميله إلى أولاد عضد الدولة، ومثل ذلك ما أثر في القلب، وأقام البريء مقام المريب»^(٢).

ولا أستطيع الانسياق مع أبي شجاع في اتهامه للصاحب، لعدم العثور على مثله في كتب التاريخ الأخرى، ولمخالفته لرغبة الصاحب وشوقه الملح إلى حكم بغداد والتصدر فيها، خصوصاً وقد روى المؤرخون ما قد شاع وعُلم في إيران والعراق من أن الصاحب هو

(١) ذيل تجارب الأمم: ١٦٦.

(٢) ذيل تجارب الأمم: ١٧٠.

المحرّض على هذا الهجوم؛ وإن هذا الأمر كله مستند إلى تحريك الصاحب وتشجيعه والاقتراح به والسعي في سبيله، ونتيجة ذلك أن فشل هذه الحركة معناه فشل الصاحب فيما نواه وعزم عليه، وهذا ما لا يرضاه كل أحد لنفسه فضلاً عن ابن عباد المعجب الطموح.

هذا كله بالإضافة إلى أن أبا شجاع لم يكن محايداً مع الصاحب، بل كان يحاول أن يهتبل كل فرصة ممكنة في كتابه للطعن بالصاحب والتشهير فيه.

كيف ونحن نرى أبا شجاع يروي عن الصاحب قوله لفخر الدولة بعد الهزيمة: «إن أمثال هذه الأمور تحتاج إلى توسع في العطاء، وضايقت الناس مضايقة، وأضعفت فينا آمالهم، وقطعت منا حبالهم، فإن استدركت الأمر بإطلاق المال واستمالة الرجال ضمننتُ لك ردّاً أضعاف ما تطلقه بعد سنة من ارتفاع هذه البلاد، فلم يكن منه اهتزاز لهذا القول... ولم تسمح نفس فخر الدولة بعطاءٍ للشّخّ الغالب عليه، وأخذ الناس في التسلل لاحقين بأصحاب بهاء الدولة، حتى كان النقباء يطوفون في صبيحة كل يوم على الخيم فيجدون كثيراً منها قد خلا من أصحابها»^(١).

ويروي ابن الأثير معركة الأهواز هذه فيقول في خلال ذلك: إن فخر الدولة لما ملك الأهواز «أساء السيرة مع جندها وضيق عليهم؛ ولم يبذل المال، فخابت ظنون الناس فيه، واستشعر منه أيضاً عسكره وقالوا: هكذا يفعل بنا إذا تمكن من إرادته؛ فتخاذلوا، وكان الصاحب قد أمسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من اتهامه، فالأمر بسكوته غير مستقيمة، فلما سمع بهاء الدولة بوصولهم إلى الأهواز سير إليهم العساكر

(١) نفس المصدر: ١٧٠ - ١٧١.

والتقوا هم وعساكر فخر الدولة... فانهزموا، فقلق فخر الدولة من ذلك؛ وكان قد استبدَّ برأيه، فعاد حينئذٍ إلى رأي الصاحب، فأشار ببذل المال واستصلاح الجند؛ وقال له: إنَّ الرأي في مثل هذه الأوقات إخراج المال وترك مضايقة الجند، فإن أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنة، فلم يفعل ذلك؛ وتفرق عنه كثير من عسكر الأهواز، واتسع الخرق عليه، وضاعت الأمور به، فعاد إلى الري^(١).

ويستفاد من بعض النصوص التاريخية أن هذه الرحلة والحملة العسكرية بملابساتها ومشاكلها وما أظهره فخر الدولة من التشكيك بحسن نية الصاحب وعدم الاعتماد عليه والخوف من انحيازه إلى أولاد عضد الدولة - كان كل ذلك سبباً في انقطاع العلاقة القلبية والمودة المتبادلة بين الأمر ووزيره، وحيث لم يكن باستطاعة فخر الدولة عزل الصاحب وإبعاده عن الحكم فقد سكت على مضض؛ وصبر على ألم حتى توفي الصاحب في عام ٣٨٥.

ولما توفي الصاحب تكشَّف فخر الدولة وتجاهر بما كان يضمّر «فطالب أبا العباس الضبي - خليفة ابن عباد في الوزارة - بتحصيل ثلاثين ألف درهم من الأعمال ومن المتصرفين فيها، وقال له: إنَّ الصاحب أضع الأموال وأهمل الحقوق؛ وقد ينبغي أن يستدرك ما فات منها»^(٢).
«وقبضا على أصحاب ابن عباد، وتتبعاً كل من جرت مسامحة باسمه في أيامه، وقرّر المصادرات في البلاد... إلخ»^(٣).

(١) الكامل: ١٣٩/٧ - ١٤٠.

(٢) ذيل تجارب الأمم: ٢٦٣.

(٣) نفس المصدر: ٢٦٤، وقريب منه في الكامل: ١٧٠/٧.

عظمة الصاحب وسمو مقامه:

بلغت الوزارة - في ظل ابن عبّاد - درجة سامية من الأبهة والجلالة والرفعة، لم يسبق لها مثيل في تاريخ وزارات الدويلات، وبلغ الصاحب بن عبّاد من الشأن والمكانة والرتبة مركزاً لم ينله أحد من وزراء الأمراء، فلم يكن - كغيره - وزيراً قانعاً من دنياه باللقب الرفيع والمراسيم الشكلية، بل كان وزيراً كبيراً نافذ السلطان بكل ما لهذه الكلمة من معنّى أو معان، فهو محترم الكلمة؛ مطاع الأمر، مهيب الجانب، عظيم المنزلة، رفيع الشأن، يخضع له العلماء والأمراء، وتعنو له القادة والزعماء، ويدعن لفضله وأدبه كل فاضل وأديب، حتى أصبح الإذن عليه، والجلوس في ناديه؛ وساماً كبيراً لا يعادله وسام، وحظاً عظيماً تندكُ دونه الحظوظ.

وكان الأمير فخر الدولة - صاحب الملك وحاكم البلاد - كغيره من رجال المملكة وأقطابها في احترامه للصاحب وتقديره له؛ وإكبار عبقريته وكفاءته؛ ومعرفة حقه عليه وخدمته له وعنايته به، وفي بيان بعض ذلك يقول الصاحب:

«ما استأذن لي على فخر الدولة وهو في مجلس الأُنس إلاّ انتقل إلى مجلس الحشمة فيأذن لي فيه، وما أذكر أنه تبدّل بين يديّ ومازحني

قط إلا مرة واحدة، فإنه قال لي في شجون الحديث: بلغني أنك تقول: المذهب مذهب الاعتزال و...، فأظهرت الكراهة لانبساطه، وقلت: بنا من الجدّ ما لا تفرغ معه للهزل، ونهضت كالمغاضب، فما زال يعتذر إليّ مراسلة حتى عاودت مجلسه، ولم يعد بعدها إلى ما يجري مجرى الهزل»^(١).

وروى لنا الوزير أبو سعد الآبي صوراً ناطقة عن مقدار احترام فخر الدولة للصاحب، ومبلغ ما كان عليه سائر رجال الدولة وأعيانها من خضوع وتقدير له، فقال:

«وأما هيبتة في الصدور، ومخافته في القلوب، وحشمتة عند الصغير والكبير والبعيد والقريب، فقد بلغت إلى أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريد بسببه، ويمسك عمّا تشره إليه نفسه لمكانه، وقد ظهر ذلك للناس بعد موته، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته، فعُلم أنه كان يزم نفسه لحشمتة، ثم كان يحلّه محل الوالد إكراماً وإعظاماً، ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً».

«فأما أكابر الدولة فكان الواحد إذا رأى أحد حجّابه بل أحد الأصاغر من حاشيته، فإنّ فرائصه كانت ترتعد، وجوانحه كانت تصطفق، إلى أن يعلم ما يريد منه ويخاطبه به».

«وتظلمت إليه امرأة من صاحب لفولاذ بن مانادر، وذكرت أنه ينازعها في حق لها، فما زاد على أن التفت إلى فولاذ، وكان في موكبه يسير خلفه، فبهت وتحير، وارتعد ووقف، ولم يبرح إلى أن سار كافي الكفاة، ثم أرسل مع المرأة من أرضها وأزال ظلامتها»^(٢).

(١) يتيمة الدهر: ٣/١٧٩ - ١٨٠، وقريب منه في معجم الأدباء: ٦/٢٨٤.

(٢) معجم الأدباء: ٦/٢٤٧ - ٢٤٨.

وكان «أبناء الملوك والأمراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل أولاد مؤيد الدولة؛ وابن عز الدولة؛ ومنوجهر بن قابوس بن وشمكير؛ وأبي الحجاج بن ظهير الدولة؛ وأسفهيد بن أسفار؛ وحسن بن وشمكير؛ وفولاذ بن مانادر؛ ونصر بن الحسن بن الفيروزان؛ وأبي العباس الفيروزان بن الحسن بن الفيروزان؛ وكبات بن بَلَقَسِم بن الفيروزان؛ وحيدر بن وهسودان؛ وكبخسرو بن المرزيان بن السلار؛ وجستان بن نوح بن وهسودان؛ وشيرزيل بن سلار بن شيرزيل، وكان في يد كل واحد من هؤلاء من الاقطاع ما بلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها إلى عشرين ألف دينار؛ ومن أكابر القواد ما يطول تعدادهم. كانوا يحضرون باب داره، فيقفون على دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة وإعظاماً لموضعه، إلى أن يخرج أحد خلفاء حجابيه فيأذن لبعض أكابرهم ويصرفهم جملة، فكان من يؤذن له بالدخول يظن أنه قد بلغ الآمال؛ ونال الفوز بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرّة؛ وشرفاً وتعظيماً، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبّل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعاً إلى أن يقرب منه، فيجلس مَنْ كانت رتبته الجلوس إلى أن يقضي كل واحد منهم وطره من خدمته، ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضاً مراراً»^(١).

ثم يذكر أبو سعد وفاة أم الصاحب وجلوس ولدها لتقبل التعازي بها فيقول في أثناء ذلك:

«فأما سائر الأمراء والقواد مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل، وفولاذ ابن مانادر أحد ملوك الديلم... وغيرهم من الأكابر والأماثل، فإنهم كانوا يحضرون حفاة حسراً، وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه

على الصاحب قَبْلَ الأرض، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس فيجلس، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد، بل كان جالساً على عادته في غير أيام التعزية^(١).

ويصف أبو نصر بن خواشادة بعض مشاهد الصاحب فيقول:

«ما غبظت أحداً على منزلةٍ كما غبظت الصاحب أبا القاسم بن عباد، فإننا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية، فدخل الصاحب إلى داره في البلد آخر نهار يوم؛ لحضور المجلس الذي يعقده لأهل العلم، وتحتة دابةٌ رهواء؛ وقد أرسل عنانه، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمراء يُعدون بين يديه كما تعدو الركابية»^(٢).

ولم تقتصر عظمة الصاحب وجلالة شأنه على داخل منطقة نفوذه فقط، بل كانت أنباء هذه العظمة المتعالية والشخصية الفذة تشق طريقها إلى سائر البلدان والأصقاع فتؤثر أثرها وتفعل مفعولها، فإذا بالصاحب يُخشى ويُرجى في خارج مملكته كما يخشى ويرجى داخلها، وإذا بالملوك والوزراء يستدرجونه إليهم، ويودّون كسب رضاه عليهم، ويخشون أن يتظاهروا بما يسوؤه ويؤذيه. «لأن جانبه مهيب، ولمكره دبيب» - على حد تعبير أبي حيان -، وقد حفظت لنا مصادر البحث كثيراً من الشواهد التاريخية على ذلك، وإليك بعضها:

١ - «حكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي قال: سمعت الصاحب يقول: أنفذ إليّ أبو العباس تاش الحاجب رقعةً في السرّ بخط صاحبه نوح بن منصور ملك خراسان يريدني فيها على

(١) نفس المصدر: ٢٣٨/٦ - ٢٣٩.

(٢) معجم الأدباء: ٢٨٠/٦.

الانحياز إلى حضرته ليلقي إليّ مقاليد ملكه، ويعتمدني لوزارته، ويحكمني في ثمرات بلاده. قال: وكان ممّا اعتذرتُ به من تركي امثال أمره ذكر طول ذيلي وكثرة حاشيتي؛ وحاجتي لنقل كتبي خاصةً إلى أربعمئة جمل، فما الظن بما يليق بها من تحملي»^(١).

٢ - يقول أبو حيان التوحيدي للوزير ابن سعدان في أثناء حديثه عن الصاحب: «إني عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد؛ أودعتها نفسي الغزير ولفظي الطويل والقصير، وهي في المسوودة، ولا جسارة لي على تحريرها، فإن جانبه مهيب ولمكره ديب».

ويجيبه الوزير قائلاً: «انسخ لي الرسالة من المسوودة، ولا يمنعك ذلك، فإن العين لا ترمقها، والأذن لا تسمعها، واليد لا تنخسها»^(٢).

ويضيف ابن سعدان قائلاً: «أجدُ تحريرها، وعليّ بها، ولك الضمان ألا يراها إنسان، ولا يدور بذكرها لسان»^(٣).

وإذا عرفنا أن ابن سعدان كان وزيراً لصمصام الدولة البويهبي أمير بغداد، ثم قرأنا هذا النص فرأينا خوفه - كأبي حيان - من إظهار هذه الرسالة؛ نعرف مقدار ضخامة السمعة التي كان يتمتع بها ابن عبّاد وهو غائب بعيد.

٣ - يقول الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في أثناء رسالة للصاحب: «وصل خطاب الصاحب - أدام الله عزّه - محققاً ما انتظرته من تفضله، وموثقاً عرى ثقتي بتكفّله، فاجتليت طلعة اليمن في أثناء

(١) أنباه الرواة: ٢٠٢/١، ومثله في يتيمة الدهر: ١٧٣/٣.

(٢) الامتاع والموانسة: ٥٤/١.

(٣) نفس المصدر: ٦١/١.

معانيه، واجتنيتُ ثمار اليُسْر ممّا صرّف قوله فيه، وشكره على هذه الحال حقّ واجب؛ وغريم مطالب، ولكن أتى لي بشكر فعلٍ أرغم أنف الدهر، وحلّل عُقد السحر، بلسانٍ دخيل، وطبع كليل، إلا أن أعار بلاغته فأعبر بها عمّا في الضمير، وأسلم معها من سمة التقصير، وهذا رجاء ضيق المجال، وثمّن منيع المنال، فمن أين للضباب صوب للسحاب؟، وللغراب هويُّ العقاب، وهيهات أن تكتسب الأرض لطافة الهواء، ويصير البدر كالشمس في الضياء^(١).



وإلى جانب هذا التقدير الكبير والاحترام البالغ الذي حظي به الصاحب من أمراء عصره ورجال مصره وأقطاب الحكم والنفوذ من معاصريه، فإننا نجد احترام رجال العلم والأدب له كذلك بل فوق ذلك، فكان إجلال العلماء والأدباء له وإكبارهم لمقامه خليطاً من تقديرهم لعلمه، وإكبارهم لمركزه، ورجائهم لنواله، وخوفهم من سطوته.

ولا مجال لي هنا للدخول في تفاصيل هذا الموضوع وسرد ما قيل من شعرٍ ونثر، ولكنني أروي - فيما يلي - بعض النصوص التاريخية الدالة على المطلوب ليشارك القارئ معي في الوقوف على جليلة الأمر:

١ - اجتمع الصاحب - يوماً - بالقاضي أبي الحسن الهمداني، فكانت بينهما محادثة مطوّلة رواها أبو حيان التوحيدى، ثم روى حال الهمداني ساعة المكالمة فقال: «كان مثل الفأرة بين يدي السنور، وقد تضائل وقمؤ لا يصعد له نفس إلا بنزع، تذُللاً وتقللاً، على كبره في نفسه»^(٢).

(١) كمال البلاغة: ٧٦ - ٧٧.

(٢) معجم الأدباء: ١٩٠/٦.

٢ - يقول ميمون بن سهل الواسطي في خلال سرده لبعض مشاهداته (الصاحبية): «حضرتُ مجلس الصاحب ليلةً بجرجان في جماعة من الفقهاء والمتكلمين كالعادة كانت عنده في أكثر ليالي الأسبوع»^(١).

٣ - «لما عزم الصاحب بن عبّاد على الإملاء وهو وزير؛ خرج يوماً متطلساً متحنكاً بزّي أهل العلم، فقال: قد علمتم قدمي في العلم. فأقرّوا له بذلك، فقال: وأنا متلبّس بهذا الأمر، وجميع ما أنفقت من صغري إلى وقتي هذا من مال أبي وجدّي، ومع هذا فلا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم إنني تائب إلى الله من ذنب أذنبته...»، ثم خرج فقعد للإملاء، وحضر الخلق الكثير، وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه، فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار»^(٢).

٤ - يقول الثعالبي: «احتفّ به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، مَنْ يربي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رقاب المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين...، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والري»^(٣) وجرجان مثل أبي الحسين السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديعي، وأبي سعد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي، وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني، وأبي القاسم بن أبي العلاء، وأبي محمد الخازن، وأبي هاشم العلوي، وأبي الحسن الجوهري، وبني المنجم، وابن بابك، وابن

(١) بتيمة الدهر: ٣٣/٣.

(٢) معجم الأدباء: ٢٥٢/٦.

(٣) في النسخة المطبوعة: الزهري، وهو خطأ صوابه ما ذكرناه.

القاشاني، وأبي الفضل الهمداني، وإسماعيل الشاشي، وأبي العلاء الأُسدي، وأبي الحسن الغويري، وأبي دلف الخزرجي، وأبي حفص الشهرزوري، وأبي معمر الإسماعيلي، وأبي الفياض الطبري، وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره أو ذهب عني اسمه، ومدحه - مكاتبة - الشريف الموسوي الرضي، وأبو إسحاق الصابي، وابن حجاج، وابن سكرة، وابن نباتة^(١).

٥ - يُروى عن الصاحب قوله: «مدحت بمائة ألف بيت»^(٢)، وفي رواية ياقوت والسيوطي: «مدحت بمائة ألف قصيدة»^(٣).

٦ - يقول البيهقي عن الصاحب: «مدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين»^(٤).

وهكذا كان الصاحب بن عباد جامع شمل العلماء والأدباء؛ والمُنفق عليهم بكرم وسخاء، فازدحموا على بابه وتدافعوا نحوه من كل حذب وصب، «والمنهل العذب كثير الزحام»، حتى أصبح اجتماعهم لديه مضرب المثل في التاريخ، فلم يجد المؤرخون - حينما ترجموا للأمير الصنهاجي المعز بن باديس وذكروا شعراءه - تشبيهاً أبلغ من قولهم: «أنه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد»^(٥).



(١) يتيمة الدهر: ١٦٩/٣ - ١٧٠.

(٢) الظرائف واللطائف: ٢٣ - ٢٤.

(٣) معجم الأدباء: ٢٦٣/٦، وبغية الوعاة: ١٩٦.

(٤) معجم الأدباء: ٢٥٧/٦.

(٥) ظهر الإسلام: ٣٠٤/١.

وبعد:

فلقد كان الصاحب في وزارته قوة طافحة بالعمل والنشاط، دائبة الحركة في سبيل الخدمة العامة والتنظيم الصحيح:

فهو القائد في الحروب^(١).

وهو منظم الخراج وواضع أسسه العادلة^(٢).

وهو العالم الأديب المتكلم الشاعر الذي نشر العلم وخدم الدين وحمل لواء الأدب عالياً.

وهو باسط العدل بين الرعية، وحاسم مشاكل الشعب^(٣).

وهو الكريم الذي يهب المئات والألوف من الدنانير لرجال العلم في بغداد والحرمين فضلاً عن رجال بلده وحضار مجلسه^(٤).

وهو مشيد المساجد والمشاهد المقدسة في مملكته، حيث بنى قبر محمد بن جعفر الديقاج بجرجان^(٥)، وشيد المسجد الضخم بأصفهان^(٦).

(١) راجع ص ١١٦ - ١١٨ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ قم: ١٤٥.

(٣) محاسن أصفهان: ٨٤.

(٤) راجع ص ٦٥ - ٧٠ من هذا الكتاب.

(٥) تاريخ قم: ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٦) محاسن أصفهان: ٨٦، ويقول المافروخي في وصفه: «أوتي فضلاً... في صلاحية الأطيان، وإيقاع المكان، واستحكام البنيان، والمنارة التي أجمع المهندسون على أنه لم يبن في العالم أرشق منها قدماً، وأتم مدأ، وأدق عملاً، وأحكم تفصيلاً وجملاً، قد تأنق في إبداعها الصانع وتنوق، ولطف في بنائها ودقق، اتخذها من اللبن والطين في قرار مكين، قيدت قاعدتها من الأرض بقفيز، وشيدت قائمتها إلى حرز حرير، ارتفاعها مائة ذراع، وسطحها باع في باع».

وهو الأمر بتخفيض بعض الضرائب عن أمته ترفيهاً عليهم^(١).
 وكان موقفه مع شعبه ومع عماله وموظفيه مبنياً على هذا الأساس:
 «واسع الحكمة طويل الخطوة كثير التوسع والمسامحة في باب
 النوال مع السؤال».

«شديد الشكيمة ضيق الحكمة قطوف الخطوة في باب الأموال مع
 العمال».

«يسامح في بَدْرَة سائلاً، ويضايق في حَبَّة عاملاً».
 «وكذلك الكريم يتسع من حيث السخاء، ويضيق من حيث
 الوفاء»^(٢).



(١) تاريخ قم: ١٦٥.

(٢) رسائل الخوارزمي: ٢٨.

القسم الثالث شيوخه وأساتذته

بدأ ابن عبّاد دراسته الأولى في أصفهان؛ إحدى حواضر العلم والفضل في إيران، ولم تكن له دراسة سابقة في بلد نشأته - طالقان - إلا تعلّم مبادئ الكتابة والقراءة على أبيه.

وكان طبيعياً أن يتوجه الصاحب نحو الدراسة والتعلم منذ نعومة أظفاره، وأن تكون لديه القابلية الجيدة والتقبّل الذهني الصحيح لكل ما يقرأ ويسمع، فكل ذلك من حسنات البيئة العلمية والبيت المثقف والتوجيه الصحيح الذي رزقه الصاحب من يومه الأول.

وكل ما يمكن أن يستفاد من مصادرنا التاريخية إن أبا الصاحب - عبّاداً بن العباس - كان أول مدرّس قام بتعليم الصاحب ما يحتاجه من المقدمات العلمية والدروس الأولى، ولعله درس عليه ما هو أكثر من الكتابة والقراءة كبعض الدروس النحوية أو الدينية، أو ما شاكلها من المعلومات البسيطة التي يستطيع صبي - بعمر الصاحب - فهمها وهضمها على النحو المطلوب.

أمّا ما رواه بعض المؤرخين^(١) من كون عبّاد أحد شيوخ ابنه في

(١) الأنساب: ٣٦٤، وبغية الوعاة: ١٩٦، والمنظّم: ١٨٥/٧، والنجوم الزاهرة:

الرواية فهو من الأخطاء الواضحة، لأن عباداً توفي وعمر ابنه تسع سنين، ولا يمكن لصبي بهذا العمر أن يروي النصوص القديمة - دينية أو أدبية - عن أحد، لعدم قدرته على تلقي ذلك وتمثيله في ذهنه، وأظن أن هذا الخطأ راجع - في حقيقته - إلى ما ورد في بعض الكتب من وفاة عباد أبي الصاحب في عام (٣٨٥)، فظنَّ هؤلاء أن وجود عباد على قيد الحياة إلى تلك السنة يستلزم سماع ابنه منه وروايته عنه، فسجلوا ذلك بلا تمحيص، في حين أن هذا كله من أخطاء القلم، وإن عباداً قد توفي في عام (٣٣٥) - كما مرَّ عليك^(١) -.

ولما هاجر عباد إلى أصفهان وضع لابنه إسماعيل منهجه الدراسي الدقيق، وهياً له الأساتذة الأكفاء القادرين على القيام بواجبهم العلمي المطلوب، فبدأ الصاحب دراسته بكل شوق وتلهف ورغبة، متدرجاً في ذلك على النحو الطبيعي المتكافئ مع تدرجه في الفهم والنضج والتفكير، ومن دون أن يكون لمصابه بوفاة أبيه - وهو في مقتبل العمر وريعان الصبا - أي أثر على رغبته وإقباله.

وكان لتشجيع والدته الحنون وترغيبها له على طلب العلم وقعه الكبير في نفسه، ورجعه البعيد في استمراره وعكوفه على ذلك، فكانت تدفع له - حينما يخرج إلى المسجد للقراءة - بعض المال ليتصدق به على أول فقير يلاقه^(٢)، ثم كانت تغمره من عطفها وعنايتها وبرها بما يسليه ويعزّيه عن مصابه، ويزيده شوقاً واندفاعاً نحو درسه وكتابه.

وإذا كنّا لم نعثر - في المراجع والمصادر - على ذكر لأسماء أساتذته الأولين، وعلى أيّ إشارة لمنهج دروسه اليومية ومواضيعها

(١) راجع ص ٢٠ - ٢٢ من هذا الكتاب.

(٢) معاهد التنصيص: ١٥٤/٢، وبغية الوعاة: ١٩٦.

العلمية، فإننا لنكتفي بما وقفنا عليه من أسماء أساتذته الآخرين، مشيرين إلى موجز من الترجمة لهم، وإلى ما سجَّله الصاحب من انطباعاتٍ عنهم، مع بيان مقدار فضلهم، والتنبيه على فرع اختصاصهم الذي اشتهر به كل واحد منهم:

١ - ابن العميد:

«هو أبو الفضل محمد بن الحسين، عين المشرق، ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوجد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرئاسة وآلات الوزارة، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، يضرب به المثل في البلاغة، ويُنتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل، وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها، وما أحسن وأصدق ما قال الصاحب - وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها -: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، وكان يُقال: بُدِّثت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد...»^(١).

ولد في آخر سنة من القرن الثالث أو أول سنة من القرن الرابع^(٢)، وتولى الوزارة لركن الدولة بعد وفاة أبي علي القمي في عام ٣٢٨، وكان عمره دون الثلاثين.

«كان أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداءً إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام»^(٣).

(١) يتيمة الدهر: ٣/١٣٧.

(٢) ابن العميد: ٢٤.

(٣) تجارب الأمم: ٦/٢٧٥.

«أما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهة؛ والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيها أحد، فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلّم»^(١).

وأما الكتابة فكان الرجل مؤسس مذهب خاص فيها كان له الصدى الكبير والرجع البعيد في عصره وفيما تلاه من العصور.

وكان ابن العميد من أبرز أساتذة الصاحب وأكثرهم أثراً فيه ووقفاً في نفسه، فقد درس الصاحب عليه صنعة الكتابة والأدب ونقد الشعر^(٢)، وكان ابن العميد من أكابر نقاد الأدب في عصره، بل لعلّي لا أبالغ إذا قلت: إنه أول من أسس هذا اللون من ألوان الأدب في ذلك العهد، ومنه أخذ الصاحب فن النقد الأدبي وكتب بتأثيره رسالته في نقد شعر المتنبّي والكشف عن مساوئه، وفي ذلك يقول الصاحب:

«ما رأيت من يعرف الشعر حقَّ معرفته، وينقده نقد جهابذته، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد - أدام الله أيامه وحصن لديه إنعامه -، فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخيّر القافية والوزن، وعن مجلسه - أعزه الله تعالى - أخذت ما أتعاطى من هذا الفن، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى من هذا الجنس»^(٣).

(١) نفس المصدر: ٢٧٧/٦.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٠٦/١، وبغية الوعاة: ١٩٦، وشذرات الذهب: ١١٤/٣، وأمل الأمل: ٤٢ نقلاً عن طبقات الأدباء.

(٣) الكشف عن مساوئ شعر المتنبّي: ٤.

ومدح ابن عبّاد أستاذه أبا الفضل كثيراً وفي كل مناسبةٍ بالشعر
الطافح بالحُب الصادقِ والعاطفةِ الصحيحةِ والولاءِ المنبعثِ عن القلبِ،
ومن ذلك قوله من جملة قصيدة:

أيها الآملون حظوا سريعاً
فهو إن جاد ضنَّ حاتمٍ طيِّ
برفيع العماد واري الزنادِ
وهو إن قال قلَّ قسَّ إِيادِ
من علاه وأين آل زيادِ
وإذا ما ارتأى فأين زيادِ
إلى أن يقول:

ومديحي إن لم يكن طال ألبيا
إن خير المدّاح مَنْ مدحته
تأ فقد طال في مجالي الجيادِ
شعراء البلاد في كل نادي^(١)
ويقول فيه من قصيدة أخرى:

قدم الرئيس مقدماً في سبقه
فجبالها من حلمه وبحارها
وكانما الأفلاك طوع يمينه
قد قاسمته نجومها فنحوسها
وكانما الدنيا جرت في طرقه
من جوده ورياضها من خلقه
كالعبد منقاداً لمالك رقه
لعدوه وسعودها في أفاقه^(٢)

٢ - ابن فارس:

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا «المقيم بهمدان، من أعيان
أهل العلم وأفراد الدهر، له كتب بديعة ورسائل مفيدة وأشعار جيدة
وتلامذة كثيرة، منهم بديع الزمان الهمداني»^(٣) والصاحب بن عبّاد^(٤).

(١) بيتمة الدهر: ١٤٠/٣.

(٢) نفس المصدر: ١٤٠/٣ - ١٤١.

(٣) أنباء الرواة: ٩٢/١ - ٩٣.

(٤) وفيات الأعيان: ٢٠٦/١، وبغية الوعاة: ١٩٦، وأمل الأمل: ٤٢ - نقً عن

جُلب إلى الريّ ليقوم بتدريس أبي طالب مجد الدولة بن فخر الدولة أبي الحسين بن بويه، فاغتنم الصاحب هذه الفرصة فقرأ عليه وتلقّى منه، وكان يقول فيه: «شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف، وأمن فيه من التصحيف»^(١).

ونشأت بين ابن عبّاد وأستاذه علاقة وصدّاقة ما فتأت تزداد قوة ومتانة على مرّ الأيام حتى بلغت أسمى مراتبها وأعلى درجاتها، وحتى ألّف ابن فارس كتابه الجليل في فقه اللغة فأسماه «الصاحبي» نسبة لصاحبه ابن عبّاد، وفي ذلك يقول:

«هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، وإنما عنوانته بهذا الاسم لأنني لما ألّفته أودعته خزّانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عمّر الله عِراض العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره، تجمّلاً بذلك وتحسّناً، إذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضياً مقبولاً، وما يرذله أو ينفيه منفيّاً مردولاً، لأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومُفاد منه»^(٢).

والمؤسف أن هذه العلاقة المتينة لم تدم طويلاً، وكان السبب في انقطاعها عداء ابن عبّاد لآل العميد - بعد موقف أبي الفتح بن العميد منه - وشديد تعصّب ابن فارس لهم، ولما ضنّف ابن فارس كتاب الحجر وأرسله إلى الصاحب قال: «ردّوا الحجر من حيث جاء، وأمر له بجائزة ليست بسنية»^(٣).

وروى الصاحب يوماً قول الشاعر:

جاءت بخفّ وحنين ورحلُ
جاءت تمشّي وهي قدّام الإبلُ

(١) معجم الأدباء: ٨٣/٤.

(٢) الصاحبي: ٢.

(٣) يتيمة الدهر: ١٨٠/٣، وأنباه الرواة: ٩٣/١.

«قال: رأيتُ بعض الجهال يصحف ويقول: وحنين وزجل» فسأل أبو حيان التوحيدي بعض أصحاب الصاحب عن المقصود بهذا فقال له: إنه ابن فارس معلم ابن العميد أبي الفتح»^(١).

٣ - السيرافي:

أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان النحوي المعروف بالقاضي السيرافي «سكن بغداد... وولي القضاء... وكان يدرّس القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي والحساب وعلوماً سوى هذه»^(٢).

قرأ عليه الصاحب لما زار بغداد بصحبة الأمير البويهبي في عام ٣٤٧هـ. وفي ذلك يقول:

«وانتهيت إلى أبي سعيد السيرافي، وهو شيخ البلد وفرد الأدب وحسن التصرف، ووافر الحظ من علوم الأوائل، فسلمت عليه، وقعدت إليه، وبعضهم يقرأ الجمهرة»^(٣).

ثم يقول بعد أن يروي بعض المناقشات التي دارت بينهما:

«ورأيت الشيخ - بعد ذلك - عزيزاً^(٤) فاضلاً، متوسعاً عالمياً، فعلمت عليه وأخذت منه، وحصلت تفسيره لكتاب سيويه، وقرأتُ صدرأ منه»^(٥).

(١) معجم الأدباء: ٢٣١/٦.

(٢) أنباه الرواة: ٣١٣/١، ويراجع في ترجمته: بغية الوعاة: ٢٢١، وشذرات الذهب: ٦٥/٣، وتاريخ بغداد: ٣٤١/٧، والبداية والنهاية: ٢٩٤/١١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٧٦/٦ - ٢٧٧.

(٤) كذا في النسخة المطبوعة، وأظنه: غزيراً.

(٥) معجم الأدباء: ٢٧٩/٦.

٤ - أبو بكر بن كامل:

«أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة بن منصور بن كعب بن يزيد. أبو بكر القاضي: أحد أصحاب محمد بن جرير الطبري، وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن، والنحو والشعر وأيام الناس، وتواريخ أصحاب الحديث، وله مصنفات في أكثر ذلك»^(١).

حدث الصاحب عنه^(٢)، وحضر عليه - لما ذهب إلى بغداد - وفي ذلك يقول:

«والقاضي أبو بكر بن كامل بقية الدنيا في علوم شتى، يعرف الفقه والشروط والحديث، وما ليس من حديثنا، ويتوسع في النحو توسعاً مستحسنًا، وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة، وفي جودة التصنيف قوة تامة، ومن كبار رواة المبرّد وتغلب، والبحثري وأبي العيناء وغيرهم، وقد سمعت قدراً صالحاً مما عنده»^(٣).

٥ - أبو بكر بن مقسم:

«محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن الحسين بن محمد بن سليمان بن عبيدالله بن مقسم أبو بكر العطار المقرئ النحوي... ولد سنة ٢٦٥، وسمع أبا مسلم الكجبي وتغلباً ويحيى بن محمد بن صاعد... وكان ثقة من أعرف الناس بالقراءات، وأحفظهم لنحو الكوفيين...»^(٤).

(١) أنباء الرواة: ٩٧/١، ويراجع في ترجمته: شذرات الذهب: ٢/٣، وبغية الوعاة:

١٥٣، وتاريخ بغداد: ٣٥٧/٤.

(٢) لسان الميزان: ٤١٣/١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٧٩/٦.

(٤) بغية الوعاة: ٣٦، ويراجع في ترجمته: تاريخ بغداد: ٢٠٦/٢٠، وأنباء الرواة:

١٠٠/٣، وشذرات الذهب: ١٦/٣، والمتنظم: ٣٠/٧.

قرأ عليه الصاحب - لما زار بغداد -، وفي ذلك يقول:

«أبو بكر بن مقسم، وما في أصحاب ثعلب أكثر دراية وما أصح رواية منه، وقد سمعت مجالسه، وفيها غرائب ونكت، ومحاسن وطرف؛ من بين كلمة نادرة، ومسألة غامضة، وتفسير بيت مشكل، وحل عقد معضل وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم، ورواياتهم ولغاتهم»^(١).

٦ - عبد الله بن جعفر بن فارس:

يقول ابن حجر في ترجمته للصاحب: «أملى مجالس في أيام وزارته حدث فيها عن عبد الله بن جعفر بن فارس»^(٢).

ولم أعثر على ترجمة لهذا الاسم في كتب الأدب والتاريخ، ولعله عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي الفارسي صاحب المبرد؛ والراوي عن ابن قتيبة والدارقطني، المعروف بشدة انتصاره للبصريين في مذهبهم في اللغة والنحو^(٣).

٧ - العباس بن محمد النحوي:

أبو الفضل الملقب بعرام، «روى عن عبيد الله بن محمد اليزيدي، وعنه الصاحب بن عباد، وكان رقيقاً يتعاطى المنادمة، وله رسائل إلى جماعة في الطنز واللهو»^(٤).

ولم أعثر على ترجمة في المراجع الأدبية لهذا الرجل إلا في بغية

(١) معجم الأدباء: ٢٧٩/٦.

(٢) لسان الميزان: ٤١٣/١.

(٣) يراجع في ترجمته: تاريخ بغداد: ٤٢٨/٩، وأنباء الرواة: ١١٣/٢، وبغية الوعاة: ٢٧٩.

(٤) بغية الوعاة: ٢٧٦.

الوعاة وإنباه الرواة، وقد ورد اسمه - في ثانيهما - هكذا: المفضل بن العباس بن محمد^(١).

٨ - أبو عمرو الصباغ:

«بَدَرَ من أبي عمرو الصَّبَاغ إلى الصاحب جفاء، فقام الصاحب من عنده وكتب إليه:

أودعَتني العلم فلا تجهلِ كم مقولٍ يجني على مقتلِ
أنت - وإن علمتني - سوقة والسيف لا يبقى على الصيقل^(٢)

ولم أعرف - من هذا النص - أبا عمرو باسمه ولقبه التاريخي لأعثر على ترجمته، ولعلّه لم يترجم في المصادر والمراجع لعدم اشتهاره بالعلم والفضل، وعدم بروزه بنحوٍ من الأنحاء.

وبأبي عمرو هذا تنتهي قائمة أساتذة الصاحب الذين سُجِلتْ أسماءهم في الكتب التاريخية؛ وسُجِلت قراءة الصاحب عليهم وحضوره لديهم، ولكنهم - على تعددهم - أقلُّ عدداً من القائمة الحقيقية لأساتذة الصاحب وشيوخه، لأن ابن عباد «سمع بالعراق والري وأصبهان الكثير»^(٣)، «وسمع الأحاديث من الأصبهانيين والبغداديين والرازيين»^(٤).

وروى الدكتور البيروني ناصري نادر^(٥)؛ والدكتور ذبيح الله صفا^(٦): إن الصاحب قد حضر على أبي هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي - شيخ

(١) أنباه الرواة: ٣٨٤/٢.

(٢) أعيان الشيعة: ٥٠٢/١١.

(٣) أخبار أصبهان: ٢١٤/١.

(٤) الأنساب: ٣٦٤.

(٥) فلسفة المعتزلة: ٢٥/١.

(٦) تاريخ أدبيات إيران: ٥٢.

المعتزلة في عصره -، وهو قول لا يستند إلى واقع - لأن وفاة أبي هاشم كانت في عام (٣٢١هـ) قبل ولادة الصاحب بخمس سنين بإجماع المؤرخين^(١)، ولعلّه التبس عليهم أبو هاشم بابنه علي الذي يُروى أنه «كان عامياً لا يعرف شيئاً، فدخل يوماً على الصاحب بن عبّاد فظنّه عالماً فأكرمه ورفع مرتبته، ثم سأله عن مسألة فقال: لا أعرف؛ و(لا أعرف) نصف العلم، فقال له الصاحب: صدقت يا ولدي؛ إلا أنّ أباك تقدم بالنصف الآخر»^(٢).



وبالإضافة إلى هؤلاء الأساتذة الذين كانوا المصدر الرئيس لمعارف ابن عبّاد؛ والمنبع الأول من منابع ثقافته، فقد كانت لديه مصادر و منابع أخرى يستقي منها العلم والأدب، ويمتاز ما يشاء من نبيها العذب ومعينها الفيّاض، وكان لكل واحد منها أثره الكبير فيما بلغه من درجات المعرفة وربّب الفضل ومراقى الكمال الفكري المنشود:

منها:

مكتبته الفخمة الكبيرة التي كانت مضرب الأمثال ومهوى أفئدة أهل العلم في ذلك العصر، فقد كانت تضم أجلّ الكتب العربية والفارسية وأنفسها وأغلاها، وكان يبذل في سبيل الكتب النادرة من المال والجهد ما لا يعدّ ولا يحصى، ولما طلب منه صاحب خراسان أن يُقدم عليه ليعهد بالوزارة إليه؛ ويجعل زمام الحكم بيديه؛ كان مما اعتذر به قوله:

(١) تاريخ بغداد: ٥٦/١١، وفيات الأعيان: ٣٥٥/٢، والبداية والنهاية: ١٧٦/١١، والنجوم الزاهرة: ٢٤١/٣، والمنتظم: ٢٦١/٦، وشذرات الذهب: ٢٨٩/٢.
(٢) وفيات الأعيان: ٣٥٥/٢.

«عندي من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمئة جمل أو أكثر»^(١)، ويقول أبو الحسن البيهقي تعليقاً على قول الصاحب هذا: «بيت الكتب الذي بالري دليل على ذلك؛ بعدما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين، فإني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات»^(٢).

وفي وصف هذه المكتبة يقول ابن الأثير: «جمع من الكتب ما لم يجمعه غيره؛ حتى أنه كان يحتاج في نقلها إلى أربعمئة جمل»^(٣)، وجاء في رواية الداوودب: إنها كانت حمل سبعمئة بعير^(٤)، وفي رواية السيوطي: إن كتب اللغة وحدها كانت حمل ستين جملاً^(٥).

أما عدد كتبها فقد ورد ذكره في خلال حديث للصاحب عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني؛ حيث قال: «لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد؛ ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه»^(٦).

وأما نوع كتبها فقد كانت تضم نفائس المؤلفات ونوادير المصنفات، وكان الصاحب حريصاً جداً على تطعيمها بكل ما غلا ثمنه وعظم شأنه وندرت نسخه، وحسبك دليلاً على ذلك ما رواه ياقوت بشأن كتاب العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي: «بلغني أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده، فلما تأمله قال: هذه

(١) معجم الأدباء: ٢٥٩/٦، وبغية الوعاة: ١٩٧، وشذرات الذهب: ١١٥/٣، ووفيات الأعيان: ٢٠٨/١، ومعاهد التنصيص: ١٥٤/٢.

(٢) معجم الأدباء: ٢٥٩/٦.

(٣) الكامل: ١٦٩/٧، ومثله في تاريخ ابن خلدون: ٤٦٦/٤، والمنتظم: ١٨٠/٧.

(٤) عمدة الطالب: ١٩٥، ومثله في هدية الأحياب: ١٧٠.

(٥) المزهري: ٥٩/١.

(٦) معجم الأدباء: ٩٧/١٣.

بضاعتنا رَدَّتْ إلينا؛ ظننتُ أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا»^(١).

وهكذا نجد هذه المكتبة الثرية بمصادرها ونفائسها؛ الغنيّة بنوادرها وكنوزها؛ الزاخرة بأصول الأدب والعلم والمعرفة - منهلًا سائغًا كرع منه الصاحب حتى ارتوى، وغرف من نميره حتى اكتفى، فلا غرو إذا ما عددناها في قائمة منابع ثقافته ومصادر معرفته.

ومنها:

ارتياحه لمجالس العلم التي كانت تعقد في تلك العصور؛ واستماعه لما كان يدور فيها من مناقشات ومطارحات ومساجلات في شتى فروع الثقافة العامة، فلقد وُقِّق الصاحب إلى حضور مثل هذه المجالس منذ أوائل شبابه حتى وفاته، فكان مجلس أستاذه ابن العميد غاصباً بأعلام الأدب وأقطاب الشعر في عصره، ثم كان مجلس الأمير البويهى كذلك، فإذا بالصاحب متنقل بين هذه المجالس كما تتنقل الفراشة الظامئة بين الورود المفعمة بالري والعبير.

وكان مجلسه الخاص به أيام وزارته «مجمعاً لصوب العقول، وذوب العلوم، ودرر القرائح، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر، ويكاد يدخل في حد الإعجاز»^(٢) فجمع «نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر» - على حد تعبير الثعالبي -، فأصبح هذا المجلس مدرسة تحفل بكل ما لُدَّ وطاب من علم وأدب، وشعر ونثر، ومُلح ونكت، وطرائف وظرائف، ولهذا صحَّح أن يعد من جملة مصادر الصاحب في معارفه؛ ومنابعه في ثقافته.

(١) نفس المصدر: ٢١٤/٤ - ٢١٥.

(٢) يتيمة الدهر: ١٦٩/٣.

وحسبك أن تعرف من رواه: ابن فارس النحوي، وأبا حيان التوحيدي، وأبا بكر الخوارزمي، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني، والحسن بن محمد القمي، ومحمد بن علي الصدوق القمي، مضافاً إلى جمهور الشعراء المحققين به، فكان له من كل ذلك منبع ثقافي طافح يغمره بالمعرفة ويزيده - على كر السنين - فهماً ودراية وقوة في العلم، وتقدماً ونضجاً واندياحاً في التفكير.

وهكذا وضع الصاحب يديه على أعظم المصادر والمنابع العلمية في ذلك العهد فكوّن منها قابليته الكبيرة؛ وثقافته الواسعة - التي ستعرفها في الفصل القابل إن شاء الله - .



معارفه

لم يكن الصاحب مقتصراً في دراسته على نوع واحد من أنواع الأدب وفروعه، بل علّ ونهل من سائر ألوان الثقافة وفنونها المعروفة في ذلك العصر، فبرع في بعضها ولم يبرع في البعض الآخر.

وقد سجّل المؤرخون مشاركته في المعارف الأدبية في سائر كتبهم ومصنفاتهم، بل جعلوه (أوحد زمانه) و(فريد عصره) في كل ذلك. يقول ياقوت: «الصاحب - مع شهرته بالعلوم، وأخذه من كل فنٍ منها بالنصيب الوافر؛ والحظ الزائد الظاهر، وما أوتيته من الفصاحة، ووفق لحسن السياسة والرجاحة - مستغني عن الوصف؛ مكتفٍ عن الإخبار عنه والرصف»^(١).

ويقول ابن خلدون: «كان أوحد زمانه علماً وفضلاً، ورياسة ورأياً، وكرماً وعرفاً بأنواع العلوم»^(٢). وبمثل ذلك عرفه سائر من ذكره من مصنفي كتب الأدب والتاريخ^(٣).

(١) معجم الأدباء: ١٧١/٦.

(٢) تاريخ العبر: ٤٦٦/٤.

(٣) يتيمة الدهر: ١٦٩/٣ - ١٧٠، والنجوم الزاهرة: ١٧٠/٤، وأنبياؤه الرواة: ١/٢٠٢، والمنتظم: ١٨٠/٧، والكامل: ١٦٩/٧، وتاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢، وأبي حيان التوحيدي في معجم الأدباء: ٤٤/١٥، والبيدانية والنهاية: ٣١٤/١١، وشذرات الذهب: ١١٤/٣، والفهرست: ١٩٤، وأمل الأمل: ٤٢، ورجال أبي علي: ٥٦.

ونسجّل - فيما يلي - قائمة بفروع الثقافة التي كان يجيدها
الصاحب، لنعرف مقدار براعته وتمكنه من كل فرع من تلك الفروع:

التفسير:

لم يسجل التاريخ عن ابن عباد بروزاً في علم تفسير القرآن وما
يتبعه من بحوث في الغريب والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما
شاكل ذلك إلا مرة واحدة؛ حيث قيل له: هلاً صنفت تفسيراً؟ فقال:
«وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً؟»^(١).

وسواءً قيل ذلك للصاحب تزلفاً ونفاقاً أو تقديراً واعترافاً بكفاءته،
فإنه ليدلّ على شيوع معرفة الصاحب بهذا الفن بين أصحابه والملتقين
حوله؛ معرفة تؤهله للكتابة فيه والبحث في أبوابه ومطالبه.

وحفلت كتب الصاحب ومؤلفاته الكلامية ببعض آرائه في شؤون
التفسير وأصوله؛ وباستشهاده بكثير من الآيات القرآنية التي يُعدّ بعضها
من المتشابه، وبعضها مما يحتاج إلى الحمل والتأويل، فكان الصاحب
مستحضراً لمعانيها؛ فاهماً لمداليلها؛ مطلعاً على الروايات المختلفة
والأقوال المتعددة فيها، بالشكل الذي يلقي بعض الضوء على معرفة
مقدار براعته في هذا العلم، ومقدار عمقه فيه وفي البحوث المرتبطة به.

وأودّ - فيما يلي - نتفاً من تفسيره وشرحه لبعض الآيات للاطلاع
على مقدار كفاءته في هذا الموضوع:

(١) الحضارة الإسلامية: ٢٧٦/١؛ نقلاً عن المعتزلة لابن المرتضى: ٦٣، والمفسرين
للسيوطي: ٢٤، وعلي بن عيسى هو المعروف بالرماني المولود عام ٢٩٦هـ.
والتوفى عام ٣٨٤هـ، وكان من شيوخ المعتزلة في عصره، ومن رجال التفسير
والكلام واللغة المشهورين.

١ - «إعلم أنا نصف القرآن بالأحكام والمتشابه على معنى نوضحه لتطلع على الغرض منه فنقول:

من وجه إن القرآن كله محكم، ونريد بذلك إحكامه وانتظامه، وسداده واطراده، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الرَّءْيُ﴾ ﴿كَيْتَبُ أُخَيِّمَتْ ءَابِنْتُهُ﴾، ونصفه من وجه أنه متشابه كله، ونريد أن بعضه يشبه بعضاً في الإعجاز والبيان، وإقامة الدلالة والبرهان، والبعد عن الكذب والبهتان، والارتفاع عن أن يعارضه] أهل البلاغة والبيان، وهذا كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾.

ونصفه بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، فنريد بالبعض المحكم ما لفظه مطابق لمعناه، ولا زيادة في فحواه، ولا نقصان في اسمه عن مسماه؛ كقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

والمتشابه ما أشبه لفظه لمعانٍ مختلفة؛ فيحتاج إلى تحصيلها بالأدلة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ . . إلى آخر الآية، فإن هذه اللام في اللسان العربي محتمل أن تكون لام العلة - على ما تأولها القائلون بالجبر -، وتحتمل أن تكون لام العافية فتصح على مذهب أهل العدل، فحقها أن ترد إلى مثلها من المحكم؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وتبين إنها لام العافية. وقوله تعالى: ﴿فَاللَّفِطَّةُ مَالٌ مَرَعُونَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ وإنما التقطوه ليكون لهم ولداً وقررة عين. لكنه أخبر الشاعر:

وللموت ما تلد الوالده

فللموت تغذو الوالدات سخالها

وكما قال:

وأَم سَمَاكَ فَلَا تَجْزَعِي فَلَلموت مَا تَلد الوَالده
وقد ردَّ الله في تفسير الآية على وجوب الرد إلى المحكم بقوله:
﴿مِنهُ ءَايَاتٌ تُحَكِّمُ هُنَّ أُمُّ الْكَيْبِ وَأَخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾، وإنما جعلها أمًّا ليردَّ
إليها، كما سَمَّى مكة أم القرى لَمَّا كان مثابة الناس إليها. وكما سمت
العرب أعظم الدواهي التي تلطم لها: أم طبق وأم حبو كرى... ولولا
هذا المعنى لكان لا وجه أن يقال: إنها أم الكتاب.. إلخ^(١).

٢ - «زعمت المشبهة أن الله يَدَيْنِ على معنى الجارحة، وأثبتت له
وجهاً على معنى العضو. وقالت الموحدة: هذا فاسد، لأن الله تعالى
خالق الجواهر، ومنزَّه عن مشابهة الخلائق، ومعنى قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ
يَدَيَّ﴾ أي خلقته؛ وذكر اليد مجاز، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي
رُئِيسُ الرِّيحِ بُشْرَابِينَ يَدَيَّ رَحْمَةً﴾، ومعلوم أن المطر لا يد له، وكذلك
اليمين؛ ألا ترى إلى قول الشاعر في وصف الشمس:

ألفت ذكاء يمينها في كافرٍ

وكذلك القبض؛ ألا ترى أن العرب تقول: فلان قبض فلاناً، وهو
لا يريد بذلك أنه قبض عليه بجارحته بل بقوته، وأما الوجه فإن العرب
تذكره وتريد الشيء نفسه؛ كقولهم: هذا وجه الحق ووجه الرأي، وهذا
معنى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ معناها إلا هو.

فإن سألت المشبهة فقالت: أين هو؟ قلنا: (أين) سؤال عن مكان،
وكان الله تعالى ولا مكان، فلما خلق المكان ولم يتغير عما كان علم أنه

لا مكان له. فإن قال: أليس على العرش استوى، قيل له: معناه استولى؛ كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq
فإن قيل: هو مستولٍ على كل شيء فكيف خصَّ العرش. قيل له:
كما هو رب كل شيء وقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

٣ - «وزعمت المشبهة: إن الله تعالى يُدرك بالأبصار، وقالت الموحدة: إن الله لا يدرك بالأبصار؛ إذ لو كان مرثياً لكنا نراه ونحن أصحاب البصر. . . وقد قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ . . . فإن قيل: فالإدراك: الإحاطة. قيل: هذا فاسد في اللسان، لأن العرب لا تفرق بين قول الرجل: أدركته ببصري ورأيته ببصري، ولو كان الإدراك الإحاطة لقيل في الحائط أنه مدرك لأنه بالدار محيط، فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ بِؤْمُرٍ تَأْتِرُ * إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ قيل: ليس لكم في ظاهرها حجة، لأن الوجه لا يرى به.

وبعد: فقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ عامٌ في الدنيا والآخرة، ولو كانت هذه الآية دالةً على الرؤية لتناقض القرآن وحاشاه من ذلك، وتأويلها ما فسرها علي (ع) وابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسرين إن معناها ناظرة إلى ثواب ربها؛ كما يقول الناظر: إنما أنظر إلى الله وإليك؛ وكما قال الشاعر:

إني إليك لما وعدت لناظرٌ نظر الفقير إلى الغني الموسر

وقد دلنا إليه قوله تعالى لموسى (ع): ﴿لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْجَبَلِ﴾، وإنما سأله موسى (ع) ذلك عن قومه؛ ألا تسمعه تعالى يقول:

(١) الإبانة - نفائس المخطوطات -: ١١/١ - ١٢.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ قال عزوجل: ﴿وَأَخْنَزْنَا مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ يعني سؤالهم الرؤية^(١).

٤ - «القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله، تكلم لا بآلة كما يتكلم المخلوقون، بل بكلام أحدثه وأنشأه وخلقه - ومعنى خلقه: قدره -، إذ لو كان الكلام من القرآن وغيره قديماً معه لدلّ على القول بالتثنية والخروج عن جملة التوحيد»^(٢).

الحديث:

يقول ابن كثير في ترجمته للصاحب:

«سمع الحديث من المشايخ الجياد العوالي الإسناد، وعقد له في وقت مجلس للإملاء فاحتفل الناس لحضوره، وحضره وجوه الأمراء، فلما خرج إليه لبس زي الفقهاء وأشهد على نفسه بالتوبة والإنابة مما يعانيه من أمور السلطان، وذكر للناس أنه كان يأكل من حين نشأ إلى يومه هذا من أموال أبيه وجده مما ورثه منهم، ولكن كان مخالط السلطان وهو تائب مما يمارسونه، واتخذ بناءً في داره سماه بيت التوبة، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته، وحين حدث استملى عليه جماعة لكثرة مجلسه، فكان في جملة من يكتب عنه ذلك اليوم القاضي عبد الجبار الهمداني وأضرابه من رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين»^(٣).

(١) نفس المصدر: ١٣/١ - ١٥.

(٢) التذكرة - نفائس المخطوطات: ٨٩/٢.

(٣) البداية والنهاية: ٣١٥/١١، وقريب منه في المنتظم: ١٨٠/٧، ومعجم الأدباء:

٢٥٢/٦، ومعاهد التنقيص: ١٥٧/٢، ومعجم البحرين (مادة صحب).

ويحدّث السمعاني فيقول:

«سمع الأحاديث من الأصبهانيين والبغداديين والرازيين، وحدّث، وكان يحث على طلب الحديث وكتابته، وقد روى الحديث أيضاً وسمعوا منه»^(١).

والمفهوم من هذين النصين السالفين ومما شابههما من النصوص التاريخية الواردة بهذا الشأن أن للصاحب يداً كبيرة في الحديث وعلومه وأصوله وفقهه؛ بالشكل الذي جذب «رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين»، ولكن المؤسف عدم العثور على ما يؤيد ذلك ويؤكد صحته وقوة ووثوقاً، فلم تحتفظ كتبه ولا كتب غيره ممن ترجم له وتحدّث عنه إلا على عدة أحاديث لا تتجاوز العشرة في الإحصاء، وليس فيها ما يدل على عمق الغور وسعة الاطلاع الذي يجذب الفضلاء والفقهاء والعلماء، بل ليس فيها ما يزيد على ما يستطيع أن يرويه أو يسجله كل من أوتي شيئاً من الذكاء والفهم الذي يؤهله لحضور مجالس المحدثين ومحاضرات الأعلام الرواة المتتبعين، ولعلّ فيما فُقد من مؤلفات الصاحب ما يغيّر الرأي في مقدار براعة ابن عبّاد في هذا الفن ومقدار عمقه فيه.

وأسجل في أدناه أمثلة من مرويات الصاحب وأحاديثه الواردة في كتبه لتكون أنموذجاً لسائر رواياته المسجلة الأخرى:

١ - «روى عبيدالله بن موسى الروياني، عن عبد العظيم، عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا (ع). ما تقول في الحديث الذي يروي الناس بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟، فقال: لعن الله

المحرّفين الكلم عن مواضعه! والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك، إنما قال: إن الله عزوجل يُنزل ملكاً إلى السماء الدنيا ليلة الجمعة فينادي هل من سائل فأعطيته»^(١).

٢ - «روى علي بن الحسين السعد آبادي، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني، عن علي بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن موسى الرضا (ع) قال: خرج أبو حنيفة من عند الصادق جعفر بن محمد (ع) فاستقبله موسى (ع)، فقال: يا غلام ممّن المعصية؟ فقال: لا تخلو من ثلاثة:

إمّا أن تكون من الله عزوجل، وليس منه، فلا ينبغي للكريم أن يعذب عبده بما لم يكتسبه.

وإمّا أن تكون من الله ومن العبد، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف.

وإمّا أن تكون من العبد - وهي منه -، فإن عاقبه فبذنبه، وإن عفا عنه فبكرمه وجوده»^(٢).

٣ - «الحديث المروي: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر» خبر واحد، وقد أجمع العلماء على أنه لا يوجب العلم، هذا وفي إسناده ضعف، ولو صحّ لكان تأويله سائغاً، ومعنى - ترون ربكم - أي تعلمون الله في الدنيا استدلالاً، وهو يُعلّم في الآخرة ضرورة، كما نحن مضطرون إلى العلم بكون القمر، والرؤية بمعنى العلم كثير في القرآن واللغة»^(٣).

(١) أحوال عبد العظيم - نفائس المخطوطات: ٢١/٤.

(٢) نفس المصدر: ٢٢.

(٣) الإبانة - نفائس المخطوطات: ١٥/١.

الكلام:

يقول أبو حيان التوحيدي:

«كان الصاحب كثير المحفوظ، حاضر الجواب، فصيح اللسان، قد نتف من كل أدب شيئاً، وأخذ من كل فن طرفاً، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجّنة بطرائفهم ومناظرتهم»^(١).

ومن حسن الحظ أن تحتفظ لنا الأيام ببعض مؤلفاته الكلامية التي أودع فيها كثيراً من آرائه ومعتقداته ومناقشاته لمخالفيه في الرأي، ويظهر للمتأمل في مجموعها أن الرجل كان على جانب كبير من الاطلاع على الكتب الكلامية المتعددة، وأقوال المذاهب المختلفة، بل آراء الفلاسفة الأقدمين، وعقائد الديانات السابقة، والمبادئ الدينية الغابرة، وقد حاول في رسائله مناقشتها وردّها ودحض حججها بأسلوبه الأدبي الجميل؛ وقلمه البليغ المعروف.

ناقش الصاحب الدهريّة والمعظلة، والمجوس الثنويّة، والنصارى والمتفلسفة، والمشبّهة والبراهمة واليهود، والمجبرة القدرية، والمرجئة والخوارج، والحشويّة والعثمانيّة. وكتب في أصول الإسلام الخمسة بتفصيل وافٍ بالموضوع، وتكلم في الهداية والضلالة والطرق الموصلة إلى كل واحد منهما، ولم يكتف بالكتابة والتأليف في هذه المطالب حتى نظمها شعراً ورجزاً يقرر فيه رأيه المختار مشفوعاً بالإشارة إلى ما يدعمه من دليل صحيح وبرهان سليم من المناقشة في نظره.

وأسجل - فيما يلي - بعض آرائه ومناقشاته الكلامية بشيء من التطويل والتفصيل، لارتباطها بعدة أديان ومذاهب ومعتقدات، ولتعرّض

(١) معجم الأدباء: ١٧٤/٦ - ١٧٥، والامتناع والمؤانسة: ٥٤/١.

البحث فيها إلى بعض النقاط التي تعدُّ من صميم علم الفلسفة - وإن دخلت في ضمن مباحث علم الكلام - مما يدل على تمرسه بها وتمكنه منها:

١ - «زعمت الدهريَّة: إن لأجسام التي نشاهدها قديمة، وقالت الموحدة: هي محدثة، لأن الإمارات التي فيها من التحول والتنقل والتبدل والاجتماع والافتراق إمارات الحدوث لا القدم، ألا ترى أن اجتماعها يحدث فيبطل افتراقها، فإذا كانت لا تنفك من الحوادث فهي محدثة لأنها لم تتقدمها في الوجود، وقد علمنا أنَّ النطفة لو وضعت بين يدي العالم لما قدروا أن يخلقوا منها ذبابة كما قال الله تعالى: . . . ووجدناها خُلِقَ منها بشر سويّ، فعلمنا أنه حادث أحدثه قادر لا يشبهه القادرون»^(١).

٢ - «زعمت المعظلة أن لا صانع للعالم، وقالت الموحدة: له صانع وهو الله سبحانه وتعالى، واستدلّت: بأن الفعل لا بد له من فاعل، والكتاب لا بد له من كاتب، ألا ترى أن مدّعياً لو ادعى في دارٍ إنها قديمة لا باني لها لكان عند العقلاء مجهاً، فكيف تسوغ هذه الدعوى في السماوات والأرضين، مع حسن تركيبها، وانتظام تصويرها»^(٢).

٣ - «زعمت المشبّهة: إن الله يصعد وينزل، ويجيء ويذهب، ويبدو ويستتر، ويظهر ويحتجب، وقالت الموحدة: إنه لا يحول ولا يزول، لأن ما يحول ويزول ويحتجب وينتقل لا يكون أزلياً ولا قديماً، فهذه علامات الحدوث»^(٣).

(١) الإبانة - فائس المخطوطات: ٩/١.

(٢) نفس المصدر: ٩/١ - ١٠.

(٣) نفس المصدر: ١٣/١.

٤ - «زعمت القدرية: إن الله تعالى خالق الكفر وفاعله، ومنشئ الزنا ومخترعه، ومتولي القيادة وموجدها، ومبتدع السرقة ومحدثها، وكل قبائح العباد من صنعه، وكل تفاوت فمن عنده، وكل فساد فمن تقديره، وكل خطأ فمن تدبيره.

فإن قالوا على سبب التليس: إن العبد يكتسب ذلك؛ فإذا طولبوا بمعنى الكسب لم يأتوا بشيء معقول.

وقالت العدلية: معاذ الله أن يكون فعله إلا حكمة وحقاً، وصواباً وعدلاً، فالزنا فعل الزاني انفراداً بفعله، فكل قبيح منسوب إلى المذموم به، وإنما تولى المذمة العاصي، إذ باع الآخرة بالدنيا، ولم يعلم إن ما عند الله خير وأبقى، ولو كان قد خلق أعمالاً لما جاز أن يأمر بها وينهاهم عنها، كما لم يجز أن يأمرهم بتطويل جوارحهم وتقصيرها، إذ خلقها على ما خلقها، ولو خلق الكفر لما جاز أن يعيب ما خلق، ولو كان فاعل الكفر لما جاز أن يذم ويعيب ما خلق ويذم ما فعل، ولو كان مخترع الفساد لما جاز أن يعاقب على ما اخترع، ولا تنفك القبائح من أن تكون من الله تعالى فلا حجة على العبد، أو من الله ومن العبد فمن الظلم أن يفرد بعقاب ما شارك في فعله، أو من العبد فهو يستحق العقاب»^(١).

٥ - «زعمت العثمانية وطوائف الناصبية أن أمير المؤمنين (ع) مفضل في أصحاب رسول الله (ص) غير فاضل، واستدلّت بأن أبا بكر وعمر وليا عليه، وقالت الشيعة العدلية: فقد ولي النبي (ص) عليهما عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل فليقولوا إنه خير منهما، وقالت الشيعة: علي (ع) أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فلذلك

أخى بينه وبينه حين أخى بين أبي بكر وعمر، فلم يكن ليختار الأفضل لمن آخاه عمر، ومن دونه لمن آخاه نفسه»^(١).

٦ - «هو تعالى واحد لا قديم معه ولا إله سواه، إذ لو جاز إثبات اثنين لما امتنع من إثبات ثالث ورابع إلى ما لا نهاية له، ولجاز أن يتوهم كيف يختلفان ويتغالبان، وفي تجويز الغلبة لأحدهما إثبات العجز، والإله لا يكون عاجزاً»^(٢).

٧ - «من ارتكب الكبائر من أهل القبلة فإنما لا نطلق عليه الكفر - كما زعمت الخوارج -، إذ لو كان كافراً لما صُلِّي عليه ولا ورثه المسلمون، ولا نقول إنه مؤمن لأن صفة الإيمان صفة تشريف وتعظيم؛ ومرتكب الكبائر مهان ذليل، ونقول: إنه فاسق؛ وذلك (منزلة بين المنزلتين)، فمحال أن يكون الرجل في حالة مؤمناً وفاسقاً؛ وليأ لله عدواً»^(٣).

٨ - «يقول للمجبرة: كيف تستيقن نفوسكم أن الله الذي هو أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأرحم الراحمين؛ الذي لا تلحقه المضار ولا تناله المنافع؛ المطبوع بالخير قبل المسألة؛ والدافع الشر قبل الطلبة - يأمر بالإيمان ولم يرده، وينهى عن الكفر ويريده، ويقضي بالباطل ويقدره، وكيف يجوز أن يصرفهم عن الإيمان ثم يقول: ﴿أَنْ يَصْرُقُونَ﴾، ويخلق فيهم الإفك ثم يقول: ﴿أَنْ يُوَفَّكَوْنَ﴾، وأنشأ فيهم الكفر ثم يقول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، وفعل لبس الحق بالباطل ثم قال: ﴿لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، وصدّهم عن السبيل ثم قال: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾،

(١) الإبانة - نفائس المخطوطات ٢٥/١.

(٢) التذكرة - نفائس المخطوطات: ٨٨/٢.

(٣) نفس المصدر: ٩٤/٢.

وحال بينهم وبين الإيمان ثم قال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾، وذهب بهم عن الرشد ثم قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، وأضلهم حتى
أعرضوا ثم قال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ الْكَبِيرِ﴾.

إنّ هذا لو وصف في أعتى الفراعنة وأظلم الجبابرة لاستقبح،
فكيف في الحكيم الرؤوف - تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً -.

ثم أن الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - لما بُعثوا اتبعوا
الأدلة التي صحبتهم، والمعجزات التي صدقتهم، فإن التفرقة بين
الصادق والكاذب؛ والمعجز والحيلة؛ والدلالة والشبهة؛ إنما تستدرك
بالعقل، وتعرف بالتمييز والفحص. فلو جاز أن يأتي الأنبياء - (ع) -
بكثير مما يمتنع في العقول، ويبطل عند ذوي الألباب ولا يسوغ؛ لكانوا
قد كذبوا أنفسهم؛ إذ بالعقل تصديقهم وقد سقطت حجته والتبست
محجته، ولا جائز أن يأتي الأنبياء بما ينافيه ويضاده، ويمانعه ويحاده.

فليت شعري كيف يقبل الجبري بنبوة نبي بدليل عقل، وقد جاء -
على زعمه - بما تدفعه العقول وترفضه، وتحيله وتنقضه، وأبين من هذا:
إن القديم - تعالى - إنما عرفناه بدليل العقل، واستدللنا عليه بمتقن
الصنع^(١).

٩ - روى أبو حيان التوحيدي فقال: «كان ابن عبّاد قال لكاتبه
مرة... في شيء جرى: (نعم. العالم عتيق ولكن ليس بقديم) أي لو
كان قديماً لكان لا أوّل له، ولما كان عتيقاً كان له أوّل، ومن أجل هذا
الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم، واستحسنوا هذا الاطلاق، وقد
سألت العلماء البصراء عن هذا الاطلاق فقالوا: ما وجدنا هذا في كتاب

(١) الهداية والضلالة: ٣٩ - ٤١.

الله - عزوجل - ولا كلام نبيّه . . . وسألت أبا سعيد السيرافي الإمام: هل تعرف العرب أن معنى القديم ما لا أوّل له؟ فقال: هذا ما صحّ عندنا عنهم، ولا سبق إلى وهمنا هذا منهم، إلا أنهم يقولون: هذا شيء قديم وبنيان قديم، ويسرّحون وهمهم في زمان مجهول المبدأ»^(١).

ولم يكن هذا الرأي من ابن عباد في تفسير لفظتي «قديم» و«عتيق» بدعة في عالم الآراء، ولا جديداً عند المتكلمين، كما لم يكن تعليق أبي حيان على رأي الصاحب منبعثاً عن صفاء في النية ونزاهة في الهدف وطهارة في القصد، بل كان يهدف من هذا التعليق إلى طعن ابن عباد والتشهير به - كما اعتاد عليه في كل مناسبة -.

وقد أشار السيد الشريف المرتضى علي بن الحسين إلى بعض الآراء الكلامية بهذا الشأن فقال:

«يوصف تعالى بأنه قديم، وقد اختلف الناس في هذه اللفظة، فقال أبو علي ومن وافقه: إن فائدتها الموجود فيما لم يزل، فعلى هذا لا يستحق هذه اللفظة أن يسمّى بها غير الله تعالى، وجنح إلى أن قولهم: (نبأ قديم والعرجون القديم) مجاز، وقال آخرون: اللفظة تقتضي المبالغة في وصف القديم، وكان أبو هاشم يقوّي هذا وينصره. والصحيح في هذا: أنه اختصت بما لا أوّل لوجوده.

ولا يوصف تعالى بأنه عتيق؛ لأن أبا علي اعتلّ في نفي ذلك عنه بأن هذه اللفظة إنما تستعمل فيما حدثت من جنسه أمثاله، لأنهم يقولون: تمر عتيق إذا طرأ عليه الحديث، ولا يقال في السماء عتيقة لَمّا لم يحدث من جنسها مثلها، وقال أبو هاشم: هي عبارة عمّا أثر في

حاله الزمان؛ وإنما قالوا تمر عتيق لَمَا أثر فيه الزمان؛ لا بحدوث ما هو من جنسه، وقولهم: فرس عتيق يريدون كرم أصله وجودته؛ كما قالوا: البيت العتيق على سبيل المدح والتعظيم^(١).

ومما ورد في شعر الصاحب من المعاني الكلامية قوله من قصيدة:

ومن كان بالتشبيه والجبر دائماً	فإني في التوحيد والعدل أوحّد
أنزّه ربّ الخلق من حدّ خلقه	وقد زاغ راوٍ في الصفات ومسنّد
فهذا يقول: الله يهوي ويصعدُ	وهذا لديه الله - مذ كان - أمرّد
تبارك رب المرد والشيب إنهم	لأكفر من فرعون فيه وأعندُ
وآخر قال: العرش بفضل قدره	وأوهم أن الله جسم مجسّد
وآخر قال: الله جسم مجسّم	ولم يدر أن الجسم شيء محدّد
وأنّ الذي قد حدّد - لا بد - محدث	إذا ميز الأمر اللبيب المؤيّد
وقلنا: بأن الله لا شيء مثله	هو الواحد الفرد العليّ الممجّد
يقولون: عدل أن يكلف مقعداً	قياماً وعدواً مسرعاً وهو مقعدُ
وقلنا: بأن الله عدل وأنّه	يكلف دون الطوق ما هو أحمدُ
وإنّ ذنوب الناس - أجمع - كسبهم	بإحداثها من دونه قد تفرّدوا
ويقول في قصيدة أخرى:	

قالت: فكيف عرفت الحق هات به	فقلت: بالفكر في الأقوال والعلل
قالت: فهل هذه الأجسام محدثة	فقلت: جداً وإن رمت الدليل سلي
قالت: أريد دليلاً فيه مختصراً	فقلت: أن ليس فيها غير منتقل
قالت: فهل صانع تدعو إليه أجب	فقلت: لا بد قولاً غير ذي مِيل
قالت: فهل من دليل فيه تذكرة	فقلت: بيت بلا بانٍ من الخطل

(١) فنون من علم الكلام - نفائس المخطوطات: ٧٣/٥ - ٧٤.

فقلت: بل خالق الجنسين فانقلبي
فقلت: لا توجد الأجسام في الأزل

قالت: ابن لي أجسم ذاك أم عرض
قالت: وما ضرَّ لو أثبتته جسداً
ويقول في أخرى:

بحجّة كحدّ سيف صارم
فعاد للحق بأنف راغم
مرغّب منوع مصنّف
لأنه مدبّر مصرّف
كلّا ولا تبلغه الأفكار
ولا له ابن ولا أقطار
لكان ملموساً بكف زائر
وكان ذا حدٍ من المقادر
لصحّ أن ينام أو أن يسهدا
وصحّ أن يولد أو أن يلبدا
وفعل الشاتم ما قد حتما
وكان من عدّ به قد ظلما
ما ذمّ من عدوه امتناعه
أفٍ لهذا القول من شناعه

إصغ إلى وصفي حدوث العالم
كم أعجزت من فيلسوف عالم
جميع ما تشهده مؤلّف
وفيه للصنع دليل يعرف
عزّ فما تدركه الأبصار
ولا له كيف ولا استقرار
لو كان محسوساً بعين ناظر
وكان ذا كلٍ وبعض ظاهر
أو صحّ أن ينزل أو أن يصعدا
وصحّ أن يجلس أو أن يقعدا
ولو أراد ربنا أن يُشتما
لكان فيه طائعا قد علما
أو كلف الأمر بلا استطاعه
ولا أقام للعقاب الساعه

اللغة:

كانت ثروة الصاحب من علوم اللغة كبيرة جداً وضخمة إلى حدٍ بعيد، وكان تمكنه منها وتبحره فيها بارز الأثر قويّ الظهور في سائر ما احتفظ به الزمن من مراسلات ابن عباد ومكاتباته؛ ومؤلفاته العديدة؛ وشعره الكثير.

وكانت معرفة الصاحب باللغة وإتقانه لبحوثها وتمرسه بعلمها خيراً

شائعاً ذائعاً لدى كل معاصريه الأعلام وسائر المترجمين له من رواة التاريخ ومؤرخي العلوم؛ حتى عُدَّ في قائمة أعلام اللغة في أكثر الكتب اللغوية ومصادرها المعروفة، وحتى قال العلامة الشهير ابن فارس في مقدمة كتابه: «الصاحبي في فقه اللغة العربية» في بيان سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم ما نصه:

«لأنني لما ألفتُه أودعته خزانة الصاحب الجليل...، إذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضياً مقبولاً، وما يردله أو ينفيه منفياً مردولاً، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومُفاد منه»^(١).

ولا حاجة إلى التطويل في نقل أقوال المؤرخين وآرائهم في معرفة الصاحب باللغة، فقد كفانا كتابه القيم «المحيط» مؤنة ذلك، حيث نجد الصاحب فيه عالماً لغوياً كبيراً لا يشق له غبار، وإذا كانت الأيام لم تحتفظ بمؤلفات الصاحب اللغوية الأخرى ككتاب «الجوهرة» وكتاب «الحجر» وأمثالهما فإن احتفاظها بالمحيط وحده كافٍ في الدلالة على مبلغ تمكن الصاحب من اللغة ووقوفه على سائر بحوثها وفروعها وفقهها ومفرداتها الكثيرة الوافرة.

وإليك بعض مقدمة المحيط مثلاً على أسلوب الصاحب في بحثه اللغوي، ومنهجه في التأليف والتحقيق فيه:

«كلام العرب مبنيٌّ على أربعة أنحاء: الثلاثي والثنائي والرباعي والخماسي، لا يُجاوَزُ ببناء الكلمة والحروف [الأصلية ذلك] إلا أن تلحقها الزوائد، فقد تبلغ بها حينئذٍ سبعة نحو القَرَعْبَلَانَة وهي دويبة، فأما الثنائي فإنه يجيء على ضربين، ربما جاء وأصله ثلاثة نحو دم وفم

وشفه؛ ويتبين الذاهب منه بالتصريف، وربما جاء ولا أصل له في الثلاثي نحو الأدوات وأسماء الزجر والحكايات مثل من وعن وصنّ وممّ وطق وقد».

«والثلاثي نحو قولك من الفعل: ذهب وضرب، ومن الاسم: حجر وشجر.

والرباعي من الفعل نحو: دحرج وقرطس، ومن الاسم نحو: عقرب وعبقر.

والخماسي من الأفعال لا يكون إلا بالزيادة، فأما من الأسماء فنحو: سفرجل وشمردل. ولا يجيء الخماسي إلا وفيه حرف أو حرفان من حروف الذلافة وهي ستة أحرف، ولها مخرجان، فمنها الفاء والباء والميم؛ وهي من الشفة، ومنها الراء والنون واللام؛ وهي من أسلة اللسان، وكذلك الرباعي إلا أن يكون فيه أحد حرفي الطلاقة وهما العين والقاف؛ أو كلاهما؛ أو السين والندال؛ أو إحداهما، وهو مع ذلك قليل».

«وأعلم أن من الأبنية الصحيح والمعتل، فالصحيح: ما سلم أصل بنائه من حروف العلل وهي الواو والياء والألف، والمعتل: ما شاب حروفه حرف أو حرفان منها، فأما اللفيف فما لا يكون فيه من الحروف الصحاح إلا حرف واحد».

«فإن قال قائل: لِمَ ابتدأ الخليل عند ذكر الأبنية بالثنائي، وقد قال سيبويه: أقل ما تكون عليه الكلمة حرف واحد؟

قيل له: إنما أشار بالكلمة تسامحاً منه إلى حروف مفردة موصولة بأطراف الكلم لا يقدر على قطعها منها؛ ولا تستقل بذواتها، نحو: لام

لقد وكاف هناك، فأما الكلمة فلا تستحقها - حقيقة - إلا ما يمكن الابتداء به والوقف عليه، وهذا لا يكون في أقل من حرفين»^(١).

ومن آرائه المرتبطة باللغة قوله في كيفية وضع اللغات ونشأتها:

«ولولا إرسال الرسل، لما عرف الناس لغات يتخاطبون بها، وليس على ادعاء الاصطلاح فيها دليل، إذ الاصطلاح على لغة لا يكون إلا بلغة...، والتجربة تكشف ما قلناه»^(٢).

ومن شواهد حفظه للغريب واستحضاره لمفردات اللغة قوله يوماً للشاعر التميمي:

«كيف تقول الشعر؟ وإن قلت كيف تجيد؟ وإن أجدت فكيف تغزر؟ وإن غزرت فكيف تروم غاية؟ وأنت لا تعرف ما الرّهزيق، وما الهبّلع، وما العثّلط، وما الجلعلع، وما القهّقب، وما القهّبلبس، وما الخلبوس، وما الخزعبيلة، وما القذعميلة، وما العمروط، وما الجرقاس، وما اللّثوس، وما التّعشل، وما الطريال، وما الفرق بين العرم والرّدم، والحدم والحدم، والقضم والخضم، والنضح والرضح، والفصم والقصم، والقصع والفصع، وما العبنّقس، وما العلنّكس، وما الوكّال، والزؤمّل، وما الخيشعور، واليستعور، وما الشنعوف، وما الخذروف، وما الحلّزون، وما القفّندد، وما الجمعليل؛ قال الشاعر:

جاءت بخف وحنين ورحلُ
جاءت تمشّي وهي قدّام الإبلُ
مشي الجمعليلة بالجزق النّقلُ

قل: ورأيت بعض الجهّال يصحّف ويقول: وحنين وزجل»^(٣).

(١) المحيط: ٢/١ - ٣ مخطوط بمكتبة المتحف العراقي.

(٢) الإبانة - نفائس المخطوطات: ١٦/١.

(٣) معجم الأدباء: ٢٢٨/٦ - ٢٣١.

النحو:

درس الصاحب النحو على العلامة اللغوي ابن فارس، كما درس بعض المباحث النحوية على أبي سعيد السيرافي؛ وأبي بكر بن كامل؛ وأبي بكر بن مقسم، فلا غرابة إذا ما كانت للصاحب يد في هذا العلم وبراعة فيه، كما لا غرابة إذا ما عُدَّ من أعلام النحو في الكتب المعدَّة للترجمة لهم، ككتاب «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي، وكتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي، وأمثالهما من المؤلفات المختصة بهذا الموضوع. ولكنَّ الغريب الملفت للنظر ما يرويه أبو حيان التوحيدي إذ يقول:

«أما أبو إسحاق فإنه أحبُّ الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المحجَّة الوسطى، وإنما يُنقَم عليه قلة نصيبه من النحو؛ وليس ابن عبَّاد في النحو بذلك»^(١).

وروى أبو حيان - تأييداً لرأيه في ضعف الصاحب بالنحو - هذه المطارحة:

«قال الصاحب يوماً: فَعَلٌ وأفعال قليل، وزعم النحويون أنه ما

(١) الامتاع والمؤانسة: ٦٧/١.

جاء إلّا زند وأزناد، وفرخ وأفراخ، وفرد وأفراد. فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وأفعال، فقال: هات يا مدّعي، فسردت الحروف ودلت على مواضعها من الكتب، ثم قلت: ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع، وليس للتقليد وجهٌ إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً»^(١).

ولقد سبق لي القول بأن ما ينفرد بنقله أبو حيان لا يصح التعويل عليه لكونه موضع شك وتهمة، وأن الباحث المثبت لا يمكن أن يجعل هذه الروايات مصدراً لرأي أو دليلاً على وجهة نظر، ولهذا فليس باستطاعتي الانسياق مع هذه الادعاءات؛ وإن لم يكن لديّ من القرائن ما يكذبها وينفيها.

ولم أعثر في مؤلفات الصاحب وفيما أثر عنه في كتب التاريخ والأدب على رأي نحوي له إلا مرة واحدة؛ حيث يقول عند ذكره لأبي سعيد السيرافي ومجلس درسه.

«وابتدأ فُقرىء عليه من كتاب المقتضب بابٌ ما يجري وما لا يجري، إلى أن ذكر «وسحر» وأنه لا ينصرف إذا كان لسحر بعينه، لأنه معدول عن الأول، فقلت: ما علامة العدل فيه؟ فقال: إنا قلنا: السَّحَر، ثم قلنا: سحر، فعلمنا أن الثاني معدول عن الأول. قلت: لو كان كذلك لوجب أن تَطَّرِد العلة في عَتَمَة، لأنك تقول: العتمة، ثم تقول: عتمة، فضجر واحتدّ، وصاح وأربد»^(٢).

(١) معجم الأدياء: ٢٦/١٥ - ٢٧.

(٢) معجم الأدياء: ٢٧٨/٦.

العروض:

كان الصاحب ذا يدٍ كبيرة في علم العروض بالدرجة التي تؤهله للتأليف فيه، وقد اعترف له بذلك سائر مؤرخيه والباحثين عنه حتى خصمه أبو حيان التوحيدي حيث قال: بأنه «حَسَنُ القيام بالعروض والقوافي»^(١).

وكان نبوغه في هذا العلم وإتقانه له مبكراً جداً، فقد استطاع وهو في الحادية والعشرين من سنّ حياته أن يصطدم بعلامة اللغة والأدب أبي سعيد السيرافي، فيثبت له خطأه في قراءته وتقطيعه لبعض الأبيات الشعرية، وكان ذلك في عام (٣٤٧هـ) لما سافر ابن عبّاد لبغداد، وحضر مجلس درس السيرافي حيث رأى بعض طلابه يقرأ الجمهرة عليه، حتى انتهى إلى الاستشهاد بهذا البيت فقرأه هكذا:

رسم دار وقفت في طليّة كدت أقضي الغداة من جليله

يقول الصاحب: فقلت: «أيها الشيخ هذا لا يجوز والمصراعان على هذا النشيد يخرجان من بحرین، لأنّ:

رسم دار وقفت في طليله «فاعلاتن مفاعِلن فعِلن»

(١) الامتاع والمؤانسة: ٥٥/١.

كدت أقضي الغداة من جلله «مُفتَعِلُنْ مَفْعَلَاتُ مُفتَعِلُنْ»

فذاك من الخفيف، وهذا من المنسرح. فقال: لِمَ لا تقول: الجميع من المنسرح والمصرع الأول مخروم؟ فقلت: لا يدخل الخرم هذا البحر، لأنه أوله «مستفعلن مفاعِلُنْ» هذه مزاحفة عنه، وإذا حذفنا متحركاً بقينا ساكناً، وليس في كلام العرب ابتداءً به، وإنما هو:

كدت أقضي الغداة من جلله

بتخفيف الضاد، فأمر بتغييره^(١).

وكان يتذاكر يوماً مع أستاذه أبي الفضل بن العميد شعر البحري وفضله، فقال له أستاذه: «تعرف للبحري ما خرج فيه عن الوزن؟».

يقول صاحب: «فقلت: بلى، أنشدني أبو الحسن بن المنجم قال: أنشدني أبو الغوث لأبيه من قصيدة:

واحق الأيام بالأنس أن يؤثرفيه يوم المهرجان الكبير
فقال سيدنا: أردتُ غير هذا، فقلت: لا أعرف. فأنشد قصيدته التي أولها:

ظلم الدهر فيكم وأساءا فعزأاً بني حميد عزاءا
إلى أن انتهى إلى قوله:

ولماذا تتبّع الناس شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاءا
فقلت: هو كما قال سيدنا، لأن البيت من الخفيف، وفيه زيادة سبب^(٢).

(١) معجم الأدباء: ٢٧٧/٦ - ٢٧٨.

(٢) الكشف عن مساويء شعر المتنبي: ٨.

ويقول الصاحب في تعريف العروض:

«العروض ميزان الشعر، بها يعرف مكسورُه من موزونه، كما أن النحو معيار الكلام به يُعرف معرُبه من ملحونه»^(١).

ويقول في مقدمة كتابه: «الاقناع في العروض وتخريج القوافي»:

«الشعر مبنيٌّ على سبب ووتد وفاصلة.

فالسبب سببان: خفيف وثقيل، فالخفيف متحرك بعد ساكن مثل مِنْ وَعَنْ، والثقيل حرفان متحركان مثل لِمَ وَيَمَ.

والوتد وتدان: مجموع ومفروق، فالمجموع حرفان متحركان بعدهما ساكن مثل إلى وعلى، والمفروق حرفان متحركان فرَّق بينهما ساكن مثل سار وباع.

والفاصلة فاصلتان: صغرى وكبرى، فالصغرى ثلاثة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل ذهباً وطلباً، والكبرى أربعة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل ذهبتا وطلبتا، ولا يتوالى في الشعر أكثر من أربعة أحرف متحركات، ولا يجتمع فيه ساكنان إلا في قوافٍ مخصوصة.

والمعتبر في التقطيع اللفظ دون الحظ، وكل مشدّد يعدُّ حرفين: الأول ساكن والثاني متحرك، وكل بيت مصرّع فعروضه على زنة ضربه أو ما يجوز في ضربه.

والعروض اسم لآخر جزء في النصف الأول من البيت، والضرب اسم لآخر جزء في النصف الأخير من البيت.

والزحاف جائز كالأصل، والكسر ممتنع، وربما كان الزحاف في

(١) الإقناع في العروض: ٢/أ. مخطوط مصور بمكتبتي الخاصة.

الذوق أطيب من الأصل، والزحاف لا يقع إلا في الأسباب، والحزم والقطع لا يقعان إلا في الأوتاد، وسيأتي بيان الخرم والحزم في موضعهما إن شاء الله تعالى.

وأصول الأفاعيل ثمانية: إثنان خماسيان وهما فعولن فاعلن، وستة سباعية وهنّ مفاعيلن فاعلاتن مستفعلن مُفاعِلتن متفاعِلن مفعولات، وما جاء بعدها فهو زحاف له أو فرع عليه^(١).

وفي أثناء مناقشات صاحب شعر المتنبي يسجل على المتنبي مخالفته للعروض في أحد أبياته فيقول:

«وفي هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفتن لها إلا من جمع في علم وزن الشعر بين العروض والذوق وهو:

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف

وذاك أن سبيل عروض الطويل أن تقع مفاعِلن، وليس يجوز أن تأتي مفاعِلن إلا إذا كان البيت مصرعاً، اللهم إلا أن يضع هو عروضاً لتمام الدائرة، فهذه العروض قد ألزمت القبض، لعل ليس هذا موضع ذكرها، ونحن نحاكمه إلى كل شعرٍ للقديما والمحدثين على بحر الطويل فلا نجد له على خطأه مساعداً^(٢).

النقد الأدبي:

لم يكن النقد الأدبي فناً جديداً استحدث وابتكر في العصر الإسلامي، بل كان من الفنون القديمة المعروفة عند اليونانيين في عصر

(١) الإفتاح في العروض وتخريج القوافي: ١/٢ - ب.

(٢) الكشف: ٢٣.

نهضتهم، وعند العرب الجاهليين الذين انتهت إلينا أخبارهم، ولكنه خضع لسنة التطور على مر السنين، فتدرج من وضعه البدائي البسيط إلى أدواره السامية في القرنين الأولين من الهجرة، ثم إلى دوره البارز في القرن الثالث على يد المبرد وأبي سعيد السكري وابن المعتز وابن قتيبة وقدامة وأضرابهم.

وكان القرن الرابع عصر ازدهار هذا الفن وبلوغه القمة في تطوره وصعوده، «وإذا كان الشعر العربي قد بلغ فيه ذروته؛ فإن النقد القديم انتهى فيه إلى غايته، سواءً من جهة سعته وشموله أم من جهة عمقه ودقته أو من جهة براءته من الحدود الفلسفية إلى درجة واضحة، وذلك لتفرد النقاد الأدباء تقريباً بهذا الفن؛ ونضح ملكة الذوق عندهم من كثرة ما درسوا ووزنوا، وجمعوا بين جمال الطبع لتضلّعهم في الأدب القديم؛ وحس الصنعة من ممارسة الأدب الحديث، فصفا ذوقهم وعاد مهذباً لطيفاً سديداً».

«وكان نقدهم ممتازاً بالعمق وسعة الأفاق وتحليل الظواهر الأدبية وإرجاعها إلى أصولها الصحيحة، وعاد نكراً ما كان يحبُّ قدامة أن يفرضه على الشعر من قوانين المنطق وأصول الأخلاق والفلسفة، وكانت المعركة بين النقاد تدور حول أبي تمام والبحتري، ثم بين المتنبي وخصومه، وكسب النقد من وراء ذلك عدة كتب ورسائل قيمة تؤرّخه في القرن الرابع؛ مثل كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي، وأخبار أبي تمام للصولي، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، عدا كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ورسالة الصاحب بن عبّاد في الكشف عن مساوي المتنبي، ورسالة الحاتمي فيما تورده من المعاني بين أبي الطيب المتنبي وأرسطو. ودخلت مسألة السرقات الشعرية في باب النقد.

وكانه لم يبق شيء نقديّ غفل عنه أدباء القرن الرابع أو لم يفتحوا فيه على أقلّ تقدير»^(١).

وكان أبو الفضل بن العميد - أستاذ الصاحب وموجهه الأكبر - في طليعة أعلام النقد الأدبي ورجاله اللامعين في هذا القرن، ولكن المؤسف أن أبا الفضل - هذا - لم يسجل آراءه ودراساته في هذا الموضوع في كتاب مستقل، فضاع اسمه وخبا ذكره، ولولا تسجيل الصاحب في رسالته: «الكشف عن مساويء شعر المتنبي» لبعض آراء أستاذه لما عرف عنه البروز في هذا الفن والإبداع فيه، ولكن الصاحب إذ عرض لابن العميد وبعض آرائه في نقد الشعر دللنا على براعة هذا الرجل وعلو كعبه في هذا الفن الجميل الجليل.

ولم يكن ابن العميد في معرفته بهذا الفن ناقلاً عن غيره من المتقدمين آراءهم وأقوالهم في نقد الشعر، بل كان - مع اطلاعه الكبير على أقوال غيره - مبتكراً لبعض أصول هذا الفن وأساليبه، وفي هذا الصدد يحدثنا الصاحب فيقول:

«ها أنا منذ عشرين سنة أجالس الشعراء وأكاثر الأدباء وأباحث الفضلاء، وعشرين أخرى أخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد؛ وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب، فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته، وينقده نقد جهابذته، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد أدام الله أيامه وحصن لديه إنعامه، فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخيير القافية والوزن، وعن مجلسه - أعزه الله تعالى - أخذت ما أتعاطى من

(١) أصول النقد الأدبي: ١١٢.

هذا الفن، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى من هذا الجنس»^(١).

ثم يروي عن أستاذه بعض آرائه في نقد الشعر فيقول:

«أنشدت يوماً بحضرته كلمة أبي تمام التي أولها:

شهدت لقد أفوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وسائع من برد

حتى انتهيت إلى قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فقال: هل تعرف في هذا البيت عيباً؟ فقلت: بلى؛ قابل المدح باللوم فلم يوف التطبيق حقه، إذ حق المدح أن يقابل الهجو والذم، على أنه قد روي: (ومتى ما ذمته ذمته وحدي)، فقال - أيده الله -: غير هذا أردت، فقلت ما أعرف. قال: أحد ما يُحتاج إليه في الشعر سلامة حروف اللفظ من الثقل، وهذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين - وهما من حروف الحلق - خارج عن حد الاعتدال؛ نافر كل النفر، فقلت: هذا ما لا يدركه ولا يعلمه إلا من انقادت وجوه العلم له، وأنهضه إلى ذراها طبعه»^(٢).

ومما رواه الصاحب عن ابن العميد أيضاً في هذا الموضوع قوله:

«إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ويبتدأ النسيج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً، ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراداً، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتبائه عليه»^(٣).

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي: ٤.

(٢) نفس المصدر: ٦ - ٧.

وهكذا نشأ تلميذ ابن العميد بارعاً في هذا الفن كأستاذه، فنقد شعر المتنبي نقداً فنياً دقيقاً دلّ على ذوق سليم وتمكّن كبير من أصول هذا الفن وقواعده، وجاءت رسالته في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي مصدراً قيماً من مصادر دراسة هذا الفن في القرن الرابع، بالنظر إلى ما احتوت عليه من براعة في النقد، ودقة في الغوص إلى استخراج المساوئ الفنية التي حفل بها بعض شعر المتنبي وبعض أبياته الركيكة.

وسواءً كان صاحب مندفعاً إلى نقد المتنبي بدافع النزاهة وحب العلم، أو بدافع الحقد والغضب عليه، فإن نقده وتجريحه وإظهاره العيوب والمساوئ الظاهرة فيما رواه من شعر المتنبي صحيح - في الأكثر - وغير قابل للمناقشة والرد، وإن حاول بعضهم الدفاع عن المتنبي فلم يوفق التوفيق الكامل.

وأورد - في أدناه - نماذج من نقده الأدبي الفني، ليعطي بعض ملامح صاحب في تضلعه بهذا الفن والتمكن منه:

١ - «أما السرقة فما يعاب بها، لاتفاق شعر الجاهلية والإسلام عليها، ولكن يعاب أنه كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول: لا أعرفهم ولم أسمع بهم، ثم يتشد أشعارهم فيقول: هذا شعر عليه أثر التوليد»^(١).

٢ - «لقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحسّ على سوء أدب النفس، وما ظنك بمن يخاطب ملكاً في أمه بقوله:

رواق العزف فوقك مسبّطراً

ولعل لفظة - الاسبطرار - في مراثي النساء من الخذلان الصفيق... وهذه القصيدة يظن المتعصبون له إنها من شعره بمثابة: ﴿وَقِيلَ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُكُمْ إِذْ كُنَّا كُفْرًا﴾ من الفرقان. وفيها يقول:

وهذا أول الناعين طراً
لأول ميتة في ذا الجلال
ومن سمع باسم الشعر عرف تردده في انتهاك الستر، ولما أبدع في
هذه المرثية واخترع قال:

صلاة الله خالفنا حنوطاً على الوجه المكفّن بالجمال
وقد قال بعض من يغلو فيه: هذه استعارة، فقلت: صدقت ولكنها
استعارة حداد في عرس، ولما أحبّ تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها
من الكريّمات؛ أعمل دقائق فكره، واستخرج زيد شعره، فقال:

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال
ولعلّ هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته أحسن من قول
الشاعر:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دلاً على القبر
وكان الناس يستبشعون قول مسلم:

سلت وسلت ثم سل سليلها

حتى جاء هذا المبدع بقوله:

وأفجع من فقدنا من وحدنا قبيل الفقد مفقود المثال

فالمصيبة في الرائي أعظم منها في المرثي^(١).

٣ - «وأطمم ما يتعاطاه التفاضح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة، حتى كأنه وليد خباء أو غذي لبن، ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر، فمن ذلك قوله:

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل
ولا أدري كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره»^(١).

٤ - «ما زال يسمع الأقسام الشريفة في الشعر كقول النابغة:
إذن فلا رفعت سوطي إليّ يدي

وكقول الأشر:

بقيتُ وفري وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إلى كثير من هذا الجنس للمتقدمين والمخضرمين والمحدثين، فأراد التشبه بهم، والصب على قوالهم فقال:

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذٍ من الإسلام
وحينئذٍ ها هنا أنفر من غير منقلت»^(٢).

٥ - «ولم تنفك مستحسنين لجمع الأسامي في الشعر كقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
وقول الآخر:

عباد بن أسماء بن زيد بن قارب

(١) الكشف: ١٢ - ١٤.

(٢) الكشف: ١٤.

(٣) نفس المصدر: ١٥.

واحتذى هذا الفاضل على مثالهم وطرقهم فقال:

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه تشابه مولود كريم ووالدُ
وحمدان حمدون وحمدون حارث وحاتر لقمان ولقمان راشدُ

وهذه من الحكمة التي ذخرها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا الخلف
الصالح، وليس على حسن الاستنباط قياس^(١).

٦ - «ومما لم أقدّره يلج سمعاً أو يرد إذناً قوله:

جواب مسائلي أله نظير ولا لك في سؤالك لا إلا
وقد سمعت بالفأفاء ولم أسمع باللائاء حتى رأيت هذا المتكلف
المتعسف^(٢).

٧ - «ومن مدحه ببعده الغور وقد غار فيه لعمرى وما انجد؛ قوله:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك منه والدنا
فالمصراعان لتنافيهما يتبرأ أحدهما من صاحبه تبرئى من آل أبي
سفيان وآل مروان، ثم - الدنا - من الألفاظ التي لا يبالي الإنسان أن
يعدم مثلها من شعره^(٣).

٨ - «ومن عيون قصائده التي تحيّر الأفهام وتفوت الأوهام،
وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقى وبالأعداد الموضوعة
للموسيقى قوله:

آحاد أم سداس في آحادٍ لييلتنا المنوطة بالتنادٍ

(١) الكشف: ١٦.

(٢) نفس المصدر: ١٩.

(٣) نفس المصدر: ١٩.

وما ظنك بممدوح قد تشمر للسمع من مادحه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة، والمعاني المنبوذة، أي هزة تبقى هناك، وأي أريحية تثبت بهذا^(١).

٩ - «وعهدت الأدباء وعندهم أن أبا تمام أفرط في قوله:
شاب رأسي وما رأيت مشيب الـ رأس إلا من فضل شيب الفؤاد
فعمد هذا إلى المعنى فأخذه، ونقل الشيب إلى الكبد، وجعل له
خضاباً ونصولاً، فقال:

إلا يشب فلقد شابت له كبد شيباً إذا خضبته سلوة نصلاً^(٢)

١٠ - «ومنها بيت قد حشا تضاعيفه بالضعف، وهو:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقشوا هذا البيت على
صدر الكعبة، وينادى في الناس قعوا له ساجدين.

وله وقد غاص فأخرج جندلة:

لو لم تكن من ذا الوري اللذ منك هو
عقمت بمولد نسلها حواء
وأنا أقول: ليت حواء عقمت ولم تأت بمثله^(٣).

١١ - «ومن تصريفه الحسن وضعه التقييس موضع القياس في

قوله:

(١) نفس المصدر: ٢١.

(٢) الكشف: ٢٢.

(٣) نفس المصدر: ٢٣.

بشر تصور غاية في آية تنفي الظنون وتفسد التقييسا
 ويليه بيت إن لم يستح منه أصحابه سلمناه لهم وهو:
 وبه يضمن على البرية لا بها وعليه منها لا عليها يوسى
 وليس بالحلو قوله:

صدق المخبر عنك دونك وصفه

من في العراق يراك في طرسوسا^(١).

١٢ - «وله يريد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا، فأنى
 بأخزي الخزايا:

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا
 ومن الناس أمه فهل ينشط لركوبها، والممدوح أيضاً لعل له عصبه
 لا يحب أن يُركبوا إليه، فهل في الأرض أفحش من هذا التسحب،
 وأوضع من هذا التبسط»^(٢).

هذه بعض الشواهد والنماذج من نقد الصاحب الأدبي عرضناها
 بإسهاب للدلالة على منحى الصاحب وأسلوبه في هذا الفن، وطريقته
 وذوقه في اختيار ما ينقد، وفي ذلك يقول الدكتور محمد مندور:
 «لئن كان التحامل واضحاً في أقواله، فالكثير من ملاحظاته
 صحيح، وإنما يقدر في المؤلف أنه لم يشر إلى أيّ حسنة للمتنبي، ولا
 أورد له أيّ بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد».

«والذي يدهشنا من أمر الصاحب هو أن نراه ينقد المتنبي هذا النقد

(١) نفس المصدر: ٢٣ - ٢٤.

(٢) الكشف: ٢٦.

المر، مع أنه قد تأثر به وأخذ عنه...، ويزيدنا دهشة أن بدار الكتب الملكية رسالة منسوبة إلى صاحب بعنوان - كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبي -، وفي مقدمتها يقول المؤلف إنه قد وضعها لفخر الدولة بن بويه، وفيها زهاء ثلثمائة وسبعون بيتاً تجري مجرى الأمثال^(١).

ثم يذهب الدكتور مندور بعد ذلك إلى الشك في نسبة رسالة صاحب في الأمثال السائرة من شعر المتنبي لمؤلفها، ويرى أنه لا سبيل إلى الجزم في نسبتها إليه، ولا دليل له على ذلك إلا نقد صاحب المر لشعر المتنبي.

ولو تصفح الدكتور مندور مقدمة رسالة «الكشف عن مساوي شعر المتنبي» لوجد صاحب فيها معترفاً بإجادة المتنبي وإصابته في شعره فهو يقول:

«كنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب الأشعار وقائلها، والمجودين فيها، فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء، فرأيته قد هاج وانزعج، وحمى وتأجج، وادعى أن شعره مستمر النظام متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداني فقال: إن كان الأمر على ما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره... ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي، ولا تتبّع الزلات من طريقتي، وقد قيل: أيُّ عالمٍ لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا يكبو»^(٢).

(١) النقد المنهجي عند العرب: ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) الكشف: ٣.

فالصاحب - إذن - لا ينقد المتنبي هذا النقد المر لينكر إجادته وإبداعه في شعره، وإنما تدفعه روح الحرية الأدبية المحايدة إلى تسجيل مساوئه الفنية في رسالة خاصة، ثم إلى تسجيل براعته الأدبية في رسالة أخرى هي رسالة: «الأمثال السائرة»، ثم إلى التأثر بالمعاني المبتكرة التي حفل بها شعر المتنبي والاستشهاد بتلك المعاني في نثره ورسائله، وهذه هي النزاهة الأدبية بمعناها الصحيح، إذ تقول للمحسن: أحسنت، وللمسيء: أسأت، وأروي في أدناه نص ما سجله الصاحب في الثناء على المتنبي في مقدمة رسالته «الأمثال السائرة» ليكون مسك الختام:

قال: «وهذا الشاعر مع تمييزه وبراعته، وتبريزه في صناعته، له في الأمثال خصوصاً مذهب سبق به أمثاله. فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل رائع في فنه، بارع في معناه ولفظه، ليكون تذكرة في المجلس العالي، تلحظها العين العالية، وتعيها الأذن الواعية»^(١).

التاريخ:

صنّف الصاحب في هذا الفن عدة كتب ذكرتها المراجع القديمة، ولم يبق منها إلى اليوم سوى كتاب «عنوان المعارف في ذكر الخلائف»، ورسالة «أخبار عبد العظيم الحسني».

وبالرغم مما حفل به هذان الكتابان من أنباء متنوعة ومعلومات متعددة، فإنهما لا يدلّان على عمق في الدراسة، أو دقة في البحث، أو إبداع في تحليل المشاكل التاريخية المعقدة، بل كل ما نستفيد منه أن مؤلفهما من ذوي الاطلاع على كتب التاريخ والوقوف على رواياته

(١) الأمثال السائرة: ورقة ٢، مخطوط مصور مكتبة الإمام الحسن العامة.

وحوادثه، وإن الكتابين - بدورهما - عرض مختصر للروايات والحوادث المرتبطة بموضوع كل واحد منهما.

وأورد فيما يلي نتفاً مقتبسة من هذين الكتابين لتكون نموذجاً للمعلومات التي حفلت بها كتب الصاحب التاريخية؛ وللأسلوب الذي يعرض فيه هذه المعلومات:

١ - «ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل، ودفعته أمه إلى اظآره من بني سعد بن بكر فكان عندهم خمس سنين، ثم ردّوه عليها فأخرجته أمه إلى أخواله بالمدينة بعد سنة، فتوفيت بالأبواء وردته أم أيمن حاضنته إلى مكة، وخرج مع أبي طالب إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وشهد الفجار وهو ابن عشرين سنة، وخرج إلى الشام في تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وتزوجها بعد ذلك بشهرين وأيام، وبنيت الكعبة ورضيت قريش بحكمه (ص) وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وبُعث ﷺ وهو ابن أربعين سنة، وتوفي عمه أبو طالب وهو - ﷺ - قد قارب الخمسين، وتوفيت خديجة بعده بثلاثة أيام، ثم خرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة بعد ثلاثة أشهر من موت خديجة، ثم رجع إلى مكة وأُسْرِيَ به إلى بيت المقدس بعد سنة ونصف من رجوعه إلى مكة، ثم هاجر ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة ومولى أبي بكر وعبد الله بن أريقط، وخلف أمير المؤمنين (ع) بمكة على ودائع للناس كانت عنده حتى أذاها ثم لحق به، وكانت هجرته - ﷺ - وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، ودخل المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وكان التاريخ من ذلك ثم ردّ إلى المحرم»^(١).

٢ - «أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أمه ربيعة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار

(١) عنوان المعارف - نفائس المخطوطات: ٧/١ - ٨.

الحارثية، ببيع له في شهر ربيع الأول، وقيل الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكانت مدة بقاء الأمر له أربع سنين وعشرة أشهر. توفي في شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأنبار، وصلى عليه عيسى بن علي، وكان اشترى بردة النبي (ص) بأربعمائة دينار، ووزيره أبو سلمة الخلال؛ وفيه يقول الشاعر:

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشنك كان وزيراً
وبعده خالد بن برمك، وكاتبه أبو الجهم بن عطية، وحاجبه خالد بن الهيثم مولاه، ونقش خاتمه: (الله ثقة عبد الله وبه يؤمن) وقاضيه يحيى بن سعيد الأنصاري^(١).

٣ - «خاف [عبد العظيم الحسيني] من السلطان فطاف البلدان على أنه فيج، ثم ورد الريّ وسكن بسريان في دار رجل من الشيعة في سكة الوالي، وكان يعبد الله عزوجل في ذلك السريان، يصوم النهار ويقوم الليل، ويخرج مستتراً فيزور القبر الذي يقابل الآن قبره وبينهما الطريق، ويقول: هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليهما السلام، وكان يقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من الشيعة حتى عرفه أكثرهم، فرأى رجل من الشيعة في المنام كأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن رجلاً من ولدي يُحمل غداً من سكة الموالي فيدفن عند شجرة التفاح في (باغ) عبد الجبار بن عبد الوهاب، فذهب الرجل ليشتري الشجرة، وكان صاحب (الباغ) رأى رؤيا في ذلك، فجعل موضع الشجرة مع جميع (الباغ) وقفاً على أهل الشرف والتشيع يدفنون فيه، فمرض عبد العظيم - رحمة الله عليه - ومات، فحمل في ذلك اليوم إلى حيث المشهد^(٢).

(١) نفس المصدر: ٢٣/١ - ٢٤.

(٢) أخبار عبد العظيم - نفائس المخطوطات: ١٩/٤ - ٢٠.

الطب:

يقول الثعالبي:

«سمعت أبا جعفر الطبري الطبيب المعروف بالبلاذري يقول: إنَّ للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادوا عليها، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه، فاستغربت واستبعدت ما حكاها عن تطبُّب للصاحب، ونسبته في نفسي إلى التزيُّد والتكثُر، إلى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوَّبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر، ووجدتها تجمع إلى ملاحاة البلاغة ورشاقة العبارة حسنَ التصرف في لطائف الطب وخصائصه، وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه»^(١).

ويقول ابن أبي أصيبعة:

«طلب الصاحب من جبرئيل بن عبيدالله بن بختيشوع أن يعمل له رسالة في الطب يذكر فيها الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم، فعمل رسالة صغيرة قصرها على ذكر ما طلب منه وقدمها للصاحب، فوصله بما قيمته ألف دينار...، ولما عاد إلى بغداد... أقام مشغلاً بالتصنيف، فتم كناشه الكبير وسمَّاه بالكافي بلقب الصاحب بن عبَّاد لمحَبَّته له»^(٢).

كما ألف جبرئيل للصاحب أيضاً مقالةً في أن أفضل اسطقسات البدن هو الدم^(٣).

(١) يتيمة الدهر: ٣/١٨٠.

(٢) عيون الأنباء: ١/١٤٦.

(٣) نفس المصدر: ١/١٤٨.

وهكذا نجد الصاحب مهتماً كل الاهتمام بدراسة علم الطب وفهمه، والاطلاع على دقائقه وفروعه، وسواءً كانت رسالته التي ذكرها الثعالبي بتلك الدرجة من العمق والدقة وسعة الاطلاع أو لم تكن، فإنها تدلنا على وقوف الصاحب وقراءته لكتب جالينوس وأبقراط والأفروديسي، وفهم آرائهم ونظرياتهم العلميّة. ومن شواهد ذلك قوله في هذه الرسالة:

«وعجب مولاي من تكرّره شمّ الفواكه، ولا عجب إذا عُرف السبب، فإن العفونة التي في العروق قد طبقت روائح آلات الشم، فما يصل إليها من الروائح الزكيّة يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتتكرّرها ولا تقبلها، وتأبأها ولا تؤثرها، وهذا قياس بيّن على ما كشفه الأفروديسي».

ثم يقول الصاحب في أواخر الرسالة:

«وجالينوس شرط في العلاجات أجمع استحفاظ القوي، لأنّ الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر، إلّا أن ذلك بإزاء ما قال الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم: إنك متى زدته غذاءاً زدته شراً، وهو نفسه يقول: إن الحمية التي في نهاية الدقة ليست بمحمودة، والطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان»^(١).



مؤلفاته

سجّل بعض المؤرخين^(١) للصاحب (١٨) مؤلفاً في شتى فروع العلم والأدب والثقافة الإسلامية، كما ارتفع هذا العدد في مؤلفات بعض المتأخرين حتى بلغ (٣٠)^(٢) و(٣١)^(٣) و(٣٧)^(٤).

ومهما كان عدد هذه المؤلفات كثرةً أو قلةً؛ فإنها لتدل على وجود رغبة كبيرة في نفس الصاحب تحفزه على التأليف والتصنيف، وتبعثه على أن يتحلل من أعباء الحكم وواجبات الوزارة في كثيرٍ من الأحيان ليؤدي حق هذه الرغبة، ويشبع نهمها؛ ويحقق لها ما تريد، فكان من نتيجة ذلك كله: هذه المؤلفات التي بحث فيها الصاحب أكثر المواضيع التي تمكن من دراستها وفهمها، وعرف من نفسه إتقانها؛ والمقدرة على البحث فيها، والتدقيق في شؤونها.

وفي هذا الفصل حاولت أن أعرض لمؤلفات الصاحب بكثيرٍ من التفصيل والشرح والتحقيق، فأشرت إلى طبع المطبوع منها، وأماكن وجود المخطوط منها، ومواضع النقل عنها في كتب الأدب والتاريخ، وشرحت فكرة كل كتاب من الكتب الموجودة، مع تسجيل عدد

(١) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦، وهديّة العارفين: ٢٠٩/١.

(٢) أعيان الشيعة: ٤٢٧/١١ - ٤٣١.

(٣) الغدير: ٤١/٤ - ٤٢.

(٤) مقدمة الهداية والضلالة: ٢٠ - ٢٢.

صفحاته، وحاولت تحديد تاريخ تأليفه إذا عثرت على ما ينير السبيل إليه، كما رويت أيضاً بعض نصوصه وما جاء في أوله وآخره، لأعطي القارئ صورة موجزة كافية عن كل كتاب من هذه الكتب القيمة.

وبالنظر إلى عدم العثور على كل مؤلفات الصاحب؛ بل إلى فقدان بعض منها خلال النكبات التي مني بها العلم والأمة العربية فيما سلف من الأيام، فقد قسّمتُ هذه المؤلفات إلى ثلاث قوائم تشمل مؤلفات الصاحب الموجودة حالياً، ومؤلفاته التي احتفظت المصادر الأدبية ببعض نصوصها، ومؤلفاته التي فقدت أو انطوت في زوايا لا يصل إليها النور.



مؤلفات صاحب الموجدوة

الإبانة:

أسماها بعض متأخري المؤرخين: «الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل»^(١)، وأسماها السيد الصدر: «الإبانة عن الإمامة»^(٢)، وفي كتاب بروكلمان: إنها «الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج من القرآن والعقل»، وإن نسخة منها في مكتبة الميرزا محمد الطهراني بسامراء^(٣).

وورد اسم هذه الرسالة في مقدمتها حيث قال صاحب: «هذا مختصر في الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل».

ولم أعر في الكتب القديمة على ذكر لاسم هذه الرسالة أو نقل عنها، ولكن أسلوبها في العرض والبحث مشابه لأسلوب صاحب في بقية كتبه ومؤلفاته، كما أن كثيراً من آرائها لا يختلف عن آراء صاحب فيما ثبتت نسبته إليه من مصنفاته، وأما حصر الرسالة بموضوع الإمامة كما ورد في تأسيس الشيعة فلم أجد له ما يؤيده، لأن بحثها شامل

(١) الذريعة: ٥٧/١، والغدير: ٤٢/٤.

(٢) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ١٦١.

(٣) تاريخ الأدب العربي: ١٣٦/١، ومثله في أعيان الشيعة: ٤٣٠/١١.

لجميع مباحث أصول الدين الإسلامي، والتعرض للإمامة في آخرها بسيط مختصر لا يستدعي تسمية الرسالة به، بل أن أكثر فصولها منصب على أسماء الله تعالى وصفاته وأقوال الفرق الإسلامية المختلفة بهذا الشأن، الأمر الذي حداني إلى احتمال أن يكون كتاب «الإبانة» هو كتاب «أسماء الله وصفاته» الذي ذكره الأقدمون في قائمة مؤلفات ابن عباد؛ وإلى احتمال أن تكون تسمية الرسالة بالإبانة مستحدثة مقتبسة من مقدمتها التي مرّ نقلها آنفاً.

والرسالة مطبوعة في عام ١٣٧٢هـ في النجف الأشرف في (٢٠) صفحة من صفحات المجموعة الأولى من «نفاث المخطوطات»، وتضم مكتبة المرحوم الشيخ الهادي كاشف الغطاء أقدم نسخة عثرت عليها من هذه الرسالة، حيث تمّ نسخها في عام (١٠٦٠هـ).

أما تاريخ تأليفها فلم يرد ذكره في الرسالة كما لم يرد ذكره في كتب التاريخ، ولكنني - بعد الاطلاع على رأي الصاحب في مسألة الإمامة في هذه الرسالة؛ ومقارنته برأيه فيها كما ورد في شعره الذي نظمه في أواسط عمره وأواخره -؛ أرجح أن تكون من أولى مؤلفاته التي كتبها في صدر شبابه ومبدأ عهده بالبحث والتأليف^(١).

عرض الصاحب في هذه الرسالة لأراء خصومه في الشؤون الكلامية، وكرّر عليها بالمناقشة والنقض بالأدلة العقلية الراجحة لديه، ثم أردف كل دليل منها بآية أو آيات من القرآن الكريم تسند ما ذهب إليه.

يبدأ الصاحب رسالته بقوله:

«هذا مختصر في الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل، والله نستهدي ونستكفي، وإليه نفرع ونلتجى.

(١) يراجع في تفصيل ذلك ص ٨٨ - ٩٠ من هذا الكتاب.

زعمت الدهرية: إن الأجسام التي نشاهدها قديمة، وقالت الموحدة: هي محدثة لأن الإمارات التي فيها من التحول والتنقل والتبدل والاجتماع والافتراق إمارات الحدوث لا القِدَم، ألا ترى أن اجتماعها يحدث فيبطل افتراقها، فإذا كانت لا تنفك من الحوادث فهي مُحدثة؛ لأنها لم تتقدمها في الوجود، وقد علمنا أن النطفة لو وضعت بين يدي العالم لَمَا قدرُوا أن يخلقوا منها ذبابة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْذَّيْبُكَ تَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، ووجدناها خُلِقَ منها بشر سوي فعلمنا أنه حادث أحدثه قادر لا يشبهه القادرون^(١).

ومما أورده الصاحب في هذه الرسالة قوله في مناقشة المجبرة:

«زعمت المجبرة القدرية أن الله يضل أكثر عبّاده عن دينه، فإنه ما هدى أحداً من العصاة إلى ما أمرهم به؛ وأن الأنبياء (ع) أراد الله بيعتهم الزيادة في عمى الكافرين، وقالت العدلية: الله لا يضل عن دينه أحداً، ولم يمنع أحداً الهدى الذي هو الدلالة، ومن لم يهتد فبسوء اختياره غوى. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، على أنا نقول: إن الله يضل من يشاء ويهدي، وإنه يضل الظالمين عن ثوابه وجنانه، وذلك جزاء على سيئاتهم؛ وعقاب على جرمهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فأما الضلال عن الدين فهو فعل شياطين الجن والإنس، ألا ترى أن الله تعالى ذمّ عليهم فقال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾^(٢).

وفي ختام الرسالة يقول:

«وأما من نابذ علياً (ع) وحاربه، وشهر سيفه في وجهه، فخارج

(١) الإبانة - نفائس المخطوطات: ٩/١.

(٢) نفس المصدر: ٢١/١ - ٢٢.

عن ولاية الله، إلا من تاب بعد ذلك وأصلح، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»^(١).

٢ الإقناع:

ذكر هذا الكتاب في كثير من المصادر باسم: «الإقناع في العروض»^(٢)، كما ذكر باسم: «العروض» في مصادر أخرى^(٣)، وأسماء بروكلمان^(٤): «الإقناع في العروض وتخريج القوافي»، وذكر ياقوت في مؤلفات الصاحب: كتاب العروض الكافي وكتاب نقض العروض^(٥)، وفي الصفحة الأولى من مخطوط هذا الكتاب الذي تم نسخه في عام ٥٥٩هـ سمي باسم: «الإقناع في العروض وتخريج القوافي»، وأظن أن بروكلمان قد استند إلى هذا المخطوط في تسمية الكتاب بالاسم الذي مرَّ ذكره.

أما سبب تسميته باسم: «العروض» في بعض المراجع فأظن أنها مقتبسة من موضوع بحث الكتاب، أو إنها مستقاة مما جاء في آخر بحث العروض إذ يقول الصاحب: «نجز العروض بحمد الله والمنّة»^(٦)، ثم يبدأ بعد ذلك بمبحث تخريج القوافي.

عثرت من هذا الكتاب على نسختين مخطوطتين كتبت أولاهما

(١) نفس المصدر: ٢٨/١.

(٢) كشف الظنون: ١٤٠/١، وهدية العارفين: ٢٠٩/١، وأعيان الشيعة: ٤٢٩/١١، والذريعة: ٢٧٥/٢، والغدير: ٤١/٤.

(٣) نزهة الألباء: ٣٩٩، وأنباء الرواة: ٢٠٣/١، وروضات الجنات: ١٠٦.

(٤) تاريخ الأدب العربي: ١٣٦/١.

(٥) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٦) الإقناع: ٣٨/أ. نسخة مصورة بمكتبة الإمام الحسن العامة.

بخط حديث واضح في رابع شهر شوال من عام ١٣٠٣هـ في «٤١» ورقة، وتحفظ مكتبة الإمام الحسن العامة بنسخة مصورة منها عن نسختها الأصلية المحفوظة بمصر، أما ثانيتهما فقد كتبت بخط نسخ قديم في سلخ شهر رجب من عام ٥٥٩هـ في «٧٥» صفحة، وجاء في الصفحة الأولى منها ما نصه: «صاحبه كاتبه محمد بن تركانشاه»، وتحفظ مكتبتي الخاصة بنسخة مصورة منها عن أصلها المحفوظ في باريس.

قسّم صاحب الكتاب إلى مقدمة وأبواب وخاتمة، فبحث في المقدمة تعريف العروض وفائدته وانقسام الشعر إلى سبب ووتد وفاصلة، ثم انقسام كل واحد من هذه الأسباب إلى فروع وأقسام، ثم ذكر ما يستتبع ذلك بنحو موجز، وأردف هذا البحث بتفصيل أبواب العروض على النحو التالي:

- ١ - باب الطويل: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٢ - باب المديد: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٣ - باب البسيط: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٤ - باب الوافر: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٥ - باب الكامل: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٦ - باب الهزج: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٧ - باب الرجز: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٨ - باب الرمل: أصله وعروضه وأضرابه.
- ٩ - باب السريع: أصله وعروضه وأضرابه.
- ١٠ - باب المنسرح: أصله وعروضه وأضرابه.

- ١١ - باب الخفيف: أصله وعروضه وأضربه.
 ١٢ - باب المضارع: أصله وعروضه وأضربه.
 ١٣ - باب المقتضب: أصله وعروضه وأضربه.
 ١٤ - باب المجتث: أصله وعروضه وأضربه.
 ١٥ - باب المتقارب: أصله وعروضه وأضربه.
 ١٦ - باب الخرم والخزم:

ثم الخاتمة في تخريج القوافي.

افتتح الصاحب الكتاب بقوله:

«العروض ميزان الشعر بها يعرف مكسوره من موزونه، كما أن النحو معيار الكلام به يعرف معربه من ملحونه، والشعر مبني على سبب ووتد وفاصلة»^(١).

وجاء في ختام الكتاب قوله:

«الحروف في القافية خمسة: التأسيس، والردف، وحرف الروي، والوصل والخروج. الحركات ست: الرس، والإشباع، والحذو، والتوجيه، والمجرى، والنفاذ. والهاء إذا كان ما قبلها ساكناً لم تكن وصلاً؛ كقول الشاعر:

له كَمَّان كَفُّ كَفُّ ضِرِّ وكفُّ فواضِلِ خضِلِ نداها»^(٢)

ومن نماذج مباحث الكتاب ما جاء في مبحث تخريج القوافي:

(١) الاقناع: ورقة ١/أ.

(٢) نفس المصدر: ورقة ٤١/ب.

«حرف الروي: الحرف الذي يبني عليه الشاعر قصيدته، ولا بدّ لشعرٍ منه؛ مثل اللام من حومل، وحركته إذا كان متحركاً: المجرى.

الردف: كل ألف أو واو أو ياء تكون قبل حرف الروي بلا فصل، مثل ألف حال وواو غفور وياء نصير، وحركة ما قبل الردف: الحذو، والواو والياء يشتركان في قصيدة واحدة ردفًا، والألف تنفرد.

التأسيس: كل ألف يدخل بينها وبين حرف الروي حرف لا يجب تكريره بعينه؛ مثل ناصب وكواكب، وحركة ما قبل التأسيس: الرس، والحرف الذي يدخل بينهما فلا يجب تكريره يسمّى: الدخيل، وحركته الإشباع.

الوصل - ويقال له الصلة - : كل ألف أو ياء أو واو أو هاء تكون بعد حرف الروي فلا فصل؛ مثل ياء حوملي وواو حوملو وألف حوملا وهاء حوملة، والهاء التي هي هاء الصلة تكون موقوفة وتكون متحركة؛ مثل حوملها أو حوملهو أو حوملهي، فحركة الهاء: النفاذ.

الخروج: كل ألف أو واو أو ياء تكون بعد الصلة المتحركة؛ مثل ألف إجمالها الأخيرة وواو إجمالها وياء إجماليها^(١).

ومن نماذج مباحث الكتاب أيضاً ما جاء في الكلام عن باب الوافر:

«أصله مفاعلتن ست مرات، وله عروضان وثلاثة أضرب:

البيت الأول:

عروضه مقطوفة وضربه مقطوف، والمقطوف: ما سقط من آخره

(١) الاقتناع: ٣٨ - ٣٩.

زنة سبب خفيف بعد سكون خامسه، كان أصله مفاعلتن فسكنت لأمه
فصار مفاعلتن؛ فنقل إلى مفاعيلن وحذف منه لن فبقي مفاعي فنقل إلى
فعولن؛ وهو:

لنا غنم نسوقها غزار كأن قرون جلَّتْها العصيُّ
تقطيعه:

لنا غنمُنْ نَسَووقُها غزارُنْ كأننقرو نَجَلَّتْهَلْ عِصِيُؤْ
مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن
البيت الثاني:

عروضه مجزوءة وضربه مجزوء؛ وهو:

لقد علمت ربيعة أن ... حبلك واهن خلق
تقطيعه:

لقد علمت ربيعتُأن نَحَبَلْكَوا هِنُنْخَلِقُؤْ
مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن
البيت الثالث:

عروضه مجزوءة، وضربه مجزوء معصوب، والمعصوب: ما سكن
خامسه كان أصله مفاعلتن فسكنت لأمه ونقل إلى مفاعيلن؛ وهو:

أعاتبها وأمرها فتغضبني وتعصيني
تقطيعه:

أعاتبها وأمرها فتغضبني وتعصيني
مفالتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

زحافه

يجوز في كل مفاعلتن إلا التي في ضرب البيت الثاني أن يسكن خامسه، فينقل إلى مفاعيلن ويسمى: معصوباً، ويجوز إذا صار مفاعيلن أن يحذف ياؤه فيبقى مفاعلن ويسمى: معقولاً؛ والمعقول ما سقط خامسه بعد سكونه، ويجوز أن يحذف نونه فيبقى مفاعيلن ويسمى: منقوصاً؛ والمنقوص ما سقط سابعه بعد سكون خامسه؛ ويجوز فيه الخرم، فإذا خُرم مفاعلتن بقي فاعلتن فينقل إلى مفتعلن ويسمى: أعضب، وإن خُرم وقد صار مفاعيلن في فاعيلن فينقل إلى فعولن ويسمى: أقصم، فإن خُرم وقد صار مفاعيلن بقي فاعيلن فينقل إلى مفعولن ويسمى: أعقص، فإن خُرم وقد صار مفاعلن بقي فاعلن ويسمى أجم^(١).

٣

 الأمثال السائرة:

ذكرها بروكلمان^(٢) باسم «الأمثال السائرة من شعر المتنبي»؛ وأشار إلى وجود نسخة خطية منها في مصر، وبهذا الاسم أسماها بعض المتأخرين الذين ترجموا للصاحب وسجلوا قائمة مؤلفاته^(٣)، كما أسماها بهذا الاسم أيضاً ناسخ النسخة الخطية والأستاذ امتياز علي عرشي الرامبوري^(٤)، وذكرها الزركلي فقال: «قد جمع الصاحب بن عبّاد لفخر الدولة نخبة من أمثال المتنبي وحكمه»^(٥)، ولم يسجل للرسالة اسماً معيناً.

(١) الاقناع: ورقة ١١/أ وب - ١٢/أ.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ١/١٣٦.

(٣) مقدمة الهداية والضلالة: ٢٢، ومجلة ثقافة الهند: مجلد ٤ عدد ٤ ص ٤٧.

(٤) ثقافة الهند: العدد الأول من المجلد الخامس: ١٤.

(٥) الأعلام: ١/٧٦.

وقفّت هذه الرسالة للنشر أربع مرّات .

(أولها): في كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع للسيد علي خان المشتهر بابن معصوم المدني المتوفى عام (١١١٨هـ)، ويقول السيد علي خان في التقديم لها:

«مدار الناس الآن على أمثال أبي الطيب المتنبّي دون غيرها غالباً، وقد جمع منها ابن حجة في شرح بديعته جملةً حسنة، ولكنني وقفّت للصاحب كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد رحمه الله تعالى على رسالة جمع فيها أمثال أبي الطيب السائرة لمخدومه فخر الدولة، ووجد بخط فخر الدولة على نسخة الأصل علامات على رؤوس بعض الأبيات، وهي علامات ما اختاره من الأمثال، وقد رأيت أن أثبت الرسالة المذكورة بعينها؛ وأثبت العلامات المزبورة لفخر الدولة - وهي خاء معجمة - علامة الانتخاب، وإنما نقلتها على ما هي عليه تعجباً من جودة نقده ودلالة على أنه اختيار الملوك وذوي الهمم العالية»^(١).

ولعلّ تسمية الرسالة باسم: «الأمثال السائرة» مأخوذة من تعبير السيد علي خان إذ يقول: «جمع فيها أمثال أبي الطيب السائرة»، ثم نفهم من مجموع كلامه أنه اطلع على نسخة الأصل المخطوطة في حياة الصاحب نفسه، وقد جاءت فيها علامات فخر الدولة التي وضعها بقلمه على بعض أبيات الرسالة.

(ثانيها): في المجلد السابع والعشرين من مجلة المقتطف؛ في ص ٩٥٣ - ٩٦٠ من العدد العاشر وص ١٠٥٠ - ١٠٥٦ من العدد الحادي عشر، من دون أي إشارة إلى المصدر الذي نقلت عنه الرسالة، وقالت المجلة في التقديم لها ما نصه:

(١) أنوار الربيع: ١٦٨.

«أمثال المتنبّي؛ جمعها الصاحب بن عبّاد لفخر الدولة، ويليق بكل طالب أن يكثر من تلاوة هذه الأبيات حتى يستظهرها، ويصير قادراً على استحضارها»^(١).

(ثالثها): في رسالة مستقلة طبعت ببيروت عام ١٩٥٠م باسم: «أمثال المتنبّي»، وإذا كنت لم اطلع على نسخة منها رغم فحصي البالغ فإنني أعتقد أنها منقولة عن مجلة المقتطف الأنفة الذكر، بدليل اتفاقهما في تسمية الرسالة بـ«أمثال المتنبّي».

(رابعها): في مجلة ثقافة الهند - مجلد ٥ عدد ١^(٢) -، وقد ذكر ناشرها السيد امتياز علي بأنه نقلها عن نسخة مخطوطة من كتاب أنوار الربيع.

وقد عثرت - بالإضافة إلى هذه النسخ المطبوعة - على نسخة خطية صورتها مكتبة الإمام الحسن العامة عن نسخة مصر، وهي في ١٦ صفحة من الحجم الكبير (فولسكاب)، وقد كتبت بخط نسخ حديث لا يتعدى هذا القرن، وليس في آخرها ذكر لاسم الناسخ أو لسنة النسخ.

ويفيدنا قول الصاحب في مقدمة هذه الرسالة من أنه ألفها للأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة إنها كانت من أواخر مؤلفاته أو آخرها على وجه الضبط، فهي قد ألفت بعد عام ٣٧٢هـ الذي أصبح فيه فخر الدولة أميراً سيداً شاهنشاهاً، وليس لدينا من كتب الصاحب ما عُلم تأليفه بعد هذا الدور.

وقبل أن أنتقل من هذا الموضوع أود أن أشير إلى أن الدكتور محمد

(١) المقتطف: مج ٢٧ ص ٩٥٣.

(٢) من ص ١٤ - إلى - ٤٤.

مندور قد أظهر الشك في نسبة هذه الرسالة للصاحب، وقد ذكرنا - فيما سبق من فصول الكتاب - دليل شكه ومناقشة هذا الدليل فلا نعيد^(١).

يبدأ الصاحب رسالته بقوله:

«الحمد لله الذي ضرب الأمثال للناس؛ لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، وصلى الله على أفصح العرب، وسرّ عبد المطلب، صلى الله عليه وعلى آله أخيار الأمم، وأنوار الظلم.

كم مثلٍ ضرب فيه الحجة البالغة، والحكمة الواضحة، ثم أن الله تعالى قد أحياي بالأمير السيد الشانشاه فخر الدولة وملك الأمة - أطال الله بقاء، ونصر لواء - دائر العلوم والآداب، وأقام برأيه ورايته أسواقهما وكانت^(٢) في يد الكساد بل الذهاب، فهو يقدم على المعرفة، ويقرب على التبصرة، لا كالمملوك الذين يقال لهم:

دع المكارم لا تنهض لبغيتهما واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ومن نعم الله - تعالى - عليه؛ أدام الله النعم لديه، إن الله قرن ألفاظه بفصل المقال، ورشح كلامه بضرب الأمثال، وسمعه - أعزّ الله نصره - يتمثل كثيراً بفصوص من شعر المتنبي هي لب اللب... فأمليت ما صدر عن ديوانه من مثل رائع^(٣) في فنه، بارع في معناه ولفظه، ليكون تذكراً في المجلس العالي^(٤).

ويختم الصاحب رسالته بهذه الآيات:

(١) تراجع ص ١٨٢ - ١٨٣ من هذا الكتاب.

(٢) في الأصل المخطوط: وإن كانت.

(٣) في الأصل المخطوط وفي ثقافة الهند: واقع، وهو تصحيف واضح.

(٤) الأمثال السائرة: ٢. مخطوط مصور بمكتبة الإمام الحسن العامة.

إن النفسوس عدد الآجالِ

وربَّ قبح وحلىّ ثقالِ أحسن منها الحسن في المعطالِ
فخر الفتى بالنفس والأفعالِ من قبله بالعم والأحوالِ^(١)

ومما اختاره في أثنائها من شعر المتنبي هذه الأبيات:

وإذا الشيخ قال أفٍ فما مـ لَ حياة وإنما الضعف ملاً
آلة العيش صحة وشباب فإذا ولياً عن المرء ولى
أبدأ تستردُّ ما تهب الدنـ يا فيا ليت جودها كان بخلا
وهي معشوقة على الغدر لا تحـ فظ عهداً ولا تتمّ وصلا
كل دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تُخلى^(٢)

٤ التذكرة:

ورد ذكرها مكرراً في كتب الباحثين المتأخرين^(٣)، ولكني لم أجد لها ذكراً في كتب المتقدمين إلا عند ابن شهر آشوب^(٤) فقط.

نشرت الرسالة أخيراً ضمن المجموعة الثانية من «نفائس المخطوطات» في عام (١٣٧٣هـ) في (٩) صفحات، وكانت النسخة التي طبعت عليها التذكرة متنسخة بدورها عن نسخة قديمة يرجع تاريخها إلى عام (٨١٣هـ) حسبما يذكر ناسخها في آخر الرسالة^(٥)، ولكني لم أعثر - مع الأسف - على نسخة الأصل بالرغم من شدة الفحص عنها، ويذكر

(١) نفس المصدر: ١٦.

(٢) نفس المصدر: ٩.

(٣) روضات الجنات: ١٠٦، وأعيان الشيعة: ٤٢٩/١١، والزريعة: ٢١/٤، والغدير: ٤١/٤.

(٤) معالم العلماء: ٨.

(٥) نفائس المخطوطات: ٨٦/٢.

الشيخ الطهراني أنه رأى نسخة منها بخط الشيخ شرف الدين المازندراني تاريخ كتابتها سنة (١٠٥٥هـ)^(١)، ولست أدري أين تحل هذه النسخة الآن؟

لم يرد في الكتاب ما يشعر بتاريخ تأليفه، ولكنني أعتقد أنه من إنتاج الصاحب الشاب يوم كان مأخوذاً بالاعتزال والدعوة إليه، منغمساً في ذلك كل الانغماس، فقد قسم أصول الدين على طريقة المعتزلة، وبحثها بحثاً اعتزالياً صرفاً، ولدى مقارنة هذه الرسالة بالإبانة التي مرت الإشارة إليها أستطيع أن أقول أنها متأخرة عن الإبانة في تاريخ التأليف لأن رأيها في الإمامة متدرج نحو التشيع ومنساق إليه، وإن تشابهت الرسالتان كثيراً في أسلوب البحث وسرد الأدلة وطريقة التفكير والمناقشة.

يبدوها الصاحب بقوله:

«الأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والصدق في الوعد والوعيد، والتمتزة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فصُ المقالة النظر، لأن بالتدبر والتميز يعرف الصحيح من السقيم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، وقال عز وجل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾، والتقليد فاسد، لأنه يوجب أن يعذر الله جميع المبطلين الذين قلدوا آباءهم الظالمين»^(٢).

ويختتم الصاحب كتابه بقوله:

«وخيرة الناس بعده من اختاره لأخوته علي بن أبي طالب (ع)،

(١) الذريعة: ٢٢/٤.

(٢) نفائس المخطوطات ٨٧/٢.

لا اجتماع الجهاد والعز والعلم والزهد والسابقة فيه، وهذه الخصال متفرقة في غيره، قال عزوجل: ﴿وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ * أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَعَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَعِيدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١).

ومن نماذج بحوث الكتاب قول الصاحب في العدل:

«نقول: الخير والشر من عند الله، ونريد به الحياة والموت؛ والغنى والفقر؛ والعافية والسقم؛ والخصب والجذب، فأما القبائح والفضائح فلا تكون من أحكم الحكماء.

ونقول: حسناتنا من الله؛ ليس بمعنى أنه قطعها، ولكن أعان عليها، وهدى إليها، وأمر بها، وأراد فعلها، كما يقول الإنسان للعالم الذي أخذ عنه: جميع ما أحسنه منك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ونقول: سيئاتنا من الشيطان؛ ليس بمعنى أنه فعلها، ولكن وسوس بها وحسنها وزينها ودعا إليها، كما قال عزوجل: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالًا هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾^(٢).

٥ ديوان شعره:

أشار إليه أكثر المؤرخين من قدماء ومحدثين^(٣)، وفي بروكلمان:

(١) نفس المصدر: ٩٥/٢.

(٢) نفائس المخطوطات: ٩٢/٢.

(٣) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦، وأنباء الرواة: ٢٠٣/١، ومعالم العلماء: ٨، وبغية الرعاة: ١٩٧، وكشف الظنون: ٧٩٦/١، وهدية العارفين: ٢٠٩/١، وتأسيس الشيعة: ١٦١، والغدير: ٤١/٤.

إن منه نسختين بمكتبة أيا صوفيا بتركيا ونسخة بالهند^(١)، وذكر السيد محسن الأمين وجرجي زيدان: إن نسخة منه في مكتبة أيا صوفيا^(٢).

ولدى تصوير نسختي أيا صوفيا والاطلاع عليهما ظهر أنهما ديوان صاحبٍ آخر؛ هو الصاحب بن مكّانس، وإن مفهرس المكتبة لم يصدق في قراءة النسختين، فسجّل نسبتهما إلى إسماعيل بن عبّاد بمجرد رؤيته لاسم الصاحب، وتبعه في هذه النسبة المستندة إلى الخطأ كلٌّ من بروكلمان والأمين وزيدان.

أما نسخة الهند التي أشار إليها بروكلمان فقد وقفت على تصوير لها بمكتبة الإمام الحسن العامة في (٣٧) ورقة، فرأيتها لا تحوي كل شعر الصاحب، بل اقتصرت على خصوص شعره الديني المذهبي فقط، وهي منسوخة في شهر جمادى الآخرة سنة (١١٧٢هـ) بخط عبد الله بن إبراهيم بن إسماعيل بن القاسم ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين.

ورأيت في مكتبة العلامة الشيخ محمد علي اليعقوبي في النجف مجموعة جمع فيها المرحوم الشيخ محمد السماوي شعر الصاحب المدوّن في يتيمة الدهر ومناقب آل أبي طالب وبعض الكتب الأدبية المطبوعة، وكتبها بخطه في (٥١) صفحة، ويقول في التقديم لها:

«أما بعد: فهذه تقاصير من شعر الصاحب إسماعيل بن عبّاد جمعتها مرتباً على الحروف، لأن ديوانه لم أجده في العراق وطلبته من الهند فلم يتيسر لي - مع وجوده -، فأردت جمع ما في اليتيمة والمناقب

(١) تاريخ الأدب العربي: ١/١٣٦.

(٢) أعيان الشيعة: ١١/٤٣١، وتاريخ آداب اللغة العربية: ٢/٢٧٥.

وغيرهما منه، فرأيت السيد المحسن العاملي - أدام الله فضله - قد جمع ذلك في أعيان الشيعة فرتبته وزدته، وعسى الله أن يمن بباقيه»^(١).

وأظن أن نسخة الهند التي أشار إليها السماوي هي التي اطلعت على مصوّر لها في العراق - كما مر -، وإذن فهي النسخة الفريدة في العالم حسبما ترشدنا إليه فهارس المخطوطات وبحوث المعنيتين بهذه الشؤون.

يبدأ الديوان بهذه القصيدة:

«قال الصاحب الجليل كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد -

رحمه الله تعالى - في التوحيد:

وقد أنجدت غلوا فهل لك منجد
وكيف يزور الطيف من ليس يرقد
فغار بنار الوجد فهي توقد
تباعد بُعد النجم بل هي أبعد
وإن كرفيها الطرف در مبدد
تميل من سكراتها وتميد
ترنح عند المشي وهو مقيّد
فشوهد منه طرف باك مسهد
دنائر لكنّ السماء زبرجد»^(٢)

لقد رحلت سعدى فهل لك مسعد
لقد بت أرجو الطيف منها يزورني
وقد كان لي من مدمع العين منبع
رعيث بطرفي النجم لما رأيتها
تنير الشريا وهي قرط مسلسل
وتعترض الجوزاء وهي ككاعب
وتحسبها طورا أسير جناية
ولاح سهيل وهو للصبح راقب
أردد عيني في النجوم كأنها

وجاء في ختام الديوان:

«وقال أيضاً:

(١) شعر الصاحب: ٢. مخطوط بمكتبة اليعقوبي.

(٢) ديوان الصاحب: ٨/أ. مخطوط مصور بمكتبة الإمام الحسن العامة.

قالوا: خراسان أخرجت رشاً
فقلت: لا تنكروا محاسنه
ليس له في ملاحها ثاني
فمطلع الشمس من خراسان
إلى هذا المحل الذي وجدته منقولاً... وما سواه مما لحق من
شعر الصاحب فنقلته من خط بعض الشيعة... وقال أيضاً:

وشادن [جماله]
أهوى لتقبيل يدي
تقصر عنه صفتي
فقلت: قبّل شفتي
وقال في وصف الخمر:

رقّ الزجاج ورقت الخمر
فكأنما خمر ولا قدح
وتشابهاً فتشاكل الأمر
وكانما قدح ولا خمر
وقال أيضاً يرثي كبير بن أحمد الوزير:

يقولون لي: أودي كثير بن أحمد
فقلت: دعوني والعلا نبيك معاً
وذلك رزة في الأنام جليل
فمثل كثير في الرجال قليل

تمام هذا الديوان المبارك كان في ليلة الأحد ليلة رابع عشر من
شهر جمادى الآخر من شهور سنة اثنتين وسبعين ومائة بعد الألف من
هجرته النبوية صلوات الله عليه وعلى آله... إلخ^(١).

٦ رسائل الصاحب:

أسمائها بعض المؤرخين: «الكافي في الرسائل»^(٢)، وذكر ياقوت
في مؤلفات الصاحب: «ديوان رسائله عشرة مجلدات، وكتاب الكافي

(١) ديوان الصاحب: ٣٦ ب - ٣٧ أ.

(٢) الفهرست: ١٩٤، ووفيات الأعيان: ٢٠٨/١، وتاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢،
وشذرات الذهب: ١١٤/٣.

رسائل»^(١)، كما ذكر حاجي خليفة: «كافي الرسائل»^(٢)، ورسائل ابن عبّاد»^(٣)، كما ذكرها أيضاً لفيف آخر بأسماء مختلفة ترجع جميعها إلى معنى واحد^(٤).

قال حاجي خليفة: إن الرسائل مرتبة على خمسة عشر باباً^(٥)، وقال ياقوت: إنها عشرة مجلدات - كما مر -، وقال أبو حيان التوحيدي: إنها ثلاثون مجلدة^(٦)، وأظن أن رواية التوحيدي أرجح الروايات، لأنه اطلع على مكتبة الصاحب وطلب منه نسخ هذه المجلدات؛ فهو أعرف بها وبعدهد مجلداتها من غيره، كما أظن أن سائر ما ينسب لابن عبّاد من «منتخبات خطية»^(٧) و«فصول أدبية ومراسلات عبادية»^(٨) مقتبس كله من مجموع رسائله الذي ذكره أبو حيان التوحيدي.

والمؤسف أن تكون عهود نكبات العلم والثقافة في سالف الأيام قد أتلفت - فيما أتلفت - هذه المجلدات الثلاثين من رسائل ابن عبّاد، وتحفظ اليوم مكتبة باريس الوطنية بمجلد واحد من هذه المجلدات كتب عام (٥٧٧هـ)، وهو يحتوي على منتخبات من رسائل الصاحب أسماها

(١) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٢) كشف الظنون: ١٣٧٦/٢.

(٣) نفس المصدر: ٩٠١/١.

(٤) أنباء الرواة: ٢٠٣/١، وتاريخ ابن خلدون: ٤٦٦/٤، ونزهة الألباء: ٣٩٩، ومعاهد التنصيص: ١٥٧/٢، وبغية الوعاة: ١٩٧، وتأسيس الشيعة: ١٦١، وأعيان الشيعة: ٤٢٩/١١، والغدير: ٤١/٤.

(٥) كشف الظنون: ٩٠١/١.

(٦) معجم الأدباء: ٣٤/١٥.

(٧) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٧٥/٢.

(٨) مقدمة الهداية والضلالة: ٢٢.

بروكلمان: «المختار من رسائل الصاحب»^(١)، وقد طبعت هذه المنتخبات بمصر عام (١٣٦٦هـ) في (٢٤٥) صفحة؛ بتحقيق الأستاذين عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف.

جاء في أول الكتاب:

«ذَكَرْتُ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ - شَدِيدَ حِرْصِكَ عَلَيَّ تَحْفُظُ بَعْضَ رِسَائِلِ الصَّاحِبِ كَافِي الكِفَاةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَاحْتِيَاجِكَ عَلَيَّ مِنْ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَيَّ جَمَعَ ذَلِكَ مَبُوبًا، مَخْتَارًا الأَشْفَ فَلَأَشْفَ مِنْهُ. فَوَعَدْتِكَ القِيَامَ لَكَ بِهِ، وَجَرَّدْتُ لَهُ عَنَائِيتِي، وَخَرَّجْتُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ دِيْوَانِ رِسَائِلِهِ العَشْرِينَ عَشْرَ رِسَالَاتٍ لِيُخَفَّ حَجْمُ هَذَا المَجْمُوعِ وَلَا يَعْتَاصُ تَحْفُظَهُ. وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنْكَ مَوْضِعَ الوَفَاقِ، وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقِ وَالإِرْشَادِ»^(٢).

وفيما يلي فهرس أبواب الكتاب:

الباب الأول - في البشائر والفتوح.

الباب الثاني - في العهود.

الباب الثالث - في الأمان والأيمان والمواقفات والمناسير ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجري مجراه.

الباب الرابع - في أمر الحجيج والمصالح والشغور.

الباب الخامس - في الاستعطاف وما يجانسه.

الباب السادس - في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين العقوق بين ذوي الأرحام وما يشاكل ذلك.

(١) تاريخ الأدب العربي: ١٣٦/١.

(٢) رسائل الصاحب: ١.

- الباب السابع - في المدح والتعظيم .
- الباب الثامن - في الذم والتهجين وما يجري مجراه .
- الباب التاسع - في التهاني .
- الباب العاشر - في التعازي .
- الباب الحادي عشر - في الإخوانيات والمداعبات .
- الباب الثاني عشر - في التشكر .
- الباب الثالث عشر - في الاستزادة والتفريع .
- الباب الرابع عشر - في التنصل والاسترضاء .
- الباب الخامس عشر - في الشفاعات .
- الباب السادس عشر - في توصية العمال بتجلبُّ المال وإظهار العفاف وحسن السياسة .
- الباب السابع عشر - في الأدب والمواعظ .
- الباب الثامن عشر - في فصول وُغَرَّرَ وتوقيعات ودُرَّرَ .
- الباب التاسع عشر - في النوادر وهي الكتب النادرة .
- الباب العشرون - في الشوارد وهي الكتب المختلفة المعاني .
- وجاء في ختام الكتاب ما نصه :
- «وله :

كتابي ومولانا محبوبٌ من النعم بما يتجلى صنع الله فيه باهراً للعيون، محققاً للظنون، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتبي عن مولاي لكرور علل عليّ صارت حلفاً لازماً، وطبعاً ثانياً، حتى عادت الصحة كطارقٍ مستغرب، وطاريءٍ مستبدع،

وعولت في المهمات أجمع على ما ينهيه أبو فلان، فقد عرف في كل باب ما عرفته وعلم منه ما علمته، وقد نهض منذ أيام، والله ييسر المنائح...

وكان مولاي - أدام الله عزه - بشر بما تيسر في كذا، فابتسمت ثغور الأمل، وأذنت بنهاية المراد في أقرب أمد، لا زالت عزائم مولانا غنائم لأولياته، وصورم على أعدائه. وكتاب البشرى بغية الطرف ليجلوه، والروح ليغذوه.

آخر الباب العشرين، وبه تمام هذا المجموع من الديوان، والحمد لله حق حمده، والصلاة على النبي محمد وآله^(١).

٧ رسالة في أحوال عبد العظيم:

نشرت هذه الرسالة في المجموعة الرابعة من نفائس المخطوطات عام ١٣٧٤هـ في (٤) صفحات، وقلت في أثناء التقديم لها:

«المؤسف جداً أننا لم نشاهد ذكراً لاسم هذه الرسالة في كتب التاريخ والتراجم التقليدية كمعجم الأدياء وبيتمة الدهر ووفيات الأعيان وأمثالها^(٢)، ولكن لدينا من القرائن ما يبعث على الاطمئنان بصحة نسبتها، كقدم تاريخ كتابة النسخة الأم، وكاشتغال هذه الرسالة على الاهتمام بالعدل والتوحيد؛ وذكر ما روي عن عبد العظيم فيهما؛ ومدح المترجم له بكونه ممن يقول بهما، وهذا مشابه لنمط أسلوب الصاحب واهتمامه بهذين الأصلين من أصول الدين في سائر كتبه الكلامية.

(١) رسائل الصاحب: ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢) ورد ذكر هذه الرسالة في بعض الكتب المتأخرة كروضات الجنات: ١٠٧، وأعيان الشيعة: ٤٣٠/١١، والغدير: ٤٢/٤.

والنسخة التي طبعت عليها الرسالة مخطوطة عام (١٣٢٤هـ) في النجف الأشرف، وهي من نسخة - بدورها - عن نسخة المحدث المغفور له الميرزا حسين النوري... المخطوطة عام (٥١٦هـ) بخط بعض بني بابويه^(١).

بدأ صاحب هذه الرسالة بقوله:

«سألت عن نسب عبد العظيم الحسيني المدفون بالشجرة؛ صاحب المشهد - قدس الله روحه - وحاله واعتقاده، وقدر علمه وزهده، وأنا ذاكر ذلك على اختصار، وبالله التوفيق.

هو أبو القاسم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه وعلى آبائه السلام. ذو ورع ودين، عابد معروف بالأمانة وصدق اللهجة، عالم بأمور الدين، قائل بالتوحيد والعدل... إلخ»^(٢).

وجاء في ختام الرسالة:

«روى عبيد الله بن موسى، عن عبد العظيم، عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قال الرضا (ع): ثمانية أشياء لا تكون إلا بقضاء الله وقدره: النوم واليقظة، والقوة والضعف، والصحة والمرض، والموت والحياة.

ثبتنا الله بالقول الثابت من موالاة محمد وآله، وصلى الله على سيدنا رسوله محمد وآله أجمعين»^(٣).

(١) نفايس المخطوطات: ١٧/٤.

(٢) نفايس المخطوطات: ١٩/٤.

(٣) نفس المصدر: ٢٢/٤.

٨ رسالة في الطب:

لم أجد بين المؤرخين القدامى من ذكر هذه الرسالة غير الثعالبي صاحب اليتيمة، فقد أشار إليها، وأسمها بهذا الاسم، ونقلها نصاً في كتابه^(١)، وروى عن بعض معاصريه كثيراً من المدح والثناء عليها، ولم أكن لأفرد لها وأخصها بالذكر لولا اهتمام الثعالبي بها، وإكباره لما تضم من فوائد وتحوي من نكاتٍ ودقائق.

ووردت هذه الرسالة في كتاب «رسائل ابن عباد» على شكل رسالة مرسله منه إلى صديقه أبي العباس الضبيّ بمناسبة مرض ألمّ به، فاحتلت من الكتاب ما يزيد بقليل على صفتين.

بدأها الصاحب بقوله:

«وصل كتاب مولاي فلصق بيدي، وندي على كبدي، ولم أدر بماذا أنعته وقد ملئ قلبي وملاً صدري، وكيف أصفه وقد أمتع نفسي ورفع طرفي، وهل أقول نسيم الرياض تدرجت الشمال على أنوارها، وأغریت الصبا بإخراج أسرارها، أم أقول الحياة عادت في الجسد، والروح سرى في البدن، فله على كل مستحسن أنيق فضل، وعند كل حضارٍ سبق وخصل»^(٢).

ويقول في آخرها:

«أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء، وقد كتبت في كذا ما يغني اهتمام سيدي به عن ترديد ذكره:

وإذا رميت إلى ابن عزمٍ حاجةً فاعلم بأن جناحها يستيسر»^(٣)

(١) يتيمة الدهر: ٣/ ١٨٠ - ١٨٢.

(٢) رسائل الصاحب: ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) نفس المصدر: ٢٣٠.

رسالة في الهداية والضلالة:

٩

لم يذكرها أحد من المؤرخين، ولكنها ليست بحاجة إلى تأييد تاريخي في صحة انتسابها لمؤلفها، لأن نسختها الخطية منسوخة في حياة صاحب عام (٣٦٤هـ) ومزدانة بخطه، وقد كتب صاحب عليها ما نصه:

«بسمه تعالى. أنهاء أدام الله فضله، وكتب إسماعيل بن عبّاد. شهر رجل الفرد سنة ست وستين وثلاثمائة. الحمد لله وحده»^(١).

والنسخة محفوظة في خزانة كتب الوجيه مجيد موقر في طهران، وقد نشرت في عام ١٣٧٤هـ في (٢٠) صفحة، فكانت الكتاب الأول من منشورات «أنجمن فرهنگي مهر».

ومن الاطلاع على تاريخ نسخها عام (٣٦٤هـ) وتاريخ تعليق صاحب عليها عام (٣٦٦هـ) نستطيع أن نقول إنها من مؤلفاته في أواخر شبابه، ومنهجها في البحث والتفكير شبيه جداً بمنهج صاحب في الإبانة والتذكرة وغيرها من مؤلفاته الكلامية.

يبدأ صاحب كتابه بقوله:

«الحمد لله الواحد العدل فلا يجور فيما أنشأ وابتدع؛ الرحيم فلا ظلم فيما ابتدأ واخترع؛ الحكيم الذي لا باطل فيما قدّم وأخر؛ العليم فلا سَفَهَ فيما قضى وقدر، المنزه عن إضلال العبّاد عن الدين؛ وإغوائهم عن الحق المبين، الذي لا يدّخر عن عبّاده إحساناً، ولا يختزل دونهم إرشاداً وبياناً، المتعالي عن فعل القبائح وإرادة الفواحش والفضائح، وصلى الله على نبيه المبعوث لهداية الكأفة، المرسل بالرحمة والرأفة،

(١) رسالة في الهداية والضلالة: ٥٢.

وعلى أهل بيته نجوم الإسلام وشموس الإيمان، وسلّم تسليمًا.
 أمّا على أثر ذلك - أدام الله توفيقك لما يرضيه، ونزّهك عمّا يعتقد
 أبناء الإلحاد فيه - سألت أن أذكر لك جملة من الكلام في الهداية
 والضلال، يزداد بها نفاذ بصيرتك ونقاء سريرتك؛ في وصف الله - عزّ
 اسمه - بالعدل؛ وتنزيهه عما يحيله القدريّة من صريح الجور والظلم،
 فقد تقدم من كلام سلفنا في هذا الباب ما يغني... ونبتدىء القول
 فخذوه»^(١).

ويقول في ختام الرسالة:

«جعلنا الله ممن أقرّ بذنبه، ولا يحيل به على ربّه، وتوفّانا على
 القول بتوحيده، والإقرار بعدله، وموالاته نبيه محمد خير خلقه والنجوم
 الزاهرة من أهل بيته، صلى الله عليه وعليهم وسلّم تسليمًا»^(٢).
 ومن نماذج مباحث الكتاب قوله:

«فأما الختم والطبع والأغلال التي أخبر أنّها في الأعناق فعلى
 طريق التمثيل، كأنهم لما لم يستفهموا هذه الآيات شُبّهوا بمن ختم على
 حواسه وحيل بينه وبين رشاده. ألا ترى أنه قال: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عَمَى﴾،
 وليسوا في الحقيقة كذلك، لكنهم كانوا بهذه المثابة لما لم يعلموا هذه
 الأدوات في هذه الآيات.

والذي يدلُّ أنّ ذكر الأغلال والأقياد مجاز قول الأفوه الأودي:

كيف الرشاد وقد صرنا إلى نفرٍ لهم عن الحق أغلال وأقيادُ
 ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

(١) رسالة في الهداية والضلالة: ٣٤.

(٢) نفس المصدر: ٥١.

أَقْفَالُهَا» ، فلو أن على قلوبهم الأقفال - على الحقيقة - لكان في أعناقهم الأغلال على الحقيقة .

وقد أخبر الله تعالى بما هو أكثر من هذا في التمثيل فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقَوْمَ الدُّعَاءَ﴾ وهم لم يكونوا أمواتاً، ولكن في حكمها»^(١) .

عنوان المعارف:

١٠

ذكره ياقوت الحموي في معجمه باسم: «عنوان المعارف في التاريخ»^(٢)؛ فكان هو المؤرخ الوحيد الذي سجّل اسم الكتاب في قائمة مؤلفات ابن عبّاد، ثم كان المرحوم السيد محسن الأمين أول من كشف عنه النقاب، إذ عثر على نسخة خطية منه كتبت في شهر رجب سنة (٤٢٠هـ) أي بعد وفاة الصاحب بخمس وثلاثين سنة^(٣)، فكانت هذه النسخة بقدّم تاريخها وقرب عهدها من حياة مصنفها مصدراً كافياً لإثبات انتسابها للصاحب، كما كانت - في الوقت نفسه - أمّاً لسائر النسخ الخطية الموجودة اليوم .

طبع الكتاب ضمن المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات في النجف الأشرف سنة (١٣٧٢هـ) في (٢٩) صفحة، ويدور بحثه الموجز على تاريخ النبي (ص) ومَنْ خوطب بعده بالخلافة حتى المطيع العباسي، كما ذكر في آخر عرضه للأمويين تاريخ من بويع له بالخلافة في عهد بني أمية كالحسين بن علي، وابن الزبير، ومحمد بن الحنفية وغيرهم .

(١) الهداية والضلالة: ٤٦ .

(٢) معجم الأدباء: ٦/٢٦٠ .

(٣) أعيان الشيعة: ١١/٤٣٠ .

ويظهر من مقدمة الكتاب أن الصاحب قد ألّفه بطلبٍ من بعض أصدقائه من دون أن يذكر اسمه أو أية إشارة إليه، فلم أستطع معرفته كما لم أستطع معرفة تاريخ تأليفه؛ لعدم وجود أي قرينة تدل على ذلك. افتتح الصاحب مؤلفه بقوله:

«قد أسعفتك بالمجموع الذي التمسته؛ في نسب النبي صلى الله عليه وعلى آله؛ وبنيه وبناته، وأعمامه وعمّاته، وجمل من غزواته، وسائر ما يتصل بذلك من ذكر مولده ومدفنه وهجرته، وتسمية أفراسه ونوقه وسيفه ودرعه، وأتبع ذلك بذكر من خوطب بالخلافة على النسق، غير مرتّب للمفضول والفاضل والجائر والعاذل، إذ لو ابتدأت بأتم الخلفاء فضلاً، وأعدلهم عدلاً؛ لافتتحت بسيد المهاجرين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين، وذكرت عند انتهائي إلى كل منهم اسم أمه، ونبدأ من حاله، وأسماء خلفائه وكتّابه وحجّابه، ونقش خاتمه، بعد أن آثرت الاختصار الذي طلبته، والإيجاز الذي حاولته، ورُسمت هذا المختصر بـ عنوان المعارف وذكر الخلائف، - فإذا أنت حفظته أذاك ما بعده بشرح وإيضاح، وتلخيص وإفصاح، إن شاء الله»^(١).

وجاء في ختام الكتاب:

«المطيع بن المقتدر: أبو القاسم الفضل، أمه شعلة، بويح له يوم الخميس لثمانين بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة»^(٢).

ومن مباحث الكتاب قوله فيمن بويح بالخلافة في مدة بني أمية:

(١) عنوان المعارف - نفائس المخطوطات: ٥/١.

(٢) نفس المصدر: ٣٣/١.

«أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وهو إمام الحق بايع له أهل الكوفة على رأس تسع وخمسين سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام من الهجرة، وأخرج له يزيد من حاربه وقتله بالطف يوم عاشوراء سنة إحدى وستين من الهجرة، وكانت له سبع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تولى قتله وحرَّ رأسه سنان بن أنس لعنه الله.

عبد الله بن الزبير: أبو بكر. أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهو أول مولود ولد في الهجرة. هاجت فتنته بعد قتل الحسين (ع)، وحج بالناس سنة ستين ولم يُبايع له، ثم حج بهم سنة إحدى وستين، وبعث إليه يزيد بالجنود وحاربه، وكان يوم الحرة، وبايع الناس ابن الزبير سنة خمس وستين بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، وقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين.

أبو القاسم محمد بن أمير المؤمنين (ع)، وهو محمد بن الحنفية. خلع المختار بن أبي عبيدة ابن الزبير وبايع لمحمد (ع)، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن لعلي بن أبي طالب (ع) إن وُلد له ولد بعده أن يكنه بكنته ويسميه باسمه، ودفن بالقيع سنة إحدى وثمانين من الهجرة في ربيع الأول، وهو ابن خمس وستين سنة لم يُحسب كملها»^(١).

١١ الفرق بين الضاد والطاء:

لم أجد من المؤرخين في القديم والحديث مَنْ ذكر هذه الرسالة، ولكنني عثرت في مكتبة الإمام الحسن العامة على صورة لها عن النسخة

(١) عنوان المعارف - نفائس المخطوطات: ٢٠/١ - ٢١.

الأصلية المحفوظة في مكتبة الفاتح بتركيا، وقد جاء في آخرها ما نصه: «تم الكتاب، وفرغ من مشقه يوم الأربعاء ثاني عشر رجب سنة عشرين وخمسائة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً»^(١).

وتقع الرسالة بمجموعها في (١٣) ورقة، ويدور موضوعها على تسجيل الفروق اللغوية بين حرفي الضاد والظاء، حيث رأى مؤلفها خلط الكتاب بين هذين الحرفين والتباس أمرهما عليهما، فدعته غيرته على اللغة إلى تأليف هذه الرسالة، لتكون سبباً في إصلاح هذه الأخطاء ورفع الإيهام والالتباس عن موارد استعمال هذين الحرفين.

يبدأ الصاحب رسالته بقوله:

«كتاب الفرق ما بين الضاد والظاء المعجمتين؛ وتمييز بعضها من بعض؛ ومعرفة تأليف أبنيتهما، إذ كانا حرفين قد اعتاص معرفتهما على عامة الكتاب، لتقارب أجناسهما في المسامع، وإشكال أصل تأسيس كل واحد منهما، والتباس حقيقة كتابتهما، لأن في ترك النظر في ذلك إفساداً للغة؛ وتغييراً لأحكام العربية؛ وهجنة على من لم يحظ به معرفة؛ ومخالفة لحقائق الهجاء؛ وبياناً في تفسير المعاني، ألا ترى إنك إذا قلت: قرّظت الرجل وقرّضته... فالتقريظ مدحك إيّاه، والتقريض ذم واعتياب، وقولك: عطل الرجل أخته إذا منعها أن تتزوج؛ وعطلها إذا عهد إليها، وأنا أبين كل ظاء انتقلت من كلام العرب، وما ورد من نظائره من الضاد، وبالله التوفيق»^(٢).

وجاء في آخر الرسالة:

(١) الفرق بين الضاد والظاء: ١٣/أ.

(٢) الفرق بين الضاد والظاء: ١/ب.

«الجلفاظ: الذي يقيّر السفن، ويقال: اجلنظز الرجل إذا وقع على ظهره ورفع رجله»^(١).

ومن أمثلة البحث اللغوي في هذه الرسالة ما يلي:

«الظرب: حجر نابت الأصل في أرضٍ أو جبل؛ نأتىء الطرف محدّد؛ وجمعه ظراب؛ قال الشاعر:

إن جنبي على الفراش لناب^(٢) كتجافي الأسرّ فوق الظراب
الأسرّ: بعير في سُرّته داء، وعامر بن ظرب: من فرسان الجاهلية،
والظرابي والظربي جمع الظربان وهو: دابة لا يطاق فسوه، وقال:

وهل أنتم إلا ظرابيُّ فضة تقاسى وتستنشي بأنفها الطخم^(٣)

الكشف عن مساويء شعر المتنبي: ١٢

هكذا ورد اسم الرسالة في بعض المصادر التاريخية^(٤)، وسميت في مصادر أخرى باسم: «الكشف عن مساويء المتنبي»^(٥) كما سميت في بعض الكتب: «إظهار مساويء المتنبي»^(٦)، وفي بعضٍ آخر: «الأخذ على أبي الطيب المتنبي»^(٧).

(١) نفس المصدر: ١٣/أ.

(٢) في المخطوط: لئات، والتصحيح من لسان العرب: ٥٦٩/١.

(٣) الفرق بين الضاد والطاء: ٧/ب.

(٤) الفهرست: ١٩٤، ووفيات الأعيان: ٢٠٨/١، وروضات الجنات: ١٠٦، وتاريخ الأدب العربي: ١٣٦/١.

(٥) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦، وبغية الوعاة: ١٩٧، وكشف الظنون: ١٤٩١/٢، وتأسيس الشيعة: ١٦١.

(٦) معجم الأدباء: ٢٤/١٤، وبيتمة الدهر: ٤/٤.

(٧) نزهة الألباء: ٣٩٩.

روى بعض نصوصها لفيف من الأدباء في مؤلفاتهم^(١)، وإن لم يصرح بعضهم باسم الصاحب حين النقل^(٢)، وتعد هذه الرسالة - بحقٍ - من أهم مصادر تاريخ النقد الأدبي في القرن الرابع - على ما مرَّ تفصيله^(٣) -.

طبعت الرسالة بمصر سنة (١٣٤٩هـ) في (٢٤) صفحة، وكانت النسخة المطبوعة بتصحيحها وأخطائها وتحريفها مشوّهة سقيمة إلى حدٍ بعيد. ووقفتُ في مكتبة الإمام الحسن العامة على نسخة مصوّرة منها عن أصلها المخطوط المحفوظ في مكتبة دير الأسكوريال بأسبانيا، وهي حديثة الكتابة مغربية الخط أسماها ناسخها: «رسالة الصاحب كافي الكفاة في كشف عيوب المتنبي»، وتقع في (٢١) ورقة.

يظهر من مقدمة الرسالة أنها كتبت لشخص معيّن لم يرد ذكره فيها ولم يشرُ ناشرها إليه، ولكن ناسخ النسخة الخطية يقول في صدرها: إنها ألّفت لأبي الحسين حمزة بن محمد الأصبهاني.

أما تاريخ تأليفها فلم يرد نص فيه، ولكنه كان قبل عام (٣٦٠هـ) الذي توفي فيه ابن العميد، لأن الصاحب يذكر أستاذه ابن العميد فيها فيقول في الداء له: «أدام الله أيامه، وحصّن لديه إنعامه»^(٤)، وإذا علمنا تاريخ قصد المتنبي لابن العميد في أرجان ومدحه له سنة ٣٥٤، وعلمنا طلب الصاحب من المتنبي أن يزوره في أصفهان ويمدحه ورفض المتنبي لذلك وثورة الصاحب على هذا الرفض نفهم أن الرسالة قد كتبت في الفترة الواقعة بين عامي ٣٥٤ - ٣٦٠.

(١) نيتمة الدهر: ١٢٣/١ - ١٤٥، ونهاية الأرب: ٢٢١/٥.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٣٥٢ و ٣٥٤.

(٣) تراجع ص ١٧٢ - ١٧٥ من هذا الكتاب.

(٤) الكشف: ٤.

يبدأ الصاحب الرسالة بقوله:

«أما بعد أطل الله مدتك، وأدام في العلوم رغبتك، فالهوى مركب يهوي بصاحبه، وظهر يغير براكبه، وليس من الحزن أن يزري العالم على نفسه بالعصية، ويضع من علمه بالحمية، فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم، متفقون على أن تغليب الأهواء يطمس أعين الآراء، وإن الميل عن الحق يبهيم سبل الصدق، وكنت ذاكرت بعض من يتوسم الأدب في الأشعار وقائلها والمجودين فيها، فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء، فرأيته قد هاج وانزعج... ولم يرض حتى تحداني فقال: إن كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره، وقيد بالخط ما تذكره... ففعلت وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي»^(١).

ويقول في آخرها:

«وكانت الشعراء تصف المآزر تنزيهاً لألفاظها عما يُستبشع ذكره حتى تخطفى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح الذي لم يهتد له غيره فقال:

إني على شغفي بما في خمرها لأعفُ عما في سراويلاتها

وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا.

هذه - أيدك الله - مقدمة علققتها ليستدل بها على ما بعدها، ولو أتيت بنظائرها مما أخرجت من شره لأضجرت القارئ وأمللت السامع، وإن دام هؤلاء الأغمار على النفار لم يعدموا الزيارة ولم يفقدوا الزيادة.

فمن شاء فليعذر ومن شاء فليَلْمُ فللصدق أولى من وفاق البهائم^(١)

ومن نماذج بحوث الرسالة هذا المثال:

«ومن بدائمه الظريقة عند متعلقي حبله؛ وفواتحه البديعة عند ساكني ظله:

شديد البعد من شرب الشمولِ ترنج الهند أو طلع الخميل
فلا أدري استهلال الأبيات أحسن، أم المعنى أبداع، أم قوله:
«ترنج» أفصح.

ومن لغاته الشاذة وكلماته النادرة:

كل أخائه كرام بني الدنـ يا ولكنه كريم الكرام
ولو وقع الآخاء في زائفة الشماخ لاستثقل، فكيف مع أبيات منها:
قد سمعنا ما قلت في الأحلام وأنلناك بدرة في المنام
والكلام إذا لم يتناسب زيّفه جهابذته، وبهرجه نقاده^(٢).

١٢ المحيط:

ذكره أكثر علماء اللغة ورجال التاريخ في موسوعاتهم ومؤلفاتهم، ولكنهم اختلفوا في عدد أجزائه فعينها بعضهم سبعا^(٣)، وأوصلها آخرون إلى عشر^(٤)، ويروي الوزير القفطي عن ياقوت

(١) الكشف: ٢٦، والبيت الأخير لم يرد في النسخة المطبوعة، وإنما أضفناه من المخطوط.

(٢) نفس المصدر: ١٦ - ١٧.

(٣) وفيات الأعيان: ٢٠٨/١، ومعاهد التنصيص: ١٥٧/٢، والبداية والنهاية: ١١/٣١٦، وشذرات الذهب: ١١٤/٣، وكشف الظنون: ١٦٢١/٢.

(٤) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦، وبغية الوعاة: ١٩٧، وتاريخ آداب اللغة العربية: ٢/٣٠٨، وتأسيس الشيعة: ١٦١.

الرومي الناسخ أنه نسخ منه نسخة بالأجرة في سبع مجلدات^(١).

ومهما كان من أمر المجلدات وعددها فإنه خلاف في القشر ولا علاقة له بصميم مباحث الكتاب بعدما عثرنا على نسخة كاملة منه في بعض المكتبات العراقية تضم سائر الحروف الهجائية من دون أي نقصٍ أو خرمٍ أو فقد شيء منه.

وقفت على قطعة مصوّرة من هذا الكتاب بمكتبة الإمام الحسن العامة، كتبت في القرن السابع بخط جميل جيد مشكول في (٢٧٥) ورقة، تبدأ بباب المضاعف من حرف الخاء - الخاء والقاف - وتنتهي بآخر حرف القاف، وتحفظ مكتبة أحمد الثالث بتركيا بالنسخة الأصلية من هذه القطعة.

كما وقفت في مكتبة النجف العراقي ببغداد على نسخة كاملة من هذا الكتاب كتبها المرحوم الشيخ محمد السماوي سنة (١٣٥٤هـ) عن نسخة كتبت للسيد علي بن السيد أحمد نظام الدين المدني المعروف بابن معصوم سنة (١١١٧هـ)، وتتألف نسخة السماوي من مجلدين: أولهما في (٤٤٤) صفحة وثانيهما في (٤١٥) صفحة.

وتحتوي دار الكتب المصرية على قطعة من الكتاب كتبت في القرن السابع في (٢٧٤) ورقة، تبدأ بباب الليف من حرف الفاء وتنتهي إلى باب الخماسي من السين، ولكن لم يتسنّ لي الوقوف عليها، كما لم يتسنّ لي الوقوف على نسخة كربلاء التي سمعت أنها في ملك أحد السادات هناك، ولكنه لا يسمح بالاطلاع عليها.

يبدأ الجزء الأول من نسخة السماوي بما نصه:

(١) أنباء الرواة: ٢٠١/١.

«كلام العرب مبني على أربعة أنحاء: الثلاثي والثنائي والرباعي والخماسي، لا يُجاوَزُ ببناء الكلمة والحروف [الأصلية ذلك إلا أن تلحقها الزوائد، فقد تبلغ بها حينئذ سبعة نحو القَرَعْبَلانة وهي دويبة»^(١).
وجاء في آخر الجزء الأول:

«القفندر من الرجال: القصير الحاذر؛ والضخم من الإبل؛ والأبيض من كل شيء. القفنديل: الضخم من الإبل. ادلنق الرجل: أسرع وتقدم، وخرق مدلنق: بعيد ممتد. القفربية: القصيرة القمئة: ويقال: قفربية بالياء»^(٢).

وورد في أول المجلد الثاني:

«باب الكاف - باب الثنائي المضاعف - باب الكاف والشين:

كشّ: كشّ البكريكش كشيئاً: وهو صوت من الكئيب والهدير، والكشكشة: لغة تعرف لربيعة يقولونها عند كاف التأنيث نحو: عليكش ويكش، وبحر لا يكشكش: أي لا ينزح.

شكّ: الشك: نقيض اليقين. شكّني أمرك وأمرك يشك عليّ، والشكة: ما يلبسه الرجل من السلاح، والشك: طلع خفيّ؛ بعير شاك وقد شك واشتك اشتكاكاً، والشكايك: الفرق من الناس؛ الواحدة شكيكة، والشكاكة من الأرض: ناحية منها، والشكوك: الجوانب، وشككت إلى فلان وشككته: أي ركنت إليه، وشككت إليه البلاد: قطعته، وإنه لبعيد الشكة: أي الشقة، وشك عليّ الأمر، وشق بمعنى، ولجام شكي: أي عسر، والشكيكة: السّلة التي تكون فيها الفاكهة»^(٣).

(١) المحيط: ٢/١. مخطوط بمكتبة المتحف العراقي.

(٢) نفس المصدر: ٤٤٣/١.

(٣) المحيط: ٢/٢.

وجاء في آخر الجزء الثاني وهو ختام الكتاب:

«اليؤيؤ: طائر يشبه الباشق؛ والجمع اليثآياء واليثنآئي، وإذا قيل: هل يزوركم فلان قالوا: نعم يا أي نعم يزورنا، ويقولون يا اذهب: أي يا هذا، وقرىء قوله عزوجل: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ أي ألا يا هؤلاء اسجدوا، والياء: الحرف، وقصيدة ياويّة: إذا كانت مبنية على الياء؛ ويائية؛ كذلك؛ وقيل ميويّة، ويبيّت ياءاً حسنة أي كتبت ياءاً حسنة»^(١).

أما تسلسل الحروف الهجائية فلم يستعمل فيه طريقة الألفباء ولا الأبجدية المعروفة، بل اتبع فيه الناحية الصوتية فقسم الحروف إلى مجموعاتٍ متعددة تختلف باختلاف أصواتها حسب الجدول التالي:

حلقيّة - ع، ح، هـ، خ، غ.

لهويّة - ق، ك.

شجريه - ج، ش، ض.

أسليّه - ص، س، ز.

نطعيّه - ط، د، ت.

لثويّه - ظ، ذ، ث.

ذلقّيّه - ر، ل، ن.

شفويّه - ف، ب، م.

هوائيه - و، أ، ي»^(٢).

(١) نفس المصدر: ٤١٥/٢.

(٢) المحيط: ٢/١.

١٤

 المنظومة الفريدة:

أسماءها مفهرس مخطوطات دار الكتب المصرية بهذا الاسم، ولعلّه استقاه مما جاء في آخر المنظومة إذ يقول الناسخ: «تَمَّت وبالخير عمّت الفريدة المشتملة على أفضل كل عقيدة».

والمنظومة - المشار إليها - قصيدة واحدة من قصائد ابن عبّاد التي وردت في ديوانه المخطوط وفي عدة كتب أخرى، وقد شاء أحد الناسخين أن يفرداها في النسخ في (٣) صفحات إعجاباً بها واتسئاساً بمضامينها، فكان لها بعد ذلك اسمها المعين وذكرها الخاص في فهرس دار الكتب.

عدد أبيات القصيدة (٦٤) بيتاً، وتاريخ النسخ سنة (١٠٨٧هـ)، وهي كثيرة الأخطاء والتصحيّف والتحريف مما يدل على أن كاتبها لا يحسن العربية ولا يفهمها كما يجب.

جاء في أولها:

قالت: أبا القاسم استخففت بالغرل^(١)

فقلت: ما ذاك من همي ولا أملي

قالت: أريد اعتذاراً منك تظهره

فقلت: عذراً ولا أخشى من العذل

قالت: ألح على تكرير مسألتي

فقلت: ما أنا عن رأيي بذئ حوّل^(٢)

(١) في المخطوط، الحففت، والتصحيح من الديوان المخطوط.

(٢) المنظومة الفريدة: ص ١. مخطوط مصور بمكتبة الإمام الحسن العامة.

إلى أن يقول:

قالت: فمن صاحب الدين الحنيف أجب

فقلت: أحمد خير السادة الرسل^(١)

قالت: فهل معجز وافى النبي به

قلت: القران وقد أغنى عن الأول

قالت: فمن بعده كان الولاء له

قلت: الوصي الذي أربى على زحل^(٢)

ويقول في ختامها:

قالت: أتيت ابن عبّاد بمعجزة فقلت: لا تعجبي فالشعر من خولي

قالت: فهل منشد ترضى لينشدها فقلت: كل كريم النجر ينشد لي^(٣)

وقد شرح القاضي جعفر بن أحمد بن يحيى البهلولي هذه القصيدة شرحاً جميلاً مفصلاً وقفت منه على نسختين:

(الأولى): مصوّر النسخة المحفوظة في الخزانة التيمورية بمصر، وهي في (١٤) ورقة بخط يماني حديث، وليس في آخرها ذكر للناسخ أو لسنة النسخ.

(الثانية): مصوّر النسخة المحفوظة في المكتبة الأمبروزبانية في إيطاليا، وهي في (٢١) ورقة بخط يماني واضح، وليس فيها ذكر للناسخ أو لتاريخ النسخ سوى ما جاء في الصفحة الأولى منها من تسجيل تملك لها سنة (١١١٣هـ).

(١) في المخطوط: الأول، والتصحيح من الديوان.

(٢) المنظومة الفريدة: ٢.

(٣) نفس المصدر: ٣.

جاء في أول الشرح:

«قالت: أبا القاسم استخففت بالغزل

فقلت: ما ذاك من همي ولا شغلي

يحكي عن قائلة خاطبته في استخفافه بالغزل وهو إعراضه عن اللهو والصبأ فأجابها أن ذلك أمر لا يصرف إليه همته، ولا يعلق به أمره»^(١).

وجاء في ختام الكتاب:

«قالت: فهل لك في نظم لترويه فقلت: إن جوابي منه حيّ هل

ثم جلا هاهنا إنها طلبت منه شعراً فأجابها إلى ما سألته معجلاً:

قالت: فأمل على هذا الفتى عجلاً فقلت: هذا ولم ألبيث ولم ابل

قالت: أمتدّها في القول مرتجلاً؟ فقلت: ما قلت شعراً غير مرتجل

قالت: أتيت ابن عباد بمعجزة فقلت: لا تعجبي فالشعر من خولي

قالت: فهل منشد ترضى لينشدها فقلت: كل كريم النجر ينشد لي

تمت القصيدة المباركة بتفسيرها، والحمد لله وحده، وصلى الله

على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً»^(٢).



(١) شرح المنظومة: ٢/أ. مصور نسخة إيطاليا.

(٢) شرح المنظومة: ٢١/أ.

ب

مؤلفات الصاحب المفقودة

«التي روت كتب الأدب والتاريخ بعض نصوصها»

الأنوار: ١٥

لم يذكره أحد من القدماء سوى السيد رضي الدين علي بن طاووس، فقد أشار إليه وتحدث عنه وروى بعض نصوصه المرتبطة بموضوع بحثه فقال:

«الباب الرابع والسبعون بعد المائة: فيما نذكر من أمر النبي (ص) مَنْ حضر من أصحابه بالتسليم على مولانا عليّ (ع) بأمر المؤمنين؛ من كتاب (الأنوار) تأليف الصاحب الفاضل إسماعيل بن عبّاد... فقال إسماعيل بن عبّاد في كتاب الأنوار الذي ذكرناه ما هذا لفظه:

الإمام الأول: اسمه علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي، وله أسام كثيرة في التوراة والإنجيل والفرقان والزبور، وبشرحها يطول الكتاب. يكنى (أبو الحسن)، ولقبه رسول الله (ص) أمير المؤمنين خاصاً له؛ حين قال لأصحابه: قوموا وسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، روى ذلك أبو بردة وغيره في قصة طويلة، ويقال له المرتضى والوصي والولي، ولقبه النبي (ص) بالوزير^(١).

الروزنامجة: ١٦

وهي كلمة فارسية بمعنى (اليوميات) سجّل فيها الصاحب كثيراً من

(١) اليقين في إمرة أمير المؤمنين: ١٧٤ - ١٧٥.

القصص الأدبية والمطارحات العلمية والنوادر الشعرية التي تمّ له سماعها والاطلاع عليها في بغداد، حينما زارها بصحبة الأمير البويهبي عام ٣٤٧، ويظهر من بعض نصوصها أنه كتبها لأستاذه ابن العميد ليطلعه على كل ما شاهد وما جرى له في رحلته.

ومن نماذجها وُصفُ الصاحب لما اتفق له مع أبي محمد الوزير المهلي:

«استدعاني الأستاذ أبو محمد فحضرت، وابنا المنجم في مجلسه، وقد أعدّا قصيدتين في مدحه، فمنعهما من النشيد لأحضره، فأنشداً قعوداً وجوذاً بعد تشبيب طويل وحديث كثير؛ فإن لأبي الحسن رسماً أخشى تكذيب سيدنا إن شرحته، وعتابه إن طويته، ولئن أحصل عنده في صورة متزئد أحب إليّ من أن أحصل عنده في رتبة مقصّر: يتدىء فيقول ببحة عجيبة - بعد إرسال دموعه وتردّد الزفرات في حلقه واستدعائه من جوذر غلامه منديل عبارته -: والله والله . . . وإلا فأيمان البيعة تلزمه بحلّها وحرامها وطلاقها وعتاقها، وما ينقلب إليه حرام؛ وعبيده أحرار لوجه الله تعالى، إن كان هذا الشعر في استطاعة أحد مثله؛ واتفق من عهد أبي دؤاد الأيادي إلى زمان ابن الرومي لأحدٍ شكله، بل عيبه أن محاسنه تتابعت، وبدائعه ترادفت، فقد كان في الحق أن يكون كل بيت منه في ديوان يحمله ويسود به شاعره، ثم ينشد فإذا بلغ بيتاً يعجب ويتعجب من نفسه فيه قال: أيها الوزير مَنْ يستطيع هذا إلا عبدك علي بن هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم جليس الخلفاء وأئيس الوزراء.

ثم ينشد الابن؛ والأب يعوّذه ويهتز له ويقول: أبو عبد الله؛ استودعه الله، ولي عهدي، وخليفتي من بعدي، ولو اشتجر اثنان من مصر وخراسان لما رضيت لفصل ما بينهما سواه، أمتعنا الله به ورعاه.

وحديثه عجب، وإن استوفيته ضاع الغرض الذي قصدته، على أنه - أيد الله مولانا - من سعة النفس والخلق، ووفور الأدب والفضل، وتمام المروءة والظرف؛ بحالٍ أعجز عن وصفها، وأدل على جملتها أنه - مع كثرة عياله واختلال أحواله - طلب سيف الدولة جاريته المغنيّة بعشرين ألف درهم أحضرها صاحبه، فامتنع من بيعها، وأعتقها وتزوّج بها^(١).

ومما جاء في هذه اليوميات قوله:

«توفّرتُ على عشرة فضلاء البلد، فأول من كارثني^(٢) أولادُ المنجم لفضل أبي الحسن علي بن هارون وغزارته، واستكثاري من روايته وطيب سماعه ولذيذ عشرته، فسمعت منه أخباراً عجيبة وحكايات غريبة؛ ومن ستارته أصواتاً نادرة مشنّفة مقرطقة يقول في كل منها: الشعر لفلان والصنعة لفلان؛ أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحاق أو غيره من أبناء جنسه، وكان أكثر ما يُعجّب به مولاها أبيات له أولها:

ضلّ الفراق ولا اهتدى ونأت فلا دنت النوى
وهوى فلا وجد القرا رَمَعْتَفْ أهل الهوى

فاتفق أن سألت أول ما سمعت اللحن فيه عن قائله، فغضب واستشاط، وتنكر واستوفز، ونفر وتنمّر، وقال: تقول لمن هذا؟ أما يدل على قائله؟ أما يعرب عن جوهره؟ أما ترى أثر بني المنجم على صفحته؟»^(٣).

(١) يتيمة الدهر: ١٠١/٣ - ١٠٢. ومعجم الأدياء: ١١٣/١٥ - ١١٤.

(٢) كارثني: اشتد علي وعارضني.

(٣) معجم الأدياء: ١١٦/١٥ - ١١٧.

السفينة: ١٧

وهي - حسبما يظهر مما نقل عنها - مجموعة جمع فيها الصاحب ما يستحسنه من الشعر الجيد الذي يسمعه أو يقف عليه في كتب الأدب، وكان الصاحب حريصاً عليها أشد الحرص، بخيلاً بها كل البخل، وأظن أن هذا الحرص والبخل ناشئ من اعتزازه بها ومعرفته بقيمتها الأدبية الكبيرة.

لم يذكرها أحد غير الثعالبي، فقد نقل عنها بعض الأبيات الشعرية مع الإشارة إلى مصدر نقله، وكان ذلك في ثلاثة مواضع:

١ - قال في ترجمة أبي الضياء الحمصي:

«حدثني أبو عبد الله الحامدي قال: أنشدني أبو محمد الخازن قال: من الفوائد التي سرقتها من سفينة الصاحب التي كان لا يمكن منها أحداً قول أبي الضياء في بعض الرؤساء:

وما خلقت كفاك إلا لأربع وما في عبّاد الله مثلك ثانٍ
لتجريد هندي وإبداء نائلٍ وتقبيل أفواه وأخذ عنان^(١)

٢ - وقال في ترجمة أبي محمد البوصراّبادي:

«قرأت شعره في سفينة لأبي عبد الله الحامدي ذكر فيها أنه استعلاء من أبي محمد الخازن وإنه سُرِق من سفينة الصاحب بخطه^(٢).

٣ - وقال في ترجمة أبي الثريا الشمشاطي:

«حدثني الحامدي: إن من الأبيات التي علقها الصاحب في سفينته قول أبي الثريا من مقطعة في مختط:

(١) تنمة اليتيمة: ٢٧/١.

(٢) نفس المصدر: ٤٢/١.

كأنه البدر في لألاء غرّته قد زار جبريل في عيدٍ فغلّفه»^(١)



١٨ نهج السبيل:

لم يذكره من المتقدمين غير ياقوت الحموي^(٢)، ولكن ورد ذكره في كتب المتأخرين في عدة مواضع، ويقول الشيخ الطهراني: إنه عشر على قطع منه في ذيل نسخة من كتاب «التذكرة» كتبت في عام (١٠٥٥هـ) بخط الشيخ شرف الدين المازندراني^(٣)، ونقل الأميني في كتابه فصلاً من نهج السبيل في تفضيل علي(ع)؛ من دون أن يشير إلى مصدر نقله، وأظنه منقولاً عن النسخة التي أشار إليها الطهراني فيما سبق ذكره.

يقول ناسخ التذكرة:

«ذكر صاحب رحمه الله في آخر كتاب نهج السبيل: إن أمير المؤمنين علياً(ع) أفضل الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وآله، واستدل عليه بأن الأفضلية تستحق بالسابقة والعلم والجهاد والزهد فوق جميعهم، فلا شك أنه متقدمهم وغير متأخر عنهم، وقد سبقهم بمنازلة الأقران وقتل صناديد الكفار وأعلام الضلالة، وهو الذي آخى النبي صلى الله عليه وآله بينه وبينه حين آخى بين أبي بكر وعمر، ورضيه كفواً لسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء سلام الله عليها، ودعا الله أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه، وأخبرنا أنه منه بمنزلة هارون من موسى لفضلٍ

(١) نفس المصدر: ٧٠/١.

(٢) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٣) الذريعة: ٢٢/٤.

فيه، وقال (ع): اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطائر، ولا يكون أحبهم إلى الله إلا أفضلهم، وقال: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، وقال: أنا ما سألت الله شيئاً إلا سألت لعلي مثله حتى سألت له النبوة فقيل: لا ينبغي لأحد من بعدك، ولم يكن يسألها إلا لفضله، ولهذا استثنى النبوة في حديث: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، فصبر على المحن، وثبت على الشدائد، ولم ترده^(١) أيام توليته إلا خشونة في الدين، وأكلاً^(٢) للجشب، ولبساً للخشن، يستقون من علمه؛ وما يُستقى^(٣) إلا ممن هو أعلم، خير الأولين وخير الآخرين، عُهد إليه في الناكثين والقاسطين والمارقين، وقتل^(٤) بين يديه عمار بن ياسر المشهود له بالجنة لبصيرته في أمره، وشبّهه رسول الله بعيسى بن مريم كما شبّهه بهارون؛ لا يضرب^(٥) الأمثال إلا بالأنبياء، وتصدّق بخاتمه في ركوعه حتى أنزل فيه: ﴿إِنَّا وَإِيَّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ - الآية -، وآثر المسكين واليتيم والأسير على نفسه حتى أنزل فيه: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَيْثُ وَسَّكِينًا وَيَلْمَأُؤَأَسِيرًا﴾... إلخ^(٦).



(١) في الغدير: ترده.

(٢) في الغدير: أكله.

(٣) في الغدير: يستقى. بالبناء للمعلوم.

(٤) في الغدير: وقيل.

(٥) في الغدير: لا تضرب، مع أن ضمير الفاعل راجع إلى رسول الله (ص).

(٦) الغدير: ٥٨/٤ - ٥٩.

ج

مؤلفات الصاحب المفقودة

١٩ أخبار أبي العيناء:

ذكره ياقوت^(١)، ولم يتعرض له غيره.

٢٠ أسماء الله وصفاته:

سمّاه بهذا الاسم كل من ابن خلّكان^(٢) وحاجي خليفة^(٣) والخونساري^(٤) والصدر^(٥)، وأسماء ابن النديم^(٦) وياقوت^(٧): «مختصر أسماء الله وصفاته».

٢١ الأعياد وفضائل النيروز:

هكذا أسماه ابن النديم^(٨) وبعض المتأخرين عنه^(٩)، وورد باسم «الأعياد» في كتب آخرين^(١٠)، وذكر حاجي خليفة «الأعياد» إسماً لكتاب «فضائل النيروز» إسماً لكتاب آخر^(١١).

(١) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٠٨/١.

(٣) كشف الظنون: ١٣٩١/٢.

(٤) روضات الجنات: ١٠٦.

(٥) تأسيس الشيعة: ١٦١.

(٦) الفهرست: ١٩٤.

(٧) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٨) الفهرست: ١٩٤.

(٩) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦، وفيات الأعيان: ٢٠٨/١، وشذرات الذهب: ١١٥/٣.

(١٠) معاهد التنقيص: ١٥٧/٢، وتأسيس الشيعة: ١٦١.

(١١) كشف الظنون: ١٣٩٤/٢ و١٢٧٨/٢.

٢٢	الإمامة:
----	----------

يقول ابن النديم:

«كتاب الإمامة يذكر فيه تفضيل علي بن أبي طالب (ع) وتثبيت إمامة مَنْ تقدمه»^(١)، وعلى هذا النحو ذكره كثير من المؤرخين^(٢).

ويقول ابن العماد:

«كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علي (ع) وتثبيت إمامته على من تقدمه لأنه كان شيعياً»^(٣).

وذكر ياقوت للصاحب كتاباً في تفضيل علي بن أبي طالب (ع) وتصحيح إمامة من تقدمه^(٤) ولم يسمّه، وأظن أنه يقصد هذا الكتاب.

٢٣	تاريخ الملك واختلاف الدول:
----	----------------------------

لم يذكره من المؤرخين غير ياقوت الرومي^(٥).

٢٤	التعليق:
----	----------

ذكره ابن شهرآشوب^(٦)، ولم أعر على ذكر له عند غيره.

(١) الفهرست: ١٩٤.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٠٨/١، وتاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢، ومعاهد التنصيص: ٢/١٥٧، وكشف الظنون: ١٣٩٨/٢.

(٣) شذرات الذهب: ١١٥/٣.

(٤) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٥) نفس المصدر.

(٦) معالم العلماء: ٨.

جوهرة الجمهرة:

٢٥

هكذا أسماها ليف من المؤرخين القدامى والمتأخرين^(١)، وأسامها حاجي خليفة باسم «الجوهرة»^(٢) تارة وباسم «جواهر الجمهرة»^(٣) تارة أخرى، وأخبر الطهراني عن وجود نسخة من هذا الكتاب في الكاظمية^(٤)، ولكن لم يتسنَّ لي الاطلاع عليها؛ بل لعلها بحكم المفقود.

الحجر:

٢٦

قال ابن فارس النحوي:

«أخبرني علي بن أحمد بن الصباح قال: حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا ابن أخي الأصمعي عن عمه: إن الرشيد سأله عن شعر لابن حزام العكلي ففسره فقال: يا أصمعي إن الغريب عندك لغير غريب، فقال: يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً، وهذا كما قال الأصمعي، ولكافي الكفاة - أدام الله أيامه وأبقى للمسلمين فضله - في ذلك كتاب مجرد»^(٥).

الزيدية:

٢٧

ذكره ابن النديم^(٦) وياقوت^(٧).

(١) نزهة الألباء: ٣٩٩، ومعجم الأدياء: ٦/٢٦٠، وأنباء الرواة: ٢٠٣/١، وبغية

الوعاة: ١٩٧، وتأسيس الشيعة: ١٦١.

(٢) كشف الظنون: ١/٦٠٦.

(٣) نفس المصدر: ١/٦١٩.

(٤) الذريعة: ٥/٢٩٢.

(٥) الصاحبي: ١٥ - ١٦.

(٦) الفهرست: ١٩٤.

(٧) معجم الأدياء: ٦/٢٦٠.

الشواهد: ٢٨

تفرّد ابن شهر آشوب^(١) بين القدامى بذكره.

الفصول المهدية للعقول: ٢٩

القضاء والقدر: ٣٠

ذكرهما الشيخ الأميني في كتابه^(٢)، ولم أجد ذكراً لهما في بحوث القداماء.

الوزراء: ٣١

ذكره بعض المؤرخين بهذا الاسم^(٣)، وأسماء أبو الفدا: «كتاب الوزارة»^(٤)، ووصفه ياقوت بأنه «لطيف»^(٥)، وذكره حاجي خليفة بهذا الاسم وقال: بأن الشيخ تاج الدين علي بن أنجب بن الساعي البغدادي قد ذُيِّله في مجلد واحد^(٦)، وذكره في مقام آخر باسم «أخبار الوزراء»^(٧).

الوقف والابتداء: ٣٢

ذكره القفطي^(٨) والأنباري، وقال الأنباري عند ذكره لهذا الكتاب:

(١) معالم العلماء: ٨.

(٢) الغدير: ٤١/٤ - ٤٢، وورد ذكر ثانيهما في روضات الجنات: ١٠٧.

(٣) الفهرست: ١٩٤، ووفيات الأعيان: ٢٠٨/١.

(٤) تاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢.

(٥) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٦) كشف الظنون: ١٤٦٩/٢.

(٧) نفس المصدر: ٣٠/١.

(٨) أنباء الرواة: ٢٠٣/١.

«يُحكى عنه أنه لما صنّف كتاب الوقف والابتداء كان ذلك في عنفوان شبابه، فأرسل إليه أبو بكر بن الأنباري وقال له: إنما صنفتُ كتاب الوقف والابتداء بعد أن نظرتُ في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم؛ فكيف صنفتَ هذا الكتاب مع حداثة سنّك؟ فقال الصاحب للرسول: قل للشيخ: نظرتُ في النيف وسبعين التي نظرتُ فيها ونظرتُ في كتابك أيضاً»^(١).



كتب أخرى

الزيدين:

١

ذكره ياقوت الحموي^(٢)، وأظنه تصحيفاً لكتاب «الزيدية» المار الذكر، فظنها ياقوت كتابين مستقلين.

الكافي في الترسل:

٢

ذكره عبد الرحيم العباسي بهذا النص^(٣)، وورد ذكره في مصادر أخرى باسم: «الكافي في الرسائل»^(٤) أو «كافي الرسائل»^(٥) أو «الكافي - رسائل»^(٦) مما يظهر أنه جامع لرسائل الصاحب أو بعض منتخبات

(١) نزعة الألباء: ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

(٣) معاهد التنقيص: ١٥٧/٢.

(٤) الفهرست: ١٩٤، ووفيات الأعيان: ٢٠٨/١، وتاريخ أبي الفداء: ١٣٠/٢،

وشذرات الذهب: ١١٤/٣.

(٥) كشف الظنون: ١٣٧٦/٢.

(٦) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

منها، فلا يصح - مع هذا - أن نفرّد له رقماً في أعداد مؤلفات الصاحب - كما فعل بعض المتأخرين - .

٣ المقتصور والممدود:

ذكر بروكلمان أنه للصاحب بن عباد وإنه نشر بعناية المستشرق برونله في عام (١٩٠٠م)^(١)، تابعه على قوله هذا للدكتوران عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف^(٢)، والصحيح أنه لابن ولّاد كما سجل على غلافه من دون أي شك في ذلك أو ريب.

٤ نقض العروض:

ذكره ياقوت^(٣) في مؤلفات الصاحب، وتبعه بعض المتأخرين على ذلك، ولا أجد معنًى مناسباً لهذه التسمية، وكيف ينقض الصاحب العروض وهو من علماء هذا الفن والمؤلفين فيه؟



(١) تاريخ الأدب العربي: ١٣٦/١.

(٢) رسائل الصاحب بن عباد - المقدمة: ك.

(٣) معجم الأدباء: ٢٦٠/٦.

القسم الرابع

حديث المراجع الأدبية والتاريخية عن أدب ابن عبّاد، حديثٌ متعدد الجوانب مترامي الأطراف، وبحثها في ذلك الأدب وخصائصه من قدح فيه إلى مدح له إلى إعجابٍ به إلى مبالغةٍ في شأنه، بحثٌ كبير منطوي على شيء كثير من الإطناب والتفصيل.

ولا عجب من ذلك، فقد أتيح لابن عبّاد من الحظ والشهرة ما لم يتَّخ لأكثر العلماء والأدباء من معاصريه، فكان له من ماله ونفوذه، وقوته وجاهه، وغناه وسلطانه، وغروره وعجبه بنفسه، ما يحمل الناس ويحثهم على ذكره والتحدث عنه واللهج بأخباره وآثاره، بين مدح وقدح وثناء وذم وإكبار وثلب، تبعاً لظرف كل واحد من أولئك المتحدثين ومقدار نجاحه أو خيبته في اجتذاب هذا الرجل الكبير، والتمتع بما آتاه الله من أسباب الغنى والجاه.

رأي الأدباء القدامى في أدب الصاحب؛

وقد أوتي الصاحب من الحظ ما حمل أكثر معاصريه الأدباء على التحدث عنه والاعتراف بأدبه وبراعته فيه، وطول باعه في فنون النثر والشعر، على اختلافٍ في نوعية الاعتراف من الصراحة أو التضمين.

فالثعالبي يرى أن الصاحب قد «بلغ من البلاغة ما يعدّ في السحر،

ويكاد يدخل في حد الإعجاز، وسار كلامه مسير الشمس، ونظم ناحيتي الشرق والغرب»^(١).

وابن النديم يذهب إلى أن الصاحب «أوحد زمانه وفريد عصره في البلاغة والفصاحة والشعر»^(٢).

وأبو حيان التوحيدي - عدو الصاحب - يصرح بأنه «كثير المحفوظ، حاضر الجواب، فصيح اللسان، قد نتف من كل أدبٍ خفيفٍ أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاً، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجّنة بطرائفهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب... ويقول الشعر، وليس بذاك، وفي بديهته غزارة، وأما رويّته فخوّارة»^(٣).

والوزير ابن سعدان يسأل أبا حيان عن بلاغة الصاحب وعن تحديد نسبتها لبلاغة ابن العميد فيجيبه بأنه قد سأل جماعة من الأدباء عن هذا الأمر فأجابوه بأجوبة مختلفة^(٤) تدور كلها على الشتم والسباب الرخيص، وسواءً كان أبو حيان صادقاً أو واضعاً لما نقل من آراء؛ فإنها لتدل بمجموعها على ضخامة السمعة الأدبية التي كان يتمتع بها الصاحب في ذلك العصر.

وسار الأدباء والمؤرخون - فيما تلا القرن الرابع من قرون - على هذا النحو من الرأي في أدب ابن عباد، فأثنى عليه من أثني، ونقل شتم أبي حيان من نقل، من دون أن نجد جدّة في الرأي وطرافة في البحث

(١) يتيمة الدهر: ١٦٩/٣.

(٢) الفهرست: ١٩٤.

(٣) الامتاع والموانسة: ٥٤/١ - ٥٥.

(٤) نفس المصدر: ٦١/١ - ٦٦.

وحرية في المناقشة، حتى انتهى بنا المطاف إلى هذا العصر عصر الدراسات المنهجية والبحوث الموضوعية.

رأي الأدباء المحدثين:

وجاء الدارسون المحدثون فأدلوها بدلوهم مع الدلاء، واستخرجوا ما استطاعوا أن يستخرجوا من رأي طريف وفكرة جديدة في أدب ابن عبّاد.

فالاكندري «يعد ابن عبّاد ثاني ابن العميد في حليته، وأبلغ من سلك طريقته، غير أنه أولع بالسجع والجناس»^(١).

والزيّات يرى أن الصاحب قد سار على نهج ابن العميد «وأربى عليه في الحلية اللفظية؛ ولا سيما في السجع والجناس... ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي، وله ذوق سليم في صوغ الشعر، ونظر صادق في نقده»^(٢).

ويقول الدكتور أحمد أمين - في أثناء حديثه عن القرن الرابع -:

«أدب هذا العصر تقدم خطوات في السجع والمحسنات اللفظية، والمبالغة البلاغية، فالصايبي وابن عبّاد أفرطوا في السجع وكادا يلتزمانه، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم، هذا إلى الامعان في الاستعارات والمجازات والتشبيهات، وتفننوا في تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطّرف فيما يصنعون من حلّي وأدوات زينة»^(٣).

وحين يتحدث الدكتور زكي مبارك عن ابن عبّاد يصرح بأن «أشعاره

(١) الوسيط: ٢١٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٢٣١.

(٣) ظهر الإسلام: ١/١٣٣.

ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه، وإنه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم، وبراعة القول، وسعة الاطلاع»^(١).

والدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أن ابن عبّاد «كان أحد أساتذة البلاغة في عصره، وقد بلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيماً من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزرَكشة والتطريز»^(٢).

وفي مقدمة رسائل ابن عبّاد يقول الدكتور عبد الوهاب عزام وصاحبه:

«إن الصاحب عُني في رسائله بالسجع فلا ينفك عنه إلا نادراً، كما عُني بطول الجمل وتحليتها بالبديع؛ وخاصة الجناسات والاقْتباسات والتشبيّهات والاستعارات، وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضي الفاضل وحلبته من كتاب العصور التالية، يدرك أن هؤلاء الكتاب إنما استنوا في رسوم كتاباتهم بالسنن التي نراها هنا عند الصاحب، ونقصد سنن تطويل العبارات وما يطوى فيها من سجع وبديع، وهي سنن اقتفى الصاحب فيها أستاذه ابن العميد، ومن المعروف أن ابن العميد تناول الكتابة ممن سبقوه وهي مليئة بالسجع... ولم يكتف ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع، وكان يشغف بالطباق، ثم جاء الصاحب من بعده فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التي وصفناها، وهي صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيّهات والاستعارات والجناسات والاقْتباسات وكل ما يمكن أن يعدّ حلية بيانية»^(٣).

(١) الشتر الفني: ٢٤٤/٢.

(٢) الفن ومذاهبه في الشتر العربي: ١٤٨.

(٣) رسائل الصاحب - المقدمة: ت.

الأدب في القرن الرابع^(١) :

وإذا رجعنا إلى الخصائص الأدبية لهذا القرن لنعرف مقدار تأثيرها في تفكير ابن عبّاد ومقدار تأثير صاحب بها نجد أن النشر والشعر قد خضعا - كما هو طبيعي لهما - لسنن الحضارة والترف والاختلاط بالأمم الأخرى غير العربية وبفلسفاتها وآرائها وآدابها، فكان لهما من مجموع هذه السنن مذهب خاص طبع هذا القرن بطابعه؛ هو نتيجة تطور القرون بما حملت من عناصر الجديد والتحضر والتدرج المطرد.

وكان القرن الرابع - بما زخر به من آثار الترف والرفاه وضروب الزركشة والزخرفة والتلوين - ذا أثر كبير على الأدب بكلا فرعيه، حيث نقله من جوّه الفطري الهادئ؛ وأطاره القائم على الاهتمام بالروح والمعنى والخيال الواضح الأداء، إلى عالم الزخرفة والتصنيع والاهتمام بالتزيق والمظاهر اللفظية.

فكان للنثر - أكثر النشر - هذا الذي نحسه ونراه من التزام بالسجع في جميع الرسائل والمكاتبات، وتأنق في كتابة الإخوانيات والفكاهات وصور الحياة العامة، وإمعان في المبالغة، وإكثار من التشبيه والاستعارة، إلى ما شاكل ذلك من شؤون وخصائص لم يكن يعرفها

(١) ليس المقصود من هذا العنوان هو البحث المستوعب في الأدب ومذاهبه وخصائصه في القرن الرابع، فإن ذلك مما تضيق به المجلدات فضلاً عن الصفحات المعدودات، ولكن الغرض منه هو الإشارة - بإيجاز - إلى أهم الملامح والخطوط التي تجلت في أدب هذا القرن نثراً وشعراً، فطبعته بطابعها ووسمته بميسمها، وعلى الفارء الراغب في الاطلاع على تفصيل ذلك أن يرجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، وفي طليعتها: ظهر الإسلام للدكتور أحمد أمين، والنثر الفني للدكتور زكي مبارك، والفن ومذاهبه في النثر العربي، والفن ومذاهبه في الشعر العربي، وكلاهما للدكتور شوقي ضيف.

النثر فيما سبق من عصوره، أو لم يكن يعرفها على هذا النحو من الالتزام والشيوع والانتشار.

وكان للشعر - أكثر الشعر - هذا الذي نلمسه ونشاهده من اهتمام بالتصنيع والجناس الشكلي والتلوين البديعي والزخرفة اللفظية، وصراحة في الكُدية والتسؤل، وتكشّف في المجون والخلاعة، وتغزلٍ مفصوح بالجواري والقيان والغلمان، ووصفٍ لمظاهر الترف والنعيم، إلى ما شابه ذلك من نواح لم يتطرق لها الشعر في عهوده السالفة، أو لم يتظاهر بها أكثر الشعراء - وإن نظّموا فيها -، أو لم يكن يعرفها أدباء القريض القدامى.

وهكذا أصبحنا «نرى كثيراً من الأدب في هذا العصر شكلاً تنقصه الروح، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة شكلاً بلا روح»^(١).



وكان لكل هذه الخصائص الأدبية - التي مرّ ذكرها بإيجاز - أثرها الكبير الواضح على نثر ابن عبّاد وشعره، وكان لمذهب التصنيع الأدبي صده المدوي في نفسه، وانعكاساته البارزة في أدبه، وتأثيره البليغ على كل ما خطه قلمه من مكاتبات ورسائل وقصائد ومقطعات، حتى عدّه مؤرخو الأدب من أساتذة هذا المذهب في ذلك القرن.

وليس ذلك بمستغربٍ من الصاحب بعد معرفة تلمذته على ابن العميد في الأدب والكتابة والترسل. وابن العميد - كما روت المصادر - من مؤسسي فن التصنيع ومنظّميه، بل ممن طوّر هذا الفن وأضاف إليه وأزاد عليه، فتلقى ابن عبّاد من أستاذه هذا الأسلوب الخاص في الكتابة

(١) ظهر الإسلام: ١٣٤/١.

وهذا المذهب المعين من المذاهب الأدبية، فنال فيه رتبة (الأستاذية) بعد حين.

نثر ابن عبّاد:

ومن أبرز ما يلاحظ في نثر ابن عبّاد هذا الالتزام بالسجع وهذا الاهتمام بأمره، وعجّت كتب الأدب القديمة والحديثة بذكر ذلك حتى جعلته من أجلى خصائص نثر ابن عبّاد وأوضح ملامحه، وحتى نسبت إليه ما نسبت من تصرفات حمقاء وحركات رعناء دفعه إليها كلفه بالسجع وحبه له، كما توضحه الوقائع التالية:

١ - «قال أبو حيان: كان ابن عبّاد يأتي بالسجع في أثر كلامه، مع روية طويلة وأنفاس مديدة، وحشرجة صدر، وانتفاخ منخره، والتواء شديقه، وتعويج عنقه»^(١).

٢ - «وقال أيضاً: «مما يدل على ولوع ابن عبّاد بالسجع ومجاورته الحدّ فيه بالإفراط قوله يوماً: حدثني أن ناش وكان من سادة الناش، جعل السين شيئاً، ومرّ في هذا الحديث، وقال: هذه لغة»^(٢).

٣ - ومما رواه أبو حيان أيضاً عن صاحب: «قال ابن عبّاد لشيخ من خراسان في شيء جرى: والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً، وبضعتك تبضيعاً، ووزعتك توزيعاً، ومزعتك تمزيعاً، وجزعتك تجزيعاً، وأدخلتك في خزائنك - ثم وقف ساعة ثم قال: - جميعاً»^(٣).

٤ - وقال أبو حيان في حديثه عن ابن عبّاد: «كان كلفه بالسجع

(١) معجم الأدباء: ٦/٢٦٤.

(٢) نفس المصدر: ٦/٢١٣.

(٣) نفس المصدر: ٦/٢١٣.

في الكلام والقول عند الجدل والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة ينحل بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها جبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها»^(١).

٥ - «كان ذو الكفائتين ابن العميد يقول: خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجهاً إلى أصفهان، ومنزله ورامين وهي قرية كالمدينة، فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح، لا شيء إلا ليكتب إلينا: كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت نصف النهار»^(٢).

٦ - «لقاضي قم قال الصاحب بن عباد: أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم، فكان القاضي يقول إذا سئل عن سبب عزله: أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب»^(٣).

ولدى التحقيق في سند رواية هذه القصص نجد أن أكثرها مروى عن أبي حيان التوحيدي بالنص على اسمه، والباقي منها منقول عنه أيضاً - فيما أظن - وإن لم يصرح بذلك.

وقد سبق لي القول مراراً في تصانيف هذا الكتاب بأن أحاديث أبي حيان ومروياته لا يمكن أن تعتبر مصدراً موثوقاً معتمداً عليه ما لم تشفع بروايات غيره من معاصري الصاحب الثقات.

(١) معجم الأدباء: ٢٠٧/٦ - ٢٠٨.

(٢) نفس المصدر: ٢٢٠/٦ - ٢٢١.

(٣) معجم البلدان: ١٦١/٧.

وإني لأعجب - أشد العجب - من بعض الباحثين المتأخرين إذ جعلوا من هذه الروايات المشكوكة مصدراً للبحث وأساساً للرأي من دون مناقشة لها أو وقوفٍ منها موقف التشكيك والتأمل، فلم يتورع الدكتور أحمد أمين من أن يعتمد على هذه الروايات في أثناء الحديث عن كتاب القرن الرابع: «وزاد الطين بلة» صاحب بن عبّاد المعاصر لهم فقد كان يعزل الوالي أو يوليّه ليحصل من ذلك على «سجعة»^(١).

ومهما يكن من أمر، فالذي لا شك فيه أن صاحب من محبّي السجع وعشاقه، ولكنه لم يصل في حبه وعشقه له إلى تلك الدرجة التي زعمها أبو حيان، وحسبنا من رسائله وكتبه أوضح شاهد على ذلك، إذ تجده - في كثير من الأحيان - تاركاً للسجع مستعملاً الازدواج والجناس البديعي، ما نجده في كثير من الأحيان أيضاً سجعاً مقبول السجع جميل التعبير لا يظهر عليه أدنى تكلف أو تعقيد فيه، في الوقت الذي نجده في بعض تعابيره ذا سجع متكلف ظاهر النبوّ والثقل، ولكن هذا النحو من سجعه قليل جداً، ولا يجوز أن يؤخذ منه الحكم على سائر نتاج هذا الرجل الأديب.

وأورد فيما لي - من دون انتقاء واختيار - بعض كلمات صاحب وجمله وأقواله الحافلة بالسجع والازدواج، لتكون نموذجاً لأسلوب صاحب وأدبه:

«حضرة هي الغاية القصوى من المجد، وسدرة المنتهى بين أهل الأرض».

(١) ظهر الإسلام: ٩٨/٢.

«وصل كتاب مولاي فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح،
وواسطته أنفس من واسطة العقد، وخاتمته أشرف من خاتم الملك».

«سلام كما هبَّ نسيم السحر على صفحات الزهر، ولدَّ طعم
الكرى بعد برح السهر».

«بعض الوعد كلمع السراب، وبعضه كنفق التراب».

«سحائب الصيف أثبت من قولك، والخط في الماء أقوى من
عهذك».

«كلام كصوب الغمام، وسجع كسجع الحمام».

«الحجيج وفد الله، وهم له متاجرون، وفي طلب ثوابه مسافرون،
وإلى بيته الحرام سائرون، ولقبر نبيه صلى الله عليه وسلم زائرون».

«فلان كريم ملَّ لباسه، موفق مدَّ أنفاسه، ذو جدٍ كعلوِّ الجد،
وهزل كحديقة الورد، وعشرته أطف من نسيم الشمال، على أديم الماء
الزلال، وألصق بالقلب، من علائق الحب»^(١).

ومن نماذج رسائله المطولة قوله في رسالة له بمناسبة فتح جرجان:

«كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جرجان، على سمت
خراسان، يوم الأربعاء لثمان بقين من ذي القعدة، وقد أنزل الله النصر
أعمَّ إنزال، فكشفنا الناكثين كشف الاستئصال، وسرنا إليهم يومنا هذا
هاجمين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله، مستظهرين بعون الله،
معوّلين على ما عوّد الله مولانا الملك السيد المنصور عضد الدولة، وتاج
الملة، وعوّدنا من الإظفار والإظهار، فحكّم أولياء الحق في أشياع

(١) نقلنا هذه الفقرات من: يتيمة الدهر، وثمار القلوب.

الباطل سيوف الانتقام، وجزروهم جزر الأنعام، فولّى المفلول تاش والمنقوص فائق والعاق علي والمنحوس قابوس وقد كملوا طبائع الخذلان، وأتاهم بأس الله من كل مكان، ناكصين على الأعقاب، راجعين على الإدراج، وغنم أنصارنا كراعهم وأموالهم، وأسلحتهم وخيامهم، وهام من نجا من استلحام الحديد عارياً، لا يلوي أول على آخر.

وقد سرّينا في طلبهم الأتراك ركضاً، والأعراب حثّاً، والأكراد حصّاً، وأمرناهم بأن لا يُكذّبوا عن نيسابور بإذن الله، وسيُتأسر من أخطأه السيف بمشيئة الله، إن الله متبع الخاسرين الغادرين ذلاً بعد ذل، ووهناً بعد وهن، فالحمد لله الذي منح وأنجح، ومنّ وأحسن، ويسّر ونصر، حمداً يحرس الدولة، ويحفظ الدعوة، ويوزعنا شكر ما ذلّل لنا من هذا الخطب الذي أعيا القرون، وأعجز القروم^(١).

ومن جملة نماذج نثر الصاحب ما ورد في بعض رسائله وكلماته من فِقر تشبه الشعر روعة وجمالاً، وتبهج النفس بنغمها وصفائها وعذوبة إيقاعها، كما تجده في الجمل التالية:

«ألفاظ كما نورت الأشجار، ومعان كما تنفست الأسحار».

«نثر كما تفتح الزهر عن كميته، ونظم كما تنفّس السحر عن نسيمة، وتبسّم الدر عن نظيمه».

«نثر كثر الورد، ونظم كنظم العقد».

«يهدي إليك سلاماً كرقعة خده، ونسيم عرفه، وغزارة دمعه من

بعده».

«أنا على طرف بستانٍ أذكرني ورده المتفتح بخلقك، وجدوله السابح بطبعك، وزهره الجنّي بقربك».

«كتابي هذا وقد أرخى الليل سدوله، وسحب الظلام ذيوله».

ثم ننتقل إلى نماذج أخرى من نثر الصاحب حاول فيها إخضاع المطالب العلمية والمواضيع الجافة للتعبير الأدبي الجميل، حيث كتب في الطب والخراج والري والزراعة والحسبة وما شاكل ذلك، فيقول في رسالته الطبية المرسلة إلى أبي العباس الضبي:

«الأقراص في أواخر الحميات خبر ما نُقِيَتْ به الكبد، وأصلحت به العروق، وقوي به الطحال، . . . وإنما اغترّ مولاي بأيام السلامة، فكان ينسبط بأنواع الطعام، ويسرف في تناول الشراب، فامتلاً الجسم من تلك الكيموسات الردية، وورد بلداً شديد التحليل، مضطرب الأهوية، فوجدت النفسُ عوناً على حلّ ما انعقد، ونقض ما اجتمع، وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها، وتتصل مدتها، لأن الجسد يخلص خلاص الإبريز إذا زال عنه الخبث، وسُبِكَ فقارقه الدر»^(١).

ويقول في عهد حسبة:

«واهتمّ بأمر المعايير والمكاييل، والقسطاطات والموازين، اهتماماً يقتضيه افتقارُ المعاملات أجمع إليها، ورجوع المبيعات عليها، فقد عظم الله تعالى في نص المصحف، ووزّر الباخس وإثم المطقف . . . وأجر الرعية، على طريقة سوية، في المنع عن المجاهرة بما يُحْظَر، والمبادرة بما يُنْكَر، غير مفرق بين أبناء الثروة واليسار، وإخوان الحلة والإعمار، فالجماعة عبيد الله، لا تختلف فيهم حدود الله، بل الأغنياء -

(١) رسائل الصاحب: ٢٢٩.

إلا من عصم الله - أجزأ على المناكير، وأقدر على بلوغ اللذات بالتبذير... وألزم النساء إذا تخللن الأسواق والمحال، وداخلن الشوارع وقابلن الرجال، أن يضربن بخمرهن على جيوبهن ويمددن جلايبهن على وجوههن، فذلك أدفع للمحة الفاسق ونظرتها، وأسلم للعبد الصالح وعفته»^(١).

وهكذا يوصلنا التأمل في هذه النماذج الأدبية (الصاحبية) إلى نتيجة ثابتة لا تقبل الجدل هي: إن الصاحب أديب من الطراز الأول في عصره، وكاتب من ذوي القابلية الكبرى في هذا الفن، وأستاذ من أساتذة التصنيع المبرزين في القرن الرابع. وإن كل ما حاول أبو حيان تلفيقه ووضعه - وهو بصدد شتم الصاحب والوقية به - واضح البطلان ظاهر الخطأ مفضوح الغرض والهدف المقصود منه.

وإذا تركنا موضوع سجع الصاحب وازدواجه في نشره، وحاولنا الوقوف على الخصائص الأدبية الأخرى البارزة في كلامه وترسله، نجد أنه يعنى كثيراً بالاقتباس من القرآن الكريم والشعر الجيد والأمثال البليغة، واستخدام التشبيهات والاستعارات، واستعمال الأساليب البديعية استعمالاً جميلاً يتكرر في أكثر تعابيره.

ثم نجد أنه يكثر من حشر الجمل المعترضة والعبارات الفاصلة بين المبتدأ والخبر، والفعل ومفعوله، وفعل الشرط وجوابه، بالشكل الذي لم نعر على مثله عند كتاب ذلك القرن إلا فيما ندر.

فن شواهد فصله بين المبتدأ والخبر قوله:

«مواهبُ الله عند مولانا الملك السيد - وإن كانت فائتةً للتعديد،

ضامنة للمزيد، سابقة للحصر، غامرة للشكر، متجاوزة حدود العرف، ممتنعة على أيدي الإحصاء والسنة الوصف، مقبلة بالفتوح المتوالية، مشتملة على الكلم العالية، ناظمة أشتات العوائد، شافعةً غر المآثر بزهر المحامد - يحكم تفضل الله فيها باستعلاء نجمه»^(١).

ومن أمثلة فصله بين الفعل ومفعوله قوله:

«كنا أعلمناك - عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان في انتقاض عزيمته، واستمرار هزيمته، واستنقاذ الأجل دماءه من ظبي السيوف وقد شارفته، وشبا الحتوف وقد شافهته، وذهابه على وجهه فريداً موحداً، وطريداً مشرداً، لا يعلم أين المفر، وكيف المفر، قد احتملته رياح الخيفة، ومهابة الزانات المطيفة، واستأمن أتباعه متعرفين الخير في مباعده، كما تعرفوا الخسر في مساعدته - أنَّ وهسودان بن محمد قد طالت الدولة العالية مداجاته»^(٢).

ومن نماذج الفصل بين فعل الشرط وجوابه قوله:

«إذا تصفح أهل أصبهان ما فاض عليهم من بركات أيامنا، وانصب إليهم من ثمرات إنعامنا، وكثر من خبراتهم في ظل سلطاننا، وتوفر من سعاداتهم في كتف إحساننا، حتى عاد المرمل غنياً مستظهاً، والمُقوي موسراً مكثراً، والمستتر المخفي لشخصه مباحياً بحاله، والمنقبض المكاتم لنفسه مسامياً بماله، ومن كانت السلامة معظم مناه، والأمن غاية ما يسمو إليه مداه، تشير إليه الأصابع وتنعطف عليه، وتفتياً أفناء الناس أفنية الخصب والدعة، بعد البؤس والمترية، وتفسحوا في ضروب اللذات، بعد التشحط في حصول الأقوات، هذا إلى ما تعمدنا به صنفاً

(١) رسائل الصاحب: ١٥.

(٢) رسائل الصاحب: ١٦.

صنفاً من فضل امتدّ باعه، ونظير اتسعت رباعه، وتسويغ كبر قدره،
وتحويل فرض شكره - علموا...»^(١).

شعر ابن عبّاد:

وإذا انتقلنا إلى شعر الصاحب نجد أن مذهب التصنيع والزخرفة اللفظية والأساليب البديعية قد أثر أثره البارز في شعر ابن عبّاد، ونقش ملامحه الواضحة في كل منظومه، فجاء أكثره ظاهر الصناعة والتكلف والتحمل، وإن ورد فيه بعض القطع والأبيات التي تعد في الرتبة العليا من الأدب العربي صفاء نغم، وانتفاء لفظ، ورقة معنى، وروعة صياغة.

وكان اهتمام الصاحب بتضمين قصائده بعض القصص والحوادث والروايات والمناقشات ذا تأثير كبير على شعره بوجه عام، وعلى ما ارتبط منه بالنواحي الدينية والمذهبية التي حاول بحثها وإقامة الأدلة على ما اختار منها نظماً على الأخص، فجاء شعره المتعلق بهذه الشؤون متأرجحاً متنوعاً يسمو مرة ويهبط مرّات.

وإذا رجعنا إلى ديوانه المخطوط لنقرأ فيه أساليب التصنيع نجد أن الصاحب قد خطا في الزخرفة خطوات كبرى لم يُعرف مثلها ولم يشاهد نظيرها عند غيره من شعراء عصره وأدباء عهده، ولعلّ لثرائه اللغوي يداً في هذه الزخرفة المعقدة المعتمدة على مجموعة كبرى من الأدوات اللفظية التي لا تتسنى لغير أعلام اللغة ورجالها المتمرسين.

ولنقرأ له هذه النماذج المسجلة في أدناه لنعرف مقدار ما كان له من يدٍ في فن التصنيع والزركشة:

(١) نفس المصدر: ١٧٥.

١ - قال من قصيدة في أصول الدين :

قالت: أبا القاسم استخففت بالغزل
قالت: أريد اعتذاراً منك تظهريه
قالت: الحُح على تكرير مسألتي
قالت: أريد رشاداً منك أتبعه
فقلت: ما ذاك من همي ولا شغلي
فقلت: عذراً وما أخشى من العذلِ
فقلت: ما أنا عن رأيي بذئ حولِ
فقلت: سمعاً فإن الرشد من قبلي
ويستمر في القصيدة على هذا النحو من (قالت - قلت) حتى
يوصلها في العدد إلى (٦٠) بيتاً.

٢ - وقال من قصيدة يخاطب بها الإمام علياً (ع):

أنت الذي بسيفه
أنت الذي في الوحي تب
أنت الذي نام على الـ
ورمحه السدين كمل
ييين علاه قد نزل
فراش في ليل الوجل
ويسير على التزامه بابتداء كل بيت بلفظ «أنت الذي» حتى تبلغ
القصيدة (٤٩) بيتاً.

٣ - وقال من أخرى في مدح الإمام علي (ع):

ألف: أمير المؤمنين علي
تاء: توى أعداءه بحسامه
جيم: جرى في خير أسباق العلا
باء: به ركن اليقين قوي
ثاء: ثوى حيث السماك مضئ
حاء: حوى العلياء وهو صبي
وهكذا يتسلسل في هذا الأسلوب حتى آخر الحروف الهجائية، ثم
يعلن اعتزازه وتبجحه بهذا النحو من الصناعة فيقول:

أهدى ابن عباد إليه هذه
يرجو بها حُسن الشفاعة عنده
غراء لم يفتن لها شيعي
حَسَنُ اللاوء موحدٌ عدلي

٤ - ويقول في قصيدة رابعة:

مشيب عراه لو يدوم مشيبُ
مشيب به ثوب الرشاد قشيبُ
قشيب ولكن يخلق المرء عنده
ويلقى ضروب الإنس وهو مريبُ
مريب إذا ما قيل هل تذكر الظبا
وعهدي بجنب الجانبين يطيبُ

ويستمر على هذا الشكل من جعل كل قافية كلمة أولى من صدر البيت الذي يليها حتى يبلغ بالأبيات (٣٣) بيتاً .

٥ - واشتد بالصاحب حبه للزخرفة والصنعة فنظم قصيدة كاملة خالية من حرف الألف، ثم أعجبه هذا الإغراب في النظم فعمل عدة قصائد خلّت كل واحدة منها من حرف من حروف الهجاء ما عدا الواو، حيث عجز عن نظم قصيدة بدونه^(١)، ومن حسن الحظ أن يضم ديوان الصاحب قصدين من هذه القصائد المتكلفة تعطينا صورة كاملة عن القصائد الأخرى.

فمما جاء في قصيدته الخالية من الألف قوله :

قد ظلّ بجرح صدري
من ليس يعدوه فكري
ظبي بصفحة بدرٍ
يزهوبه سطر شغري
كم ملت فيه لوصلي
وكم يميل لهجر
يغري عمومي بقلبي
فكم يجور ويغري
وقال في ختامها :

كوفي خذه فطبعي
قد زفّ درة بحر
بدفقة لم تُنشُر
لغير طبعي وفكري
تمت على حذف حرف
يدور في كل ذكر
ومعجزي مستمر
في مد نظمي ونثري

(١) تاريخ آداب العرب: ٣/٣٨٣.

فلن يحلَّ لِحُرِّ تشبيهه شعري بشعري

وجاء في مطلع قصيدته الخالية من السين :

يا وصل مالك لا تعاوذاً يا هجر مالك لا تباعدوا
أين التصافح والتعا نق والقلائد والولائد

إلى أن يقول في آخرها :

يا أيها الكوفي هـ أوردتها ترمي النوا
ضحَّت بهم في عيد أض وحذفت أخت الشين من
وذي غرّة بين القصائد صبّ بالصوائب والصوارذ
حى إنهم نعم شوارذ مها عن طلاب أخ معانذ

ومن شعره المتضمن لبعض مباحث أصول الدين قوله :

أتانا بذكرٍ محكم من كلامه هو الحجة العليا لمن يتسدّد
وإن قال أقوام: قديم لأنه كلام له فانظر إلى أين صعّدوا
كذاك النصراني في المسيح مقالها وقد شردوا عن ديننا فتشردوا
فتبّاً لهم إذ عاندوا فتنصّروا وويلاً لهم إذ كابدوا فتهوّدوا
وإن سُقَّتْ ما قالوه في الجبر ضلّةً خشيت جبال الأرض منه تهدّد
يقولون: إن الله يخلق نسمة ليُشتم كلاً فهو أعلى وأمجد
وأخلص مدحي للنبي محمدٍ وذريّة منها النبيّ محمد
نبيّ أقام الدينَ والدينُ مائل وأوهى قناة الكفر وهي تشدّد
وأوصى إلى خير الرجال ابن عمه وإن ناصب الأعداء فيه فما هدوا
هو البدر في هيجاء بدرٍ وغيره فرائضه من ذكّرة السيف ترعد
وكم خبيرٍ في خيبرٍ قد رويتم ولكنكم مثل النعام تشردّد
وفي أحدٍ ولّى رجال وسيفه يسود وجه الكفر وهو مسودّد

وبإزاء هذا الشعر المتصنع المتكلف الذي مرّت الشواهد عليه نجد
للمصاحب من الشعر الجميل الرصين الرائع المعنى؛ الصافي النبرات؛
الحلو الجرس، ما تداولته الرواة وسارت به الركبان، وزهت به كتب
الأدب العربي، كقوله:

وشمعة قُدمت إلينا تجمع أوصاف كل صبّ
صفرة لونٍ وذوب جسمٍ وفيض دمعٍ وحرّ قلبٍ
وقوله:

رقّ الزجاج ورقت الخمرُ فتشابهها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمر ولا قدحُ وكأنما قدح ولا خمرُ
وقوله:

يا خاطراً يخطر في تيهه ذكرك موقوف على خاطري
إن لم تكن آثر من ناظري عندي فلا مُتَعَتُ بالناظرِ
وقوله:

قال لي: إن رقيبِي سيء الخلق فدارة
قلت: دعني وجهك الجند نة حُقَّتْ بالمكارة
وقوله:

تصدّ أميمة لما رأث مشيباً على عارضي قد فرش
فقلت لها: الشيب نقش الشبا ب فقالت: ألا ليته ما نقش
وقوله:

دعتني عيناك نحو الصبا دعاءً تكرر في كل ساعة
فلولا - وحقك - عذر المشي ب لقلت لعينيك: سمعاً وطاعة

وقوله:

وقائلةٍ لِمَ عرثكُ الهمو مُ وأمركُ ممثثل في الأُمم
فقلت: دعيني وما قد عرا فان الهوم بقدر الهمم

وقوله مخاطباً صديقاً له وقد أرسل له أبياتاً يشكو فيها من ابتلائه
بداء النقرس:

عَناني من الهَم ما قد عَناني فأعطيت صرف الليالي عَناني
ألفُ الدموع وعفت الهجو ع فعيناي عينان نَصّاختانِ
لسقمِ ألحّ على سيدِ به قد غفرت ذنوب الزمانِ
أحاط برجليه جوراً عليـ ه وأتى ونعلاهما الفرقدانِ
وكيف سطا بهما واستطا ل وأرض بساطهما التيرانِ

إلى أن يقول:

أتتني بالأمس أبياتُه تعلل روعي بروح الجنانِ
كُبرد الشباب وبُرد الشرا ب وظل الأمان ونيل الأمانِي
وعهد الصبا ونسيم الصبا وصفو الدنان ورجع الفيانِ
فلو أن أفاظها جسمت لكانت عقود نحور الغواني

بالانتهاء إلى هنا نقف بالقلم فنختم هذه الدراسة المتواضعة برجاء
أن تكون وافية بإعطاء صورة كافية للصاحب بن عباد وتاريخه الحافل
وأثره الكبير في دنيا السياسة والعلم والأدب العربي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين



المصادر والمراجع

- ١ - آثار الشيعة الإمامية: عبد العزيز الجواهري «فارسي».
- ٢ - الآداب السلطانية: ابن الطقطقي.
- ٣ - الإبانة: صاحب بن عبّاد.
- ٤ - ابن العميد: خليل مردم.
- ٥ - أبو حيان التوحيدي: عبد الرزاق محي الدين.
- ٦ - أحسن التقاسيم: المقدسي.
- ٧ - أخبار أصبهان: أبو نعيم.
- ٨ - الإرشاد: أبو القاسم القوبائي.
- ٩ - أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب.
- ١٠ - الأعلام: الزركلي.
- ١١ - أعيان الشيعة: محسن الأمين.
- ١٢ - الإقناع: صاحب بن عبّاد «مخطوط».
- ١٣ - الامتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي.
- ١٤ - الأمثال السائرة: صاحب بن عبّاد.
- ١٥ - أمل الآمل: الحر العاملي.

- ١٦ - أنباء الرواة: القفطي .
- ١٧ - الأنساب: السمعاني .
- ١٨ - أنوار الربيع: علي (خان) بن أحمد بن معصوم .
- ١٩ - بحار الأنوار: المجلسي .
- ٢٠ - البداية والنهاية: ابن كثير .
- ٢١ - بغية الوعاة: السيوطي .
- ٢٢ - تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي .
- ٢٣ - تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان .
- ٢٤ - تاريخ ابن الشحنة:
- ٢٥ - تاريخ أبي الفداء:
- ٢٦ - تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات .
- ٢٧ - تاريخ الأدب العربي: بروكلمان «بالألمانية» .
- ٢٨ - تاريخ أدبيات إيءان: ذبيح الله صفا «فارسي» .
- ٢٩ - تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي .
- ٣٠ - تاريخ التربية الإسلامية: أحمد شلبي .
- ٣١ - تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متر «الترجمة العربية» .
- ٣٢ - تاريخ قم: الحسن القمي «فارسي» .
- ٣٣ - تأسيس الشيعة: حسن الصدر .
- ٣٤ - تتمة المنتهى: عباس القمي .

- ٣٥ - تنمة اليتيمة: الثالبي .
- ٣٦ - تجارب الأمم: مسكويه .
- ٣٧ - التذكرة: الصاحب بن عبّاد .
- ٣٨ - ثقافة الهند: مجلس الروابط الثقافية «مجلة» .
- ٣٩ - الخطط والآثار: المقرئزي .
- ٤٠ - دائرة المعارف: البستاني .
- ٤١ - دائرة المعارف الإسلامية: لجنة من المستشرقين «الترجمة العربية» .
- ٤٢ - ديوان الشريف الرضي :
- ٤٣ - ديوان الصاحب بن عبّاد: «مخطوط» .
- ٤٤ - الذريعة: آقا بزرك الطهراني .
- ٤٥ - ذيل تجارب الأمم: أبو شجاع .
- ٤٦ - الرجال: أبو العباس النجاشي .
- ٤٧ - الرسائل: أبو إسحاق الصابي .
- ٤٨ - الرسائل: أبو بكر الخوارزمي .
- ٤٩ - الرسائل: الصاحب بن عبّاد .
- ٥٠ - رسالة في أحوال عبد العظيم: الصاحب بن عبّاد .
- ٥١ - روضات الجنات: الخونساري .
- ٥٢ - شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي .
- ٥٣ - شرح المنظومة الفريدة: البهلولي «مخطوط» .

- ٥٤ - الصاحبى: ابن فارس.
- ٥٥ - الظرائف واللطائف: الشعلى.
- ٥٦ - ظهر الإسلام: أحمد أمين.
- ٥٧ - العبر - تاريخ -: ابن خلدون.
- ٥٨ - عمدة الطالب: الداوودى.
- ٥٩ - عنوان المعارف: الصاحب بن عبّاد.
- ٦٠ - عيون أخبار الرضا: الصدوق.
- ٦١ - عيون الأنباء: ابن أبى أصبغة.
- ٦٢ - الغدير: عبد الحسين الأمينى.
- ٦٣ - فرج المهموم: ابن طاووس.
- ٦٤ - الفرق بين الضاد والظاء: الصاحب بن عبّاد «مخطوط».
- ٦٥ - فلسفة المعتزلة: البير نصري نادر.
- ٦٦ - الفن ومذاهبه فى الشعر: شوقى ضيف.
- ٦٧ - الفن ومذاهبه فى النثر: شوقى ضيف.
- ٦٨ - الفهرست: ابن النديم.
- ٦٩ - الكامل فى التاريخ: ابن الأثير.
- ٧٠ - كشف الظنون: حاجى خليفة.
- ٧١ - الكشف عن مساوىء شعر المتنبى: الصاحب بن عبّاد.
- ٧٢ - الكشكول: بهاء الدين العاملى.

- ٧٣ - كمال البلاغة: قابوس بن وشمكير .
- ٧٤ - الكنى والألقاب: عباس القمي .
- ٧٥ - اللباب: ابن الأثير .
- ٧٦ - لسان العرب: ابن منظور .
- ٧٧ - لسان الميزان: ابن حجر .
- ٧٨ - مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي .
- ٧٩ - محاسن أصفهان: المافروخي .
- ٨٠ - المحيط: الصاحب بن عبّاد «مخطوط» .
- ٨١ - المزهر: السيوطي .
- ٨٢ - معالم العلماء: ابن شهرآشوب .
- ٨٣ - معاهد التنصيص: عبد الرحيم العباسي .
- ٨٤ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي .
- ٨٥ - معجم البلدان: ياقوت الحموي .
- ٨٦ - المقتطف: فؤاد صروف «مجلة» .
- ٨٧ - الملل والنحل: الشهرستاني .
- ٨٨ - المنتظم: ابن الجوزي .
- ٨٩ - منتهى المقال: أبو علي محمد بن إسماعيل .
- ٩٠ - المنظومة الفريدة: الصاحب بن عبّاد «مخطوط» .
- ٩١ - المنية والأمل: ابن المرتضى .

- ٩٢ - النثر الفني في القرن الرابع: زكي مبارك.
- ٩٣ - النجوم الزاهرة: ابن تغري بردى.
- ٩٤ - نزهة الألباء: ابن الأنباري.
- ٩٥ - نفائس المخطوطات: محمد حسن آل ياسين.
- ٩٦ - النقد المنهجي عند العرب: محمد مندور.
- ٩٧ - نهاية الأرب: النويري.
- ٩٨ - الهداية والضلالة: صاحب بن عبّاد.
- ٩٩ - هدية الأحباب: عباس القمي.
- ١٠٠ - هدية العارفين: إسماعيل البغدادي.
- ١٠١ - الوساطة بين المتنبّي وخصومه: علي بن عبد العزيز الجرجاني.
- ١٠٢ - الوسيط في الأدب العربي: الاسكندري وصاحبه.
- ١٠٣ - وفيات الأعيان: ابن خلّكان.
- ١٠٤ - يتيمة الدهر: الثعالبي.
- ١٠٥ - اليقين: ابن طاووس.



مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّعْمَانِيُّ

«الشَّيْخُ الْمُفِيدُ»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هناك في أحضان «عكبراء»^(١) الوادعة، وفي موضع منها يعرف بـ«سويقة ابن البصري»^(٢)، أهل على الدنيا مولود جديد، تنطق ملامحه بمخائل ذكاء، وتضج قسماته بسمات نبوغ، وتعلن أساريه - بصمتها المعبر - مولد إنسان من طراز فريد هو «أبو عبد الله» المفيد «محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام بن جابر بن النعمان بن سعيد بن جبير بن وهب بن هلال بن أوس بن سعيد بن سنان بن عبد الدار بن الريان (رثاب) بن قطر(ب) بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب بن غلة بن خالد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»^(٣).

ولد - رحمه الله - يوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة / ٩٤٧م - وقيل سنة ثمان وثلاثين -^(٤) متحدرًا من

(١) عكبراء: بليدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. معجم البلدان: ٢٠٣/٦.

(٢) السرائر لابن إدريس: الصفحة قبيل الأخيرة - والكتاب على ضخامته غير مرقم الصفحات -.

(٣) رجال النجاشي: ٢٨٣ - ٢٨٤ ومجمع الرجال: ٣٤/٦ ورجال بحر العلوم: ٣/٣٢٣. وبين هذه المصادر اختلاف في رسم بعض الأسماء.

(٤) فهرست ابن النديم: ٢٧٩ ورجال النجاشي: ٢٨٧ وفهرست الطوسي: ١٥٨ ومعالم العلماء: ١٠٠ ورجال ابن داود: ٣٣٣ والخلاصة: ٧٢ وبروكلمان - الترجمة العربية -: ٣٤٩/٣.

أصلا ب كريمة الحسب، صريحة النسب، زاكية المحتد والنجار. وترعرع في كنف والده الذي لم نعرف من أخباره سوى كونه معلماً بواسط^(١)، ولذلك كان يكنى ولده بـ«ابن المعلم»^(٢).

وما أن تجاوز المفيد سني الطفولة وأتقن مبادئ القراءة والكتابة حتى انحدر به أبوه - وهو صبي - إلى بغداد^(٣) حاضرة العلم ومهوى أفئدة المتعلمين.

وسارع هذا الصبي أثر قدومه بغداد إلى حضور مجلس درس الشيخ أبي عبد الله الحسين بن علي المعروف بالجمل بمنزله بدرج رباح، ثم قرأ على أبي ياسر غلام أبي الجيش بباب خراسان^(٤).

وفي أثناء قراءته على أبي ياسر اقترح عليه أستاذه هذا أن يكثر التردد على مجلس المتكلم الشهير علي بن عيسى الرماني المعتزلي، ففعل، ويحدثنا المفيد عن زيارته الأولى للرماني فيقول:

«... دخلت عليه والمجلس غاص بأهله، وقعدت حيث انتهى بي المجلس، فلما خفَّ الناس قربت منه، فدخل عليه داخل... وطال الحديث بينهما، فقال الرجل لعلي بن عيسى: ما تقول في يوم الغدير والغار؟ فقال: أما خبر الغار فدراية وأما خبر الغدير فرواية، والرواية لا توجب ما توجه الدراية، وانصرف... فقلت: أيها الشيخ مسألة؟ فقال:

(١) لسان الميزان: ٣٦٨/٥. واسط: اسم لمدن كثيرة، والمقصود به هنا واسط الدجيل التي تبعد عن بغداد ثلاثة فراسخ: معجم البلدان: ٣٨٥/٨.

(٢) فهرست ابن النديم: ٢٥٢ و ٢٧٩ وتاريخ بغداد: ٣٣١/٣ وفهرست الطوسي: ١٥٨ والمنتظم: ١١/٨ والكامل: ٣١٢/٧ ورجال ابن داود: ٣٣٣ ولسان الميزان: ٣٦٨/٥ وميزان الاعتدال: ٢٦/٤ وشدرات الذهب: ١٩٩/٣.

(٣) السرائر: الصفحة قبل الأخيرة.

(٤) المصدر السابق: نفس الصفحة.

هات مسألتك، فقلت: ما تقول فيمن قاتل الإمام العادل؟ قال: يكون كافراً، ثم استدرك فقال: فاسق، فقلت: ما تقول في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)؟ قال: إمام، قلت: ما تقول في يوم الجمل وطلحة والزبير؟ فقال: تابا، فقلت: أما خبر الجمل فدراية وأما خبر التوبة فرواية، فقال لي: كنتَ حاضراً وقد سألتني البصري؟ فقلت: نعم، رواية برواية ودراية بدراية. فقال بمن تُعرَف وعلى من تقرأ؟ قلت: أعرف بابن المعلم وأقرأ على الشيخ أبي عبد الله الجعل، فقال: موضعك، ودخل منزله وخرج ومعه ورقة قد كتبها وألصقها، فقال لي: أوصل هذه الرقعة إلى أبي عبد الله، فجئت بها إليه، فقرأها ولم يزل يضحك بينه وبين نفسه، ثم قال: إيش جرى لك في مجلسه فقد وَّصاني بك ولقبك المفيد فذكرت المجلس بقصته^(١).

وهكذا بدأ هذا الشاب اليافع دراسته في بغداد، مختاراً لها نخبة من أعلام عصره، وواهباً إياها كل فراغه ووقته، وبإذلاً في سبيلها كل طاقته وجهده، فكان من نتاج ذلك هذا العَلم الكبير الشهير.



ولتوضيح مدى الجهود التي بذلها المفيد في سبيل التفقه والتعلم نورد فيما يأتي ثبناً بأسماء الرجال الذين قرأ عليهم وروى عنهم ونهل من نيرهم:

- ١ - أحمد بن إبراهيم بن أبي رافع، أبو عبد الله، الصيمري.
- ٢ - أحمد بن الحسين بن أسامة، أبو الحسين، البصري.
- ٣ - أحمد بن محمد بن جعفر، أبو علي، الصولي.
- ٤ - أحمد بن محمد بن الحسن، أبو الحسن، القمي.

(١) نفس المصدر السابق أيضاً.

- ٥ - أحمد بن محمد بن سليمان، أبو غالب، الزراري.
- ٦ - أحمد بن محمد بن طرخان، أبو الحسين، الجرجرائي.
- ٧ - أحمد بن محمد بن عيسى، أبو محمد، العلوي.
- ٨ - إسماعيل بن محمد، أبو القاسم، الأنباري.
- ٩ - إسماعيل بن يحيى، أبو أحمد، العيسي.
- ١٠ - جعفر بن محمد بن قولويه، أبو القاسم، القمي.
- ١١ - الحسن بن حمزة بن علي، أبو محمد، الطبري.
- ١٢ - الحسن بن عبدالله، أبو علي، القطان.
- ١٣ - الحسن بن الفضل، أبو علي، الرازي.
- ١٤ - الحسن بن محمد بن يحيى، أبو محمد، العطشي.
- ١٥ - الحسين بن أحمد بن المغيرة، أبو عبدالله.
- ١٦ - الحسين بن أحمد بن موسى بن هدية، أبو عبدالله.
- ١٧ - الحسين بن علي بن سفيان، أبو عبدالله، البزوفري.
- ١٨ - الحسين بن علي بن شيبان، أبو عبدالله، القزويني.
- ١٩ - الحسين بن علي بن محمد، أبو الطيب، النمار.
- ٢٠ - زيد بن محمد بن جعفر، أبو الحسن، العلمي.
- ٢١ - عبدالله بن جعفر بن محمد، البزاز.
- ٢٢ - عبدالله بن محمد، أبو محمد، الأبهري.
- ٢٣ - عثمان بن أحمد، أبو عمرو، الدقاق.
- ٢٤ - علي بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن، الكاتب.
- ٢٥ - علي بن بلال، أبو الحسن، المهلبى.
- ٢٦ - علي بن حبش، الكاتب.
- ٢٧ - علي بن الحسين، أبو الحسن، البصري البزاز.
- ٢٨ - علي بن خالد، أبو الحسن، المراغي.

- ٢٩ - علي بن عبدالله بن وصيف، أبو الحسين، الناشي.
- ٣٠ - علي بن مالك، أبو الحسن، النحوي.
- ٣١ - علي بن محمد بن خالد، أبو الحسن.
- ٣٢ - عمر بن محمد بن سالم، أبو بكر، الجعابي.
- ٣٣ - عمر بن محمد بن علي، أبو حفص، الصيرفي.
- ٣٤ - محمد بن أحمد، أبو الطيب، الثقفي.
- ٣٥ - محمد بن أحمد، أبو بكر، الشافعي.
- ٣٦ - محمد بن أحمد بن الجنيد، أبو علي، الإسكافي.
- ٣٧ - محمد بن أحمد بن داود، أبو الحسن، القمي.
- ٣٨ - محمد بن أحمد بن عبدالله، أبو عبدالله، الصفواني.
- ٣٩ - محمد بن أحمد بن عبدالله، المنصوري.
- ٤٠ - محمد بن جعفر بن محمد، أبو الحسن، التميمي.
- ٤١ - محمد بن الحسن، أبو عبدالله، الجواني.
- ٤٢ - محمد بن الحسين، أبو نصر، البصير الشهرزوري.
- ٤٣ - محمد بن الحسين، أبو نصر، الخلال.
- ٤٤ - محمد بن داود، أبو عبدالله، الحتمي.
- ٤٥ - محمد بن سهل بن أحمد، الديقجي.
- ٤٦ - محمد بن علي بن الحسين، أبو جعفر، الصدوق.
- ٤٧ - محمد بن علي بن رياح، أبو عبدالله، القرشي.
- ٤٨ - محمد بن عمر، أبو جعفر، الزيات.
- ٤٩ - محمد بن عمر بن محمد، أبو بكر، الجعابي.
- ٥٠ - محمد بن عمر بن يحيى، العلوي، الحسيني.
- ٥١ - محمد بن عمران، أبو عبدالله، المرزباني.
- ٥٢ - محمد بن محمد بن طاهر، أبو عبدالله، الشريف.

- ٥٣ - محمد بن مظفر، أبو الحسين، البزاز.
 ٥٤ - محمد بن المظفر، أبو الحسن، الوراق.
 ٥٥ - المظفر بن محمد، أبو الجيش، البلخي.
 ٥٦ - هارون بن موسى، أبو محمد، التلعكبري^(١).



قرأ على المفيد كثير من فقهاء ذلك العصر وأعلامه و«تخرَّج به جماعة»^(٢)، وكان من جملة طلابه:

- الشريف الرضي، محمد بن الحسين، المتوفى سنة ٤٠٦هـ.
 الشريف المرتضى، علي بن الحسين، المتوفى سنة ٤٣٦هـ^(٣).
 سلار بن عبد العزيز، الديلمي، المتوفى سنة ٤٤٨هـ.
 محمد بن علي، الكراچكي، المتوفى سنة ٤٤٩هـ.

(١) اقتبسنا هذا الثبت من فهرست الطوسي: ٦ و ١٨ و ٨٩ ومجمع الرجال: ٢٠٦/٧ ومعاليم العلماء: ١٠١ ومستدرك الوسائل للنوري: ٣/٥٢٠ - ٥٢١ ومقدمة الطبعة الجديدة من البحار: ٧٤/١ - ٧٧.

(٢) لسان الميزان: ٣٦٨/٥.

(٣) ومن طرائف ما يروى في صدد تلمذة الشريفين عليه ما رواه ابن أبي الحديد المعتزلي عن فخار بن معد الموسوي قال:

«رأى المفيد أبو عبد الله محمد [بن محمد] بن النعمان الفقيه الإمامي في منامه كأن فاطمة بنت رسول الله (ص) دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين (ع) صغيرين، فسلمتهما إليه وقالت له: علمهما الفقه، فانتبه متعجباً من ذلك. فلما تعالَى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إلى المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواربها وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها، فقالت له: أيها الشيخ هذان ولداي قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه، فيكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام وتولى تعليمهما الفقه».

يراجع شرح نهج البلاغة: ٤١/١ - طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم -.

أحمد بن علي النجاشي، المتوفى سنة ٤٥٠هـ.
 الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، المتوفى سنة ٤٦٠هـ^(١).
 محمد بن الحسن بن حمزة، الجعفري، المتوفى سنة ٤٦٣هـ.
 وكثيرون غيرهم^(٢).



عاصر المفيد - في التاريخ السياسي - فترة انكماش الدولة العباسية وضعفها ووهنها، أيام سيطرة أمراء الأقاليم على حكم أقاليمهم وتولي بني بويه شؤون السلطة في بغداد. وحُظي هذا الشيخ - بسبب تشيع بني بويه - بما لم يحظ به غيره من أمثاله من ضروب الإعزاز والتقدير والجلالة العظيمة في الدولة البويهية^(٣)، فكانت له «صولة عظيمة بسبب عضد الدولة»^(٤)، كما «كانت له وجاهة عند ملوك الأطراف لميل كثير من أهل ذلك الزمان إلى التشيع»^(٥)، وبلغ من احترام عضد الدولة له أنه «كان يزوره في داره ويعوده إذا مرض»^(٦).

وعلى الرغم من كل هذه «الوجاهة» و«الجلالة» فقد اضطرت السلطات الحاكمة - قمعاً للفتن الطائفية والاضطرابات المذهبية - إلى نفيه مرتين إلى خارج بغداد:

(١) وقد ذكر الطوسي في فهرسته: ١٥٨ عشرين كتاباً من مؤلفات المفيد يروها عن مؤلفها قراءة وسماعاً.

(٢) يراجع في أسماء طلاب المفيد: البداية والنهاية: ١٥/١٢ والنجوم الزاهرة: ٤/٢٥٨ ومقدمة الطبعة الجديدة من البحار: ٧٨/١.

(٣) شذرات الذهب: ٣/٢٠٠، ويراجع ميزان الاعتدال: ٤/٢٦ والنجوم الزاهرة: ٤/٢٥٨.

(٤) لسان الميزان: ٥/٣٦٨ وميزان الاعتدال: ٤/٣٠.

(٥) البداية والنهاية: ١٥/١٢، ويراجع المنتظم: ٨/١١ والنجوم الزاهرة: ٤/٢٥٨.

(٦) لسان الميزان: ٥/٣٦٨، وشذرات الذهب: ٣/٢٠٠.

أولاًها: في سنة ٣٩٣هـ عندما اختلّت الأوضاع ببغداد، حيث «بعث بهاء الدولة عميد الجيوش أبا علي بن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر أمره، فوصل إلى بغداد فزُيّنَتْ له، وقمع المفسدين، ومنع السنة والشيعية من إظهار مذاهبهم، ونفى بعد ذلك ابن المعلم فقيه الإمامية، فاستقام البلد»^(١).

ثانيها: في سنة ٣٩٨هـ عندما جرت في عاشر شهر رجب فتنة بين أهل الكرخ والفقهاء بقطيعة الربيع. وكان السبب أن بعض «أهل باب البصرة قصد أبا عبد الله محمد [بن محمد] بن النعمان المعروف بابن المعلم - وكان فقيه الشيعة - في مسجده بدرب رباح وتعرض به تعرضاً امتعض منه أصحابه، فساروا واستنفروا أهل الكرخ... ونشأت من ذلك فتنة عظيمة... وبلغ ذلك الخليفة فأحفظه وأنفذ الخول الذين على بابه لمعاونة أهل السنة، فبلغ الخبر إلى عميد الجيوش فسار ودخل بغداد، فراسل أبا عبد الله ابن المعلم فقيه الشيعة بأن يخرج عن البلد ولا يساكنه، ووكل به، فخرج في ليلة الأحد لسبع بقين من رمضان... فسأل علي بن مزيد في ابن المعلم، فَرَدَّ»^(٢).



وكان للدور العلمي البارز الذي قام به المفيد في عصره أثر كبير في اشتهاار اسمه وشيوع ذكره، فحفلت كتب الرجال والتاريخ بالترجمة له والتحدث عن سيرته، وساق لفيف من المؤرخين خلال الترجمة كلمات الإطراء وجمل الثناء بما لا مزيد عليه، وانساق لفيف آخر منهم مع وحي

(١) الكامل: ٢١٨/٧.

(٢) المنتظم: ٢٣٧/٧ - ٢٣٨، وراجع الكامل: ٢٣٩/٧ والبداية والنهاية: ٣٣٨/١١.

عواطفهم فاندفعت أقلامهم نحو الطعن والشتم والتشهير. ولما كانت كلمات الثناء والطعن - على تضادها - أصدق طريق لتوضيح الملامح الأساسية لهذا الرجل فإننا نورد نماذج منها لمعرفة تلك الملامح على واقعها الطبيعي الناصع:

١ - أبو حيان التوحيدي:

«وأما ابن المعلم فحسن اللسان والجدل، صبور على الخصم، كثير الحيلة، ضنين السر، جميل العلانية»^(١).

٢ - الخطيب البغدادي:

«شيخ الرافضة، والمتعلم على مذاهبهم. صنف كتباً كثيرة في ضلالتهم!! والذب عن اعتقاداتهم ومقالاتهم!!... وكان أحد أئمة الضلال!!»^(٢).

٣ - ابن النديم:

«في عصرنا انتهت رياسة متكلمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطر، شاهدته فرأيته بارعاً»^(٣).

٤ - النجاشي:

«شيخنا وأستاذنا رضي الله عنه. فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والثقة والعلم»^(٤).

(١) الامتاع والمؤانسة: ١/١٤١.

(٢) تاريخ بغداد: ٣/٢٣١.

(٣) الفهرست: ٢٥٢ و٢٧٩.

(٤) رجال النجاشي: ٢٨٣ - ٢٨٤.

٥ - الطوسي:

«انتهت إليه رياسة الإمامية في وقته، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب»^(١).

٦ - ابن أبي طي:

«شيخ مشايخ الصوفية، ولسان الإمامية، رئيس الكلام والفقهِ والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة»^(٢).

٧ - ابن كثير:

«شيخ الإمامية الروافض، والمصنف لهم، والمحامي عن حوزتهم»^(٣).

٨ - العلامة الحلبي:

«من أجل مشايخ الشيعة، ورئيسهم، وأستاذهم، وكل من تأخر عنه استفاد منه، وفضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية، أوثق أهل زمانه وأعلمهم. انتهت رياسة الإمامية إليه في وقته»^(٤).

٩ - ابن حجر:

«كان كثير التقشف والتخشع والإكباب على العلم... وبرع في مقالة الإمامية حتى كان يقال: له على كل إمامي منة»^(٥).

(١) الفهرست: ١٥٨.

(٢) شذرات الذهب: ١٩٩/٣ - ٢٠٠.

(٣) البداية والنهاية: ١٥/١٢.

(٤) الخلاصة: ٧٢.

(٥) لسان الميزان: ٣٦٨/٥.

١٠ - ابن تغري بردى:

«فقيه الشيعة وشيخ الرافضة وعالمها ومصنف الكتب في مذهبها»^(١).



ووصف المؤرخون حياته الخاصة وصفاته الشخصية فذكروا في جملة ما ذكروا: أنه «كان شيخاً ربعة نحيفاً أسمر. كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، حسن اللباس، كثير التقشف والتخشع والإكباب على طلب العلم. ما كان ينام من الليل إلا هجعة ثم يقوم يصلي أو يطالع أو يتلو القرآن»^(٢).

وكان من أغرب ما قيل في هذا الباب ما ذكره ابن تغري بردى إذ قال: «كان ضالاً مضلاً هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته»^(٣)، ولست بمعلق على هذا القول بشيء، وإنما أترك للقارئ الكريم أن يعلق عليه بما يشار!!



صنّف وألّف ما وسعه الوقت، وخلّف من بعده تراثاً ضخماً لا يزال حتى اليوم مرجعاً للعلماء والمعنيين بشؤون الفكر الإسلامي. وذكر المؤرخون له قريباً من «مائتي مصنف كبار وصغار»^(٤) ووصفوها

(١) النجوم الزاهرة: ٢٥٨/٤.

(٢) يراجع في ذلك: لسان الميزان: ٣٦٨/٥ وشذرات الذهب: ٢٠٠/٣.

(٣) النجوم الزاهرة: ٢٥٨/٤.

(٤) فهرست الطوسي: ١٥٨ ومعالم العلماء: ١٠١ ورجال ابن داود: ٣٦٨/٥ وشذرات الذهب: ١٩٩/٣ و٢٠٠، ٣٣٣ والخلاصة: ٧٢ وميزان الاعتدال: ٤/٣٠ ولسان الميزان:

بـ«التصانيف البديعة»^(١)، وقد جرّدت فهرساً مفصلاً بكل تلك الكتب - مطبوعها ومخطوطها ومفقودها - لا مجال لإثباته في هذه العجالة، ونقتطف منه هنا أسماء مؤلفاته المطبوعة مرتبة على تسلسل الحروف الهجائية:

- ١ - أجوبة المسائل السروية: النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ٢ - الاختصاص: طهران - ١٣٧٩هـ.
- ٣ - الإرشاد: طهران - ١٢٩٧ و ١٣٠٨هـ.
- ٤ - أصول الفقه: ضمن كتاب «كنز الفوائد».
- ٥ - الأعلام: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٦ - الإفصاح: النجف - ١٣٦٨هـ.
- ٧ - الأمالي: النجف - ١٣٦٧هـ.
- ٨ - أوائل المقالات: تبريز - ١٣٧١هـ.
- ٩ - إيمان أبي طالب: بغداد - ١٣٨٣هـ.
- ١٠ - تفضيل أمير المؤمنين(ع): النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ١١ - الجمل: النجف - ١٣٨٢هـ.
- ١٢ - جوابات المسائل الجارودية: النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ١٣ - رسالة في تحقيق الخبر: النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ١٤ - رسالة في تحقيق لفظ المولى: النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ١٥ - رسالة في الرد على الباقلاني: النجف - المطبعة التجارية (د.ت).
- ١٦ - رسالة في سبب استتار الحجة(ع): النجف - ١٣٧٠هـ.

(١) ميزان الاعتدال: ٣٠/٤ ولسان الميزان: ٣٦٨/٥.

- ١٧ - رسالة في السهو: ضمن كتاب «البحار» ٢٩٧/٦.
- ١٨ - شرح عقائد الصدوق: تبريز - ١٣٧١هـ.
- ١٩ - الفصول المختارة: النجف - المطبعة الحيدرية (د.ت).
- ٢٠ - اللطيف من الكلام: تبريز - ١٣٧١هـ.
- ٢١ - مختصر في الغيبة: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٢٢ - المسائل الصاغانية: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٢٣ - المسائل العشرة في الغيبة: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٢٤ - مسار الشيعة: تبريز - ١٣١٣هـ.
- ٢٥ - مسألة في خبر مارية: بغداد - ١٣٧٥هـ.
- ٢٦ - مسألة في الغيبة: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٢٧ - مسألة فيمن مات ولم يعرف إمام زمانه: النجف - ١٣٧٠هـ.
- ٢٨ - مسألة في النص الجلي: بغداد - ١٣٧٥هـ.
- ٢٩ - المقنعة في الفقه: طهران - ١٢٧٦هـ.
- ٣٠ - النكت الاعتقادية: بغداد - ١٣٤٣هـ.
- ٣١ - الهداية في الفقه: طهران - ١٢٧٦هـ.

برز المفيد بين أعلام عصره بفن «المناظرة». والمناظرة بمعناها الصحيح ليست عملية مغالطة لفظية تتخذ من اللف والدوران طريقاً للتغلب على وجهة النظر الأخرى، وإنما تعتمد - فيما تعتمد - الموضوعية والمنهج والدليل المتفق عليه سبيلاً للاقناع ووضوح النتائج.

واشتهر المفيد بذلك بين الناس بمختلف آرائهم وطوائفهم، وذكر ابن الجوزي أنه «كان لابن المعلم مجلس نظر بداره بدرج رباح يحضره

كافة العلماء»^(١)، وزاد ابن كثير الدمشقي في وصف هذا المجلس بقوله: «كان مجلسه يحضره خلق كثير من العلماء من سائر الطوائف»^(٢).

ومن ذلك كله نعرف مدى أهمية هذا المجلس ومدى اتقان صاحبه لفن «المناظرة» بكل ما تعطيه كلمة المناظرة من معان ودلائل.

ولما كان مجالنا - هنا - محدوداً لا يتسع لرواية نماذج من هذه المناقشات فإني أحيل الراغب في الاطلاع على أسلوب المفيد ومنهجه في مناظراته على الرجوع إلى كتابه «الفصول المختارة من العيون والمحاسن» المطبوع في النجف الأشرف؛ ليكون على بينة من الأمر.



توفي - رحمه الله - ليلة الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٤١٣هـ^(٣) (أول ديسمبر ١٠٢٢م)^(٤)، وشيعه ثمانون ألفاً من الباكين عليه^(٥)، وصلى عليه تلميذه الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي بميدان الأشنان^(٦) - وهو الميدان الرئيس بكرخ بغداد^(٧) -، وضاق على الناس مع كبره^(٨). ودفن بداره ببغداد، ثم نقل إلى الكاظمية فدفن بمقابر

(١) المتنظم: ١١/٨.

(٢) البداية والنهاية: ١٥/١٢.

(٣) تاريخ بغداد: ٢٣١/٣ وفهرست الطوسي: ١٥٨ ورجال النجاشي: ٢٨٧ ومعالم العلماء: ١٠١ والكامل: ٣١٣/٧ والبداية والنهاية: ١٥/١٢، والنجوم الزاهرة: ٢٥٨/٤ وشذرات الذهب: ١٩٩/٣.

(٤) بروكلمان: ٣٤٩/٣ - الترجمة العربية -.

(٥) ميزان الاعتدال: ٣٩/٤ ولسان الميزان: ٣٦٨/٥ وشذرات الذهب: ٢٠٠/٣.

(٦) رجال النجاشي: ٢٨٧ والخلاصة: ٧٢ ورجال ابن داود: ٣٣٣.

(٧) بغداد قديماً حديثاً: ٢٢٨.

(٨) رجال النجاشي: ٢٨٧ والخلاصة: ٧٢ ورجال ابن داود: ٣٣٣.

قريش؛ بالقرب من رجلي الإمام الجواد(ع)؛ إلى جانب أستاذه أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي^(١). وقبره الآن معروف في وسط الرواق الشرقي من المشهد الكاظمي.

«وكان يوم وفاته يوماً لم ير أعظم منه؛ من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والموافق»^(٢).

وتبارى شعراء عصره في رثائه وفي التعبير عن الفجيعة بفقده، وكان منهم الشاعر عبد المحسن الصوري المتوفى سنة ٤١٩ هـ حيث يقول:

تبارك من عمّ الأنام بفضله وبالموت بين الخلق ساوى بعدله
مضى مستقلاً بالعلوم «محمد» وهيهات يأتينا الزمان بمثله^(٣)

ومنهم الشريف المرتضى علي بن الحسين الذي يقول من جملة قصيدة:

مَنْ عَلَى هَذِهِ الدِّيارِ أَقاما أو ضفاً ملبس عليه وداما؟
عج بنا نندب الذين تولوا باقتياد المنون عاماً فعاما
إلى أن يقول:

إن شيخ الإسلام والدين والعد م توّلى فأزعج الإسلاما
والذي كان غرة في دجى الأيا م أودى فأوحش الأياما
ويقول:

مَنْ يَنيرُ العقولَ من بعد ما كُنَّ هموداً وينتج الأفهاما

(١) رجال النجاشي: ٢٨٧ والخلاصة: ٧٢.

(٢) فهرست الطوسي: ١٥٨.

(٣) ديوانه: ١٢٠/أ - مخطوط مصور بمكتبة المجمع العلمي العراقي.

من يعير الصديق رأياً إذا ما سلّه في الخطوب كان حساماً
فامضِ صفراً من العيوب فكم با ن رجال أثروا عيوباً وذاماً^(١)

ومنهم الشاعر مهيار الديلمي الذي شارك في المناسبة بقصيدة
بلغت (٩١) بيتاً؛ يقول في مطلعها:

ما بعد يومك سلوة لمعلل
مني ولا ظفرت بسمع معذل
سوى المصاب بك القلوب على الجوى
قيد الجليد على حشا المتململ
ويقول فيها:

رحل الحمام بها غنيمة فائز
كانت يد الدين الحنيف وسيفه
ما ثار قط بمثلها عن منزل
فلأبكين على الأشل الأعزل
ويقول:

سمح ببذل النفس فيهم قائم
نزاع أرشية التنازع فيهم
الله في نصر الهدى متبتل
حتى يسوق إليهم النص الجلي
ويبين عندهم الإمامة نازعاً
بطريقة وضحت كأن لم تشبهه
وأمانة عرفت كأن لم تجهل^(٢)
رحم الله الشيخ المفيد جزاء ما قدم لهذه الأمة، وأسبغ عليه روحه
وريحانه وجنته ورضوانه، وسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً.

(١) ديوان المرتضى: ٣/ ٢٠٤ - ٢٠٦، وورد بعض أبيات القصيدة في المنتظم: ٨/ ١٢
والبداية والنهاية: ١٢/ ١٥ - ١٦.
(٢) ديوان مهيار الديلمي: ٣/ ١٠٣ - ١٠٩.

المصادر والمراجع

- ١ - الامتاع والمؤانسة للتوحيدي: القاهرة ١٣٧٣هـ.
- ٢ - بحار الأنار للمجلسي: طهران ١٣٧٦هـ.
- ٣ - البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي: القاهرة (د.ت).
- ٤ - بغداد للدكتور مصطفى جواد وسوسه: بغداد ١٣٧٨هـ.
- ٥ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الترجمة العربية - : القاهرة ١٩٦٢م.
- ٦ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: القاهرة (مصورة).
- ٧ - خلاصة الأقوال للعلامة الحلبي: طهران ١٣١٠هـ.
- ٨ - ديوان الشريف المرتضى: القاهرة ١٣٧٨هـ.
- ٩ - ديوان عبدالمحسن الصوري: مخطوط بالمجمع العراقي.
- ١٠ - ديوان مهيار الديلمي: القاهرة ١٣٤٩هـ.
- ١١ - رجال ابن داود الحلبي: طهران ١٣٨٣هـ.
- ١٢ - رجال بحر العلوم: النجف ١٣٨٦هـ.
- ١٣ - رجال النجاشي: بومباي ١٣١٧هـ.
- ١٤ - السرائر لابن إدريس: طهران ١٢٧٠هـ.

- ١٥ - شذرا الذهب لابن العماد: القاهرة ١٣٥٠هـ.
- ١٦ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: القاهرة ١٣٧٨هـ.
- ١٧ - الفهرست لابن النديم: القاهرة ١٣٤٨هـ.
- ١٨ - فهرست الطوسي: النجف ١٣٥٦هـ.
- ١٩ - فهرست مؤلفات المفيد لمحمد حسن آل ياسين: مخطوط.
- ٢٠ - الكامل لابن الأثير: القاهرة ١٣٥٣هـ.
- ٢١ - لسان الميزان لابن حجر: حيدر آباد.
- ٢٢ - مجمع الرجال للقهبائي: طهران ١٣٨٧هـ.
- ٢٣ - مستدرک الوسائل للنوري: طهران ١٣٢١هـ.
- ٢٤ - معالم العلماء لابن شهر آشوب: طهران ١٣٥٣هـ.
- ٢٥ - معجم البلدان لياقوت: القاهرة ١٣٢٤هـ.
- ٢٦ - المنتظم لابن الجوزي: حيدر آباد ١٣٥٩هـ.
- ٢٧ - ميزان الاعتدال للذهبي: القاهرة ١٣٨٢هـ.
- ٢٨ - النجوم الزاهرة لابن تغري بردى: القاهرة (مصورة).



مِنْ هَجِّ الطُّوسِيِّ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وأله الطيبين الطاهرين.

في ربيع عام ١٣٨٩هـ تسلمت رسالة من جامعة مشهد بإيران تخبرني فيها بعزمها على إقامة مهرجان فكري حافل؛ بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ العلامة الإمام أبي جعفر محمد بن الحسن، الطوسي المنشأ، البغدادي التعلم والتعليم، النجفي الخاتمة، المولود في سنة ٣٨٥هـ والمتوفى في سنة ٤٦٠هـ^(١). وتطلب مني المساهمة في هذه المناسبة يبحث يرتبط بصاحب الذكرى طيب الله ثراه.

وفكرت كثيراً - بعد وصول الدعوة - في اختيار الموضوع، خصوصاً وأن هذا العلم العيلم - كما يعلم عارفوه - كان كثير الجوانب موسوعي الإنتاج متعدد الاختصاصات، وقد مارس الكتابة والتأليف في كل المواضيع المرتبطة بالفكر الإسلامي وشؤونه المختلفة. وفي كل جانب واختصاص له ما يجذب ويغري ويحث على الخوض فيه دون غيره.

وقرّ رأيي - أخيراً - على اختيار جانب التفسير ومنهج الطوسي فيه، باعتباره موضوعاً طريفاً مسّ من نفسي هوىً وشوقاً ورغبة، وباعتبار أن

(١) يراجع في ترجمته: «حياة الشيخ الطوسي» بقلم الشيخ آقا بزرگ طهراني، وقد نشر في مقدمة المجلد الأول من تفسير التبيان، ويقع في (١٠٣) صفحات.

الشيخ أبا جعفر كان قد ألَّف كتاباً ضخماً سمّاه، التبيان في تفسير القرآن، جمع فيه فأوعى؛ وأودع خلاله الشيء الكثير من البحوث والمناقشات والآراء المهمة. وقد طبع لأول مرة على الحجر في إيران سنة ١٣٦٠هـ - ١٣٦٥ في مجلدين كبيرين، ثم أعيد طبعه - بشكل أفضل - في النجف الأشرف في عشر مجلدات ابتداء من سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م^(١).

ومن حق البحث العلمي - ونحن نريد الاحتفاء بالشيخ الطوسي - أن ندرس تفسيره بإمعان وأن ندقق النظر في تتمين منهجه وتقييم طريقته وأسلوبه، تمهيداً لوضعه في المكان المناسب له بين تفاسير السلف وتراثهم في علوم القرآن الكريم.

ونال هذا البحث - فيما يبدو - شيئاً من القبول أو الاستحسان من قبل لجنة المهرجان؛ فكان أحد خمسة بحوث تمّ اختيارها - من بين عشرات البحوث - للطبع والتوزيع على الحضّار والمساهمين في الذكرى من العاملين في حقل الفكر الإسلامي في آسيا وأفريقيا.

وبالنظر إلى أهمية الموضوع وارتباطه بصميم الدراسات الإسلامية الأساسية، وإلى تكرار الطلب على هذا الكتيب ممن سمع به ولم يره، وعدم توفر نسخه. ترجّح لديّ القيام بإعادة طبعه ووضعه بين يدي القراء المعنيين، عسى أن يجدوا فيه شيئاً من إفادة وبعضاً من نفع. والله تعالى ولي التوفيق.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العراق - بغداد: الكاظمية

محمد حسن آل ياسين

(١) يراجع في الوقوف على النسخ الخطية من الكتاب: الذريعة: ٣/٣٢٨ - ٣٣١ و٤/

القرآن الكريم كما آمن به المسلمون كلام الله المبين، ومعجزة نبيه الأمين، ودستور الشريعة الأكبر، وكتاب الإسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وكان لا بُدَّ للمسلمين وهم يؤمنون بهذا القرآن وقديسيته وحاجتهم الحياتية والروحية إليه أن يتعلموا معانيه ويتفقهوا فيه، ليستطيعوا العمل على ضوئه والسير على هداه، كما كان لا بُدَّ للنبي (ص) أن يتولى مسؤولية التفسير والشروح - خلال أيام حياته - بحكم قيامه بمهمة تلاوة ما يوحى إليه من آيات الذكر على المسلمين، فيذكر أسباب النُّزول ويوضح ما يحتاج إلى الإيضاح من المجمل والمتشابه والناسخ والمنسوخ، ويقوم بالشرح العملي لما تضمنته تلك الآيات من أحكام عبادية وواجبات شرعية. وبفضل ذلك كله كان القرآن في عصر الرسالة قريباً إلى عقول الناس وأفهامهم وإن تفاوتت تلك الأفهام في درجة المعرفة والإدراك.

وعندما فُجع المسلمون بوفاة المفسر الأول (ص) وسُدَّ في وجوههم باب السماع المباشر من صاحب الوحي لجأوا إلى الصحابة الذين عاشروا النبي (ص) ورافقوه وسمعوا منه وتفقهوا على يديه يسألونهم تفسير ما يستغلق فهمه عليهم من مفردات القرآن وآياته فيروى

لهم الصحابة ما سمعوه من النبي (ص) في ذلك، ولا يتحاشى بعضهم من الاعتراف بجهله بمعاني بعض الكلمات تنزيهاً للقرآن من التفسير بالرأي والظن.

وهكذا بدأ تفسير القرآن معتمداً على الرواية والنقل عن الرسول (ص)، مع كل التحرج والتأكد والالتزام بدقة النقل وعدم التصرف، وليس ذلك غريباً ما دام «التفسير هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز، فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل أو من طريق الشرع، للنهي عن أتباع الظن»^(١).

وحيث أن المقصود بتفسير القرآن في المصطلح الإسلامي هو «علم معانيه وفنون أغراضه»^(٢) أو أنه العلم الباحث «عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية»^(٣) أخذاً له من المعنى اللغوي للتفسير وهو البيان و«كشف المراد عن اللفظ المشكل»^(٤) فإن من الصحابة من لم يكتف بالرواية والنقل في تفسير القرآن فأضاف إليهما الشعر المأثور عن العرب يستهدي به في معرفة معنى اللفظ القرآني انطلاقاً من كون القرآن عربياً وارداً بهذه اللغة ومُستعملاً كلماتها ومفرداتها.

إن أول ما يخطر في أذهاننا ونحن نخزن في المخيلة عصر الرسول (ص) وتلك القوائم الكبيرة من أسماء الصحابة أن جُلَّ الصحابة

(١) البيان للخوئي - ٢٧٨/١.

(٢) التبيان للطوسي - ٣/١.

(٣) كشف الظنون - ٤٢٧/١.

(٤) لسان العرب - ٥٥/٥.

- إن لم نقل كلهم - كانوا من مفسري القرآن وشارحيه، باعتبارهم قد سمعوا ذلك من النبي (ص) وأدركوا معنى كل ما سمعوه، ولكن الواقع الخارجي كان على خلاف ذلك فما أقل من وعى معاني القرآن وأرهم سمعه وقلبه وعقله للنبي وهو يشرح تلك المعاني ويوضح أهدافها ومراميها، ويقول السيوطي في ذلك:

«اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير».

«أمّا الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب (ع). والرواية عن الثلاثة نزره جداً، وكان السبب في ذلك تقدم وفاتهم. كما أن ذلك هو السبب في قلّة رواية أبي بكر للحديث، ولا أحفظ عن أبي بكر في التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة».

«أما علي (ع) فروي عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدت علياً (ع) يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل»^(١).

وهكذا يغدو علي (ع) أشهر الصحابة جميعاً - من استخلف منهم ومن لم يستخلف - في تفسير القرآن، ورُوي عنه الكثير في هذا الباب، وما ذاك إلا لأنه باب مدينة علم رسول الله (ص)، وعدل الكتاب الذي لن يفترق عنه إلى يوم القيامة، دون أن يكون لتأخر وفاته عن وفاة الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه أي أثر في ذلك - كما يحاول السيوطي أن

يتعلّل به - لأن الفرق بين تاريخ وفاة الخليفين الثاني والثالث ووفاة علي لم يكن إلا سنوات معدودة لا تبرّر مثل ذلك الفرق الكبير بينه وبينهم.

واشتهر عبد الله بن مسعود المتوفى سنة ٣٢ هـ بالتفسير أيضاً - كما روى السيوطي وغيره - ورُوي عنه الكثير في ذلك و«روى عنه كثيرون لكن تتبّعهم العلماء بالنقد والتجريح»^(١).

ثمّ يأتي بعد ذلك في التسلسل عبد الله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ الذي ورد عنه في التفسير «ما لا يحصى كثرة وفيه روايات وطُرُق مختلفة»^(٢). وقد كثر النقل عنه في مصادر التفسير إلى حد الإغراق الملفت للنظر والمثير للاستفهام، وأصبح - بكثرة أقواله المروية، ورواته المتعددين ومؤلفه المنسوب - أبرز المفسرين الأوائل في تاريخ الإسلام.

وبالنظر إلى هذه الهالة المشعة التي أحاطت بالرجل والقدسية التي حقّته حتى مُنح لقب (ترجمان القرآن) يلزمنا أن نقف عند جانبيين من جوانبه نستوضح أمرهما ونستطلع واقعهما: منهجه في التفسير والبحث في رواته وطرقه.

أما منهجه فقد رُوي عنه «أنه قَسَم وجوه التفسير على أربعة أقسام:

تفسير لا يُعذر أحد بجهالته.

وتفسير تعرفه العرب بكلامها.

وتفسير يعلمه العلماء.

وتفسير لا يعرفه إلا الله عزوجل.

(١) مناهل العرفان - ٤٨٦.

(٢) الاتقان - ٣٢١/٢.

فأما الذي لا يُعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجمل دلائل التوحيد. وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم. وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام. وأما الذي لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة^(١).

ومن هذا المنهج يظهر أنه قد اعتمد الأثر والرواية دون غيرهما طريقاً لمعرفة معاني القرآن، وليس ذكره لحقائق اللغة تطويراً في التفسير أو إضافة مصدر آخر له غير النقل والرواية، لأن القرآن قد نزل بلغة العرب ومن البديهي أن نجعل اللغة أساساً لفهم المفردات ومعرفة المقصود منها.

وإذن فمنهجه في التفسير هو التفسير بالمأثور؛ والمأثور فقط.

أما طرقه ورواياته فقد حامت حولها الشبهات وكثر فيها التشكيك حتى أصبح الاطمئنان إلى ما يروى عنه غير متحقق لدى الباحثين، بل أصبح أكثر ما يُروى عنه مقطوعاً بكذبه وتلفيقه، ويقول الإمام الشافعي: إنه «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهه بمائة حديث»^(٢)، ولذلك فلا بُدُّ لنا من أن نقول مع الشيخ الزرقاني بوجوب «الحيطة فيما عُزِّيَ إلى ابن عباس من التفسير، فقد كثر عليه فيه الدس والوضع»^(٣) ومع الدكتور الصالح في كون الناس قد «تزيّدوا في الرواية عن ابن عباس وتجراً بعضهم على الوضع عليه والدس في كلامه»^(٤).

(١) مجمع البيان - ١٣/١.

(٢) الاتقان - ٣٢٢/٢.

(٣) مناهل العرفان - ٤٨٤.

(٤) مباحث في علوم القرآن - ٢٩٠.

وتكون خلاصة الرأي في الروايات عن ابن عباس في التفسير إنها «غير مرضية ورواؤها مجاهيل»^(١).

ولزيادة الاطمئنان بهذه الخلاصة القاسية نستعرض في أدناه طُرُق الرواية عنه وما تناقله العلماء من رأي فيها وتمحيص ليتجلى لنا النَّبَأ اليقين.

فمن طرقه: طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه، ومع أن السيوطي يعتبره من جيد طرقه فإنه يروي عن قوم من الناس قولهم: لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير، كما يروي عن الحفاظ إجماعهم على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه من ابن عباس^(٢). أي أن رواياته عن ابن عباس مراسيل لم تؤيد بالسماع منه.

ومن طرقه: طريق جُوْبَيْر عن الضحَّاك عن ابن عباس، وهؤلاء - عند السيوطي - من المجاهيل، وجُوْبَيْر شديد الضعف متروك^(٣).

«وطريق الضحَّاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة، فإن الضحَّاك لم يَلْقَه»^(٤)، وروى الطبري عن مشاش إنه قال: «قلت للضحَّاك: سمعت من ابن عباس شيئاً؟ قال: لا»^(٥).

ومن طرق ابن عباس، ما رواه المفسرون عن ابن جُرَيْج، وأطول طرق ابن جُرَيْج ما يرويه بكر بن سهل الدميّاطي عن عبد الغني بن سعيد

(١) الاتقان - ٢/٣٢١.

(٢) الاتقان - ٢/٣٢١.

(٣) نفس المصدر - ٢/٣٢٢.

(٤) الاتقان - ٢/٣٢٢.

(٥) تفسير الطبري - ١/٤٠.

عن موسى بن محمد عن ابن جُرَيْج، ويقول السيوطي: «وفيه نظر»^(١)، كما يقول أيضاً عنه «لم يقصد الصحّة وإنما روى ما ذُكِر في كل آية من الصحيح والسقيم»^(٢).

ومن تلك الطرق - طريق العوفي عن ابن عباس وقد «أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، والعوفي ضعيف ليس بواو»^(٣).

وأوهى طرق ابن عباس «طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصّغير فهي سلسلة الكذب. وكثيراً ما يخرج منها الثعلبي والواحدي»^(٤).

وأبو صالح هذا الذي يروي عن ابن عباس كان يُمُرُّ به الشعبي «فياخذ بإذنه فيعركها ويقول: تفسّر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن»^(٥).

وأما الكلبي الذي يروي عن أبي صالح فهو صاحب تفسير لم يُكْتَب أطول منه ولا أشبع، ومع ذلك فقد قال فيه بعض الأعلام أنه قد: «أجمعوا على ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع»^(٦).

وأما طريق بشر بن عمار عن أبي روق «فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبي حاتم»^(٧).

(١) الاتقان - ٣٢١/٢.

(٢) نفس المصدر - ٣٢١/٢.

(٣) نفس المصدر - ٣٢٢/٢.

(٤) المصدر نفسه - ٣٢٢/٢.

(٥) تفسير الطبري - ٤٠/١.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - ٣٥١/٥ - تعليق أمين الخولي - .

(٧) الاتقان - ٣٢٢/٢.

وأما السدي فقد روى عنه الكثيرون، ولكنَّ التفسير الذي جمعه رواه إسباط بن نصر، وإسباط لم يتفقوا عليه^(١). وعلى الرغم من رواية ابن جرير عنه كثيراً فإن ابن أبي حاتم لم يورد معه شيئاً، لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد^(٢).

ولقد قيل في السدي إنه «ضعيف وكذاب وشتام»^(٣)، وقال النسائي في إسباط إنه «ليس بالقوي»^(٤)، وروى الطبري عن الشعبي أنه مرَّ يوماً على السدي وهو يفسّر فقال: لأن يُضرب على أستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا^(٥).

ومن طرق ابن عباس أيضاً: طريق مولاة عكرمة، وعكرمة غير مقبول لدى العلماء، وقد اشتهر عندهم بالكذب على مولاة وإنه «كان يرى رأي الخوارج ويميل إلى استماع الغناء»^(٦). ورُوي عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يوثق عكرمة على باب الكنيف لأنه يكذب على أبيه^(٧)، ومثل ذلك كان يصنع به علي بن عبد الله بن مسعود لأنَّه يكذب^(٨). ويروي ابن سعد عن طاووس قوله: «لو أن مولى ابن عباس هذا اتقى الله وكفَّ من حديثه لشدَّت إليه المطايا»^(٩). ويظهر مما رُوي في كتب التاريخ أن عكرمة قد أصبح مضرب المثل في كذبه على ابن

(١) المصدر نفسه - ٣٢١/٢.

(٢) نفس المصدر - ٣٢٢/٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - ٣٥٠/٥ - تعليق أمين الخولي --

(٤) نفس المصدر - ٣٥٠/٥.

(٥) تفسير الطبري - ٤١/١.

(٦) معجم الأدباء - ١٨٤/١٢.

(٧) نفس المصدر - ١٨٤/١٢.

(٨) نفس المصدر - ١٩٠/١٢.

(٩) الطبقات - ٢١٤/٥.

عباس، فقد روى ابن سعد: «أن سعيد بن المسيب قال يوماً لمولاي له: «أتق لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس»^(١). ومثل ذلك روى ياقوت عن عبد الله بن عمر أنه قال لغلامه نافع: «أتق الله ويحك يا نافع ولا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس»^(٢).

أما مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ. فقد ضعّفه العلماء وقالوا: «إنه يروي عن مجاهد ولم يسمع من مجاهد شيئاً، ويروي عن الضحّاك ولم يسمع منه شيئاً، فقد مات الضحّاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين. ويكذبونه. ويضعّفه من يستحسن تفسيره ويقول: ما أحسن تفسيره لو كان ثقةً، وينقلون أنه كان يأخذ عن اليهود علم الكتاب»^(٣).

وهكذا يظهر مما سلف أن أكثر الروايات المتعلقة بالتفسير مما اعتمدها المفسرون المشهورون لم تسلم من الطعن والتضعيف بل الرد والتزييف، وقد أجمل ذلك الشيخ ابن تيمية عندما قال: «وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة»^(٤).

ويعلل ابن خلدون أسباب الوضع والتلفيق في النقل التفسيري فيقول:

«والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأميّة، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوّق إليه النفوس البشريّة في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود

(١) الطبقات - ١٠٠/٥.

(٢) معجم الأدباء - ١٨٩/١٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - ٣٥١/٥ - تعليق أمين الخولي ويراجع كشف الظنون - ٤٢٩/١.

(٤) نفس المصدر - ٣٥١/٥.

فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية... وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم»^(١).



أُحيط المسلمون الأوائل الذين تصدوا للكتابة في تفسير القرآن باهتمام كبير في كتب التاريخ، ومع ذلك فما زال المؤرخون مختلفين في تعيين الأول بالخصوص.

وقد ذكر ابن النديم إن أول كتاب أُلّف في تفسير القرآن هو «كتاب ابن عباس» الذي رواه مجاهد عنه^(١).

ولدينا الآن بين كتب التفسير المطبوعة كتاب «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» الذي استخرجه الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط، وكتاب «سؤالات نافع بن الأزرق في التفسير وجوابات ابن عباس عليها» وقد نشره الدكتور إبراهيم السامرائي - الأستاذ بجامعة بغداد في العام الماضي^(*).

وإن النظرة الموضوعية الفاحصة في هذين الكتابين تثير لدينا من الشكوك ما يسقط اعتبار نسبة هذين النصين لابن عباس.

(١) الفهرست - ٥٠.

(*) ونشر الدكتور صلاح الدين المنجد - أخيراً - كتاباً باسم «اللغات في القرآن» منسوباً لابن عباس، ولم نجد فيه سنداً يصحح النسبة.

أما التفسير «تنوير المقباس» فهو من رواية محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وقد مرَّ علينا أن السيوطي قد اطلق على هذا السند اسم «سلسلة لكذب» كما مرَّ علينا أيضاً أن الرواة عن ابن عباس - جُلَّهم إن لم نقل كلَّهم - لم يسلموا من الطعن أو التضعيف، حتى قال الإمام الشافعي كلمته المأثورة السالفة الذكر: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث».

وإذن فليس لنا أي طريق من طرق الاعتماد والتوثيق نحو هذا الكتاب ولن نستطيع الرضوخ لـ«سلسلة الكذب» في تفسير كتاب الله المجيد.

وأما سؤالات نافع بن الأزرق فأثار الصناعة عليها ظاهرة . وحسبنا أن نعلم أنَّ رواتها يدَّعون أنها دارت بين ابن الأزرق وابن عباس في جلسة واحدة في المسجد الحرام ليحصل لنا الشك فيها، ثم كيف استطاع مَنْ حضر هذا الحوار أن يحفظ بهذه الدقة وهذا الاستيعاب نصَّ الأسئلة والأجوبة وشواهدا الشعرية ليرويها للأجيال من بعده؟! ولعلَّ خير ما يقال في حق هذه المسائل وأجوبتها أنها كانت «أسطورة مدرسية عظيمة الفائدة»^(١) - على حدِّ تعبير كولد زيهر - .

وهكذا يبدو أنَّ ابن عباس لم يكن أول مؤلِّف في التفسير لأنَّه لم يثبت له أيّ كتاب في التفسير، بل لم يثبت له في تفسير كل القرآن إلا شبيه بمائة حديث فقط، ويصبح نص ابن النديم رواية من الروايات المرسلة التي لم نجد لها ما يصححها من الشواهد المعتمد عليها في هذا الباب.

(١) مذاهب التفسير الإسلامي - ٨٩.

أما جرجي زيدان فيذهب إلى أن مجاهداً المتوفى سنة ١٠٤هـ هو أول من «دَوَّنَ التفسير في الصُّحف»^(١).

والظاهر أنه قد اعتمد على كلام ابن النديم عن كتاب ابن عباس، حيث ذكر أنه قد رواه مجاهد، ولعل مجاهداً جمع ما صحَّ لديه من روايات ابن عباس وبَوَّبها ونظمها وألَّف بينها في كتاب واحد، وبهذا يكون هو المؤلف لا ابن عباس.

وكان من حق البحث على جرجي زيدان أن يدقِّق النظر أكثر في فهرست ابن النديم ليرى فيه «كتاب تفسير سعيد بن جبير»^(٢)، وسعيد أقدم تاريخاً من مجاهد لأنه توفى عام ٩٤هـ. أي قبل مجاهد بعشر سنوات، وكان من المشهورين بالتفسير، بل رُوِيَ عن قتادة أن سعيداً كان أعلم معاصريه بالتفسير^(٣)، فلا غرو أن ألَّف كتاباً في التفسير، ولم يؤثر عن القدماء أي طعن أو شك أو كلام بشأنه.

وهكذا يصبح سعيد بن جبير أول مؤلف في تفسير القرآن.



وتتابعت السنون بالمسلمين وتتابعت معها دراسة القرآن الكريم. وعندما كثرت العلوم وتعددت فروع المعرفة وظهرت فكرة الاختصاص بين العلماء سارع كل فريق من هؤلاء إلى تفسير القرآن على ضوء اختصاصه ومعرفته الخاصة أو للبحث في جانب من جوانب القرآن يلتقي مع الجانب العلمي الذي يعنى به.

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٦٤/٣.

(٢) الفهرست - ٥١.

(٣) الاتقان - ٣٢٣/٢.

فكان النحوي «ليس له همٌّ إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه كالزجاج والواحدي».

وكان الإخباري «ليس له شغل إلا القصص واستيفاءها والأخبار عن سلف سواءً كانت صحيحةً أو باطلة، كالثعلبي».

«والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الظهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية».

وحتى «صاحب العلوم العقلية قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها ويخرج من شيء إلى شيء»^(١) بمناسبة وبلا مناسبة في كثير من الأحيان.

ونتيجة لتعدد الاختصاص والمنحى الفكري لدى المؤلفين في القرآن حفلت المكتبة العربية القرآنية بمجموعة قيمة من المؤلفات في: معاني القرآن، ومشكله، ومجازه، وغريبه، وقراءاته، ولاماته، ووقفه، وابتدائه، ومتشابهه، وأجزائه، وفضائله، وعدد آيه، وأحكامه، وناسخه، ومنسوخه، وأسباب نزوله، وإلى ما شابه ذلك مما تكفلت ببيانه مصادر التراجم والتاريخ وفهارس الكتب والمؤلفين^(٢).

وفي غمرة هذه المؤلفات الاختصاصية قام عدد من العلماء المسلمين البارزين بالكتابة في تفسير القرآن على الشكل العام المعتمد على النقل والرواية عن الصحابة والتابعين، من دون الاهتمام بجانب خاص، وبعيداً عن التفلسف واعتماد الذوق الشخصي في التأويل والشرح.

(١) الاتقان - ٣٢٤/٢ - ٣٢٥.

(٢) يراجع الفهرست: ٥٠ - ٥٧ والذريعة - ٢٣٢/٤ وما بعدها.

وكان من طلائع هؤلاء سعيد بن جبير - المار الذكر - ومجاهد وأبو حمزة الثمالي وأبان بن تغلب وأضرابهم ممن ضاعت آثارهم فلم نطلع عليها، ثم من سار على هذا المنهج من بعدهم.

ومرَّ القرن الثاني والثالث والمنهج في كتب التفسير العام ما زال المنهج نفسه: تفسير بالمأثور، ورجوع إلى اللغة والشواهد في معاني المفردات وقصص إسرائيلية أقحمت في التفسير بواسطة اليهود المتظاهرين بالإسلام، وليس شيء غير ذلك.

وبرز إلى عالم التفسير في أواخر القرن الثالث مفسر كبير اتَّسم منهجه بشيء من التطوير هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.

وقد تميَّز هذا الرجل بمنهجه التجديدي الذي لم يسبقه إليه سابقوه ولم يعرفه معاصروه بل كانت التفاسير المعاصرة له محافظة كل الحفاظ على منهجها السابق المعتمد على الرواية فقط كما يرشدنا إلى ذلك ما هو موجود منها كتفسير علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، الذي كان حياً إلى سنة ٣٠٧هـ. ويعتمد منهجه على الرواية مع ذكر السند، واختص بالروايات التي رُوِّيت له عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام. وجُلُّها مما رواه والده إبراهيم بن هاشم عن مشايخه، ويتضمن كثيراً من الروايات الضعيفة التي لم ينظر لها العلماء بالقبول^(١).

وكذلك تفسير فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي أحد رجال الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري الذي يعتمد منهجه - كسابقه - على الرواية فقط مع ذكر السند واقتصر فيه على خصوص الآيات التي لها علاقة بالأئمة وأهل البيت، وعلى الرغم من أنه يروي في التفسير عن

(١) الذريعة - ٣٠٢/٤ - ٣٠٣. وقد طبع هذا التفسير على الحجر بإيران.

نيف ومائة من الشيوخ إلا أنه «ليس لأكثرهم ذكر ولا ترجمة في أصولنا الرجالية»^(١) ولذلك فلا يمكن الركون إلى تلك الروايات.

وإذن فالمنهج الوحيد المتطور في التفسير إنما هو منهج ابن جرير الطبري، وقد جمع تفسيره المسمى «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» توجيه الأقوال وعرضها. مع الاهتمام باللغة والإعراب^(٢)، غير أنه على أهميته «قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها»^(٣)، وقد يُعتذر له عن ذلك بأنه يذكر السند ولا يتحمل - من ثم - مسؤولية عدم الصحة. ولكن هذا العذر - مع معرفتنا ومعرفته بكثرة عدد الوضاعين والكذابين - غير كاف في نفي المسؤولية عنه.

وقد تحدث كولد زيهر عن تفسير الطبري كثيراً، وعده «ذروة التفسير بالمأثور... ونقطة البدء وحجر الأساس لأدب التفسير القرآني»، وذكر أن الطبري مع تصويبه المطلق للعلم القائم على الرواية يستخدم حق النقد المعمول به في الإسلام تجاه رجال السند. ولكنه «يتوسع في استخدام المصادر اليهودية الأصل - كعب الأخبار ووهب بن منبه - فيما يتصل بقصص الإسرائيليات... بل إن كتابه أغزر الكنوز بالنصوص المنتشرة في الأساطير الإسلامية من مواد الإسرائيليات. كذلك الأساطير النصرانية، يرويها راجعاً إلى وهب بن منبه، ورأى «أن الطبري يحارب في تفسيره كل فكرة ترمي إلى إضعاف مذهب أهل السنة المحافظين ويسوق الجدل مع المتكلمين، ويحارب منهج المعتزلة في التفسير»^(٤).

(١) الذريعة - ٢٩٨/٤. وقد طبع في المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف (بدون تاريخ).

(٢) الاتقان - ٣٢٤/٢.

(٣) مناهل العرفان - ٤٩٧.

(٤) مذاهب التفسير الإسلامي - ١٠٧ - ١١٧.

وبالنظر إلى أهمية هذه المرحلة التي يُمثّلها الطبري فلا بد لنا من تلمّس منهجه في تفسيره تمهيداً لبحث منهج الطوسي ومعرفة مدى تأثير الشيخ به في تفسيره.

قسّم الطبري القرآن إلى ثلاثة أقسام:

الأول: «ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا بيان الرسول (ص)، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره - واجبه وندبه وإرشاده -، وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه ومقادير اللازم... وما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يُدرَك علمها إلا ببيان رسول الله (ص) لأُمَّته. وهذا وجهٌ لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله (ص) بتأويله بنصٍّ منه عليه أو بدلالة قد نصبها دالّة أُمَّته على تأويله».

الثاني: «ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة وأوقات آتية كوقت قيام الساعة والنفخ في الصور ونزول عيسى بن مريم وما أشبه ذلك».

الثالث: «ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامة إعرابه ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها والموصوفات بصفاتهما الخاصّة دون سواها، فإنّ ذلك لا يجهره أحدٌ منهم»^(١).

وهذا التقسيم هو الأساس الذي أقام الطبري تفسيره عليه وهو مقتبس من المنهج المروي عن ابن عباس.

وأهم هذه الأقسام الثلاثة هو القسم الأول: تفسير النقل والرواية،

وهو يعتمد لدى الطبري على بيان رسول الله (ص) وأصحابه، وهذا البيان لن يصل إلى الطبري إلا بواسطة الرواة. ولقد سبق منا التعرض لرواية التفسير الأوائل وأشرنا إلى الشكوك والظنون الموجهة إلى أكثرهم كابن أبي طلحة الهاشمي وجوير والضحاك وابن جريج والعمري والكلبي وأبي صالح وبشر بن عمارة وإسباط بن نصر والسدي وعكرمة ومقاتل وأضرابهم.

وحيث أن الطبري قد أقام جُل تفسيره على روايات هؤلاء فإن القيمة العلمية لكتابه تهبط إلى درجة كبيرة.

والنقل لديه مقدم على كل شيء، بل يخشى ردُّ كل نقل وإن ظهر لديه بطلانه، ويقول في هذه الحالة: «أخشى أن يكون غلطاً من المحدث»^(١). وفي مقام آخر يناقش مضمون الخبر على ضوء ما لديه من استنتاجات ثم يقول: «لكن الواجب على قياس ما جاء به الخبر...»^(٢)، أو يقول: «وهذا مذهب مما يحتمله ظاهر التنزيل لولا الخبر الذي ذكرته عن النبي (ص)»^(٣)، ثم يردُّ أيَّ تفسير لا يلائم النقل - سواءً كان النقل قويَّ الإسناد أو ضعيفه - ويقول مثلاً: «وقد زعم بعض من ضعفت معرفته بتأويل أهل التأويل وقلَّت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير... إلخ»^(٤).

أما القصص القرآني فالطبري نقلني فيه أيضاً، ويروي القصص الإسرائيلية كما وردت، ويعتمد وهب بن منبه مصدراً لبيان هذه

(١) المصدر نفسه - ٥٣/١.

(٢) المصدر نفسه - ٥٤/١.

(٣) المصدر نفسه - ٤٥٩/٢.

(٤) المصدر نفسه - ٥٨/١.

القصص، بل «يُرَجَّح قصص وهب على قصص غيره في بعض الأحيان»^(١)، ولكنه إذا تضارب النقل واختلف اختلافاً كبيراً فإنه يقف من ذلك موقف الحياد فلا يرجِّح بعضاً على بعض ويقول: «وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم، ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك. وإذا كان كذلك فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر»^(٢)، ويعني بقوله: «ولا خبر عند أهل الإسلام، إنه لم يجمع المسلمون على روايته أو لم ينسبوا ما رووه إلى النبي (ص) بالذات.

ثمَّ كان القسم الثاني من أقسام القرآن في تفسير الطبري ما هو موكول إلى علم الله تعالى.

أما الثالث فهو العلم المعتمد على اللّغة والنحو، وقد عُني بهذا الجانب في كل مناسبة تقتضيه عناية كبيرة، وتحدّث كثيراً عن القراءات واختلافها، وعن المعاني اللغوية والاشتقاقية وأقوال النحويين في ذلك. ونصَّ في النحو على ذكر أقوال الكوفيين^(٣) والبصريين^(٤)، وذهب في التفسير اللغوي إلى ضرورة أخذ المعنى الذي كانت تعرفه العرب يوم نزل القرآن ويقول: «وإنما يجوز توجيه معاني ما في كتاب الله الذي أنزله على محمد (ص) من الكلام إلى ما كان موجوداً مثله في كلام العرب دون ما لم يكن موجوداً في كلامها»^(٥).

(١) المصدر نفسه - ٦١٠/٢.

(٢) تفسير الطبري - ٦١٥/٢.

(٣) تفسير الطبري - ٤٢٠/١.

(٤) المصدر نفسه - ٣٢٦/١ و٣٩٦.

(٥) المصدر نفسه - ٣٦٥/١.

ومع ذلك كله فإذا اصطدم التفسير اللغوي بالنقل كان النقل مقدماً لديه، ويقول في مناسبة من هذا القبيل: «وهذه الأقوال وإن كانت غير بعيدات المعنى مما تحتمله الآية من التأويل فإن تأويل أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها، فلذلك لم نستجز صرف تأويل الآية إلى معنَى منها»^(١).



ونعود الآن بعد هذه الجولة السريعة في مناهج التفسير إلى شيخنا أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ. لتتعرف بالخطوط الأساسية للمنهج الذي سار عليه في كتابه الضخم الكبير «التبيان في تفسير القرآن»^(١)، ولنعرف - من ثم - مدى تأثره بالمناهج التي سبقت، ومدى ما حفل به منهجه المختار من معالم التجديد والتطوير والإبداع.

وتفسير «التبيان» تفسير قيّم من تفاسير المسلمين، وقد تضمن من كنوز العلم والمعرفة ما يجعله إحدى القمم الشامخة بين الكتب المعنية بالقرآن. وليس ذلك غريباً أو محتاجاً للاستدلال ما دام مؤلفه - كما نعرف - عالماً من أعلام الدين وشيخاً من شيوخ الإسلام وقيماً من قوام الشريعة وحفظتها الأمانة المخلصين.

ولعل الشيخ أبا علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة ٥٤٨هـ. مؤلف كتاب «مجمع البيان في تفسير القرآن» خير من عرف حق

(١) ألف الشيخ الطوسي تفسير «التبيان» أيام سكناه في بغداد، ويظهر من ترجمة في مقدمة كتابه (٣/١) على أستاذه الشريف المرتضى علي بن الحسين أنه قد ألف التفسير فيما بين عامي ٤٣٦ - ٤٤٨هـ على وجه التحديد.

هذا الرجل، وأول من اعترف بفضلله وأهمية كتابه، فقال فيه في جملة ما قال:

«إنه الكتاب الذي يُقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواء الصدق قد تضمن من المعاني الأسرار البديعة، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا تميمها دون تحقيقها. وهو القدوة أستضيء بأنواره وأطأ مواقع آثاره»^(١).

وقبل الدخول في صلب الحديث عن منهج الطوسي يجدر بنا أن نستعرض النصوص التالية المقتبسة من مقدمة «التبيان» لنستعين بها على وضوح الرؤية وتحديد النتائج.

يقول الطوسي في بيان الأسباب التي حملته على تأليف الكتاب:

«فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل في جميع معانيه واستيعاب ما قيل فيه من فنونه كالطبري وغيره، وبين مقصّر اقتصر على ذكر غريبه ومعاني ألفاظه. وسلك الباؤون المتوسطون في ذلك مسلك ما قويت فيه متنتهم وتركوا ما لا معرفة لهم به، فإنّ الزجاج والفراء ومن أشبههما من النحويين أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالإعراب والتصريف، ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ، والمتكلمين كأبي علي الجبائي وغيره صرقوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعاني الكلامية، ومنهم من أضاف إلى ذلك؛ الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به من بسط فروع الفقه واختلاف الفقهاء كالبلخي وغيره. وأصلح من سلك في ذلك مسلكاً جميلاً مقتصداً محمد بن بحر أبو مسلم الأصفهاني وعلي بن عيسى الرماني، فإن

(١) مجمع البيان - ١٠/١.

كتابيهما أصلح ما صُنّف في هذا المعنى، غير أنهما أطلا الخطب فيه وأوردا فيه كثيراً مما لا يُحتاج إليه».

«وسمعتُ جماعةً من أصحابنا قديماً وحديثاً يرغبون في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن، من القراءة والمعاني والإعراب، والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه وأنواع المبطلين كالمجبرة والمُشبهة والمجسمة وغيرهم، وذكر ما يختص به أصحابنا من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحّة مذاهبهم في أصول الديانات وفروعها»^(١).

ويقول بعد ذلك:

«إن معاني القرآن على أربعة أقسام:

أحدها: ما اختص الله تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه ولا تعاطي معرفته وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾... إلخ.

وثانيها: ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها عرف معناها مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... إلخ.

وثالثها: ما هو مجمل لا يبنى ظاهره عن المراد به مفصلاً، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ وَالدِّينُ الَّذِي كَانَتْ أَبَوَاتُكُمْ عَلَىٰهِ حَنِيفًا ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ حَاسِبٌ عَدِيلٌ﴾ ومثل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ حَاسِبٌ عَدِيلٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَحِيًّا ۖ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا مِنْ قَبْلِكَ مَخْلُوقًا ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا مِنْ قَبْلِكَ مَخْلُوقًا ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا مِنْ قَبْلِكَ مَخْلُوقًا ۚ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حِقَابٌ مَعْلُومٌ ۚ﴾ وما أشبه ذلك. فإن تفصيل أعداد الصلاة وعدد ركعاتها وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة، لا يمكن استخراجها إلا ببيان النبي (ص)... إلخ.

ورابعها: ما كان اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عنهما ويمكن أن يكون كل واحد منهما مراداً، فإنه لا ينبغي أن يقدم أحدهُ به فيقول: إن مراد الله فيه بعض ما يحتمل، إلا بقول نبيٍّ أو إمام معصوم، بل ينبغي أن يقول: إن الظاهر يحتمل لأمر، وكل واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل، والله أعلم بما أراد. ومتى كان اللفظ مشتركاً بين شيئين أو ما زاد عليهما؛ ودل الدليل على أنه لا يجوز أن يريد إلا وجهاً واحداً، جاز أن يقال: إنه هو المراد^(١).

ثم يقول في توضيح منهجه:

«ولا ينبغي لأحد أن ينظر في تفسير آية لا ينبيء ظاهرها عن المراد تفصيلاً أو يقلد أحداً من المفسرين، إلا أن يكون التأويل مجمعاً عليه فيجب اتباعه لمكان الإجماع، لأن من المفسرين من حُمدت طرائقه ومُدحت مذهبهم كابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم، ومنهم من دُمّت مذهبهم كأبي صالح والسدي والكلبي وغيرهم، هذا في الطبقة الأولى وأما المتأخرون فكل واحد منهم نصر مذهبهم وتأول على ما يظابق أصله، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً منهم، بل ينبغي أن يرجع إلى الأدلة الصحيحة: إما العقلية أو الشرعية، من إجماع عليه، أو نقل متواتر به عمن يجب إتباع قوله. ولا يقبل في ذلك خبر واحد، خاصة إذا كان مما طريقه العلم».

«ومتى كان التأويل يحتاج إلى شاهد من اللغة، فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوماً بين أهل اللغة شائعاً بينهم. وأما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة والألفاظ النادرة فإنه لا يقطع بذلك ولا يجعل شاهداً على كتاب الله، وينبغي أن يتوقف فيه ويذكر ما يحتمله ولا يقطع

على المراد منه بعينه، فإنه متى قطع بالمراد كان مخطئاً وإن أصاب الحق»^(١).

ويقول عندما يستشهد بالشعر على شرح مفردات القرآن وأسلوبه:

«ولولا عناد الملحدين وتعجر فهم لما احتجج إلى الاحتجاج بالشعر وغيره للشيء المشتبه في القرآن، لأن غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي، أو لفظ منقول عن بعض الإعراب، أو مثل سائر عن بعض أهل البادية. ولا تكون منزلة النبي (ص) - وحاشاه من ذلك - أقل من منزلة واحد من هؤلاء ولا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي وكعب بن زهير وغيرهم. ومن طرائف الأمور أن المخالف إذا أورد عليه شعر من ذكرناه ومن هو دونهم سكنت نفسه واطمأن قلبه. وهو لا يرضى بقول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ومهما شك الناس في نبوته فلا مرية في نسبه وفصاحته، فإنه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة ويرجع إليهم في معرفة اللغة. ولو كان المشركون من قريش وغيرهم وجدوا متعلقاً عليه في اللحن والغلط والمناقضة لتعلقوا به وجعلوه حجّة وذريعة إلى إطفاء نوره وإبطال أمره واستغنوا بذلك عن تكلف ما تكلفوه من المشاق في بذل النفوس والأموال. . وكيف يجوز أن يحتج بشعر الشعراء عليه ولا يجوز أن يحتج بقوله عليهم وهل هذا إلا عناد محض وعصبية صرف؟!»^(٢).

إن استعراض النصوص السالفة يوضح لنا الأسس الرئيسة لمنهج الطوسي في التفسير؛ ويحدد - بجلاء - معالم ذلك المنهج وخطوطه العريضة.

(١) التبيان - ٦/١ - ٧.

(٢) التبيان - ١٦/١.

ويأتي في مقدمة تلك المعالم والخطوط قيام هذا المنهج على «الأدلة الصحيحة: إما العقلية أو الشرعية» دون الاتباع المطلق والتقليد الأعمى للمفسرين السابقين. وتبرز الأدلة العقلية هنا لأول مرة لتحتل مكانها الطبيعي الأصيل، بعد أن كان النقل في مناهج المفسرين القدامى هو الدليل الأوحده، وليس من دليل غيره.

وعلى الرغم من الدور الكبير الذي يلعبه النقل في هذا الكتاب، فإنه يعني النقل القائم على النقد والمحاكمة والترجيح، ولذلك اشترط في قبوله قيام «إجماع عليه» أو إنه «نقل متواتر به عمن يجب إتباع قوله، ولا يقبل في ذلك خبر واحد» لأن في المفسرين «من ذمّت مذاهبه كأبي صالح والسدي والكلبي وغيرهم، ولذلك كان لا بد للنقل المعبر في منهج الطوسي أن يدعمه الإجماع أو التواتر بشروطهما المقررة.

وحتى ذلك البعض من رواة التفسير ممن «حُمدت طرائقه ومُدحت مذاهبه كابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم» لم يتلقَ الطوسي سائر ما رُوِيَ عنهم بالقبول ولم يجد ما يبرر الانسياق مع سائر مروياتهم على كل حال.

وانطلاقاً من هذه الأسس رفض الطوسي كثيراً من روايات الطبقة الأولى من المفسرين، وأبان جوانب الخطأ والضعف فيها، وكان من جملة أولئك الذين أبان خطأهم ورفض بعضاً من رواياتهم: مجاهد^(١)، وابن جريج^(٢)، وعكرمة^(٣)، والسدي^(٤)، وعطاء^(٥)، وابن كيسان^(٦)،

(١) التبيان: ٥١٩/٣.

(٢) التبيان: ١٠٤/١ - ١٠٥.

(٣) التبيان: ٣٤٠/٨.

(٤) التبيان: ٣٥٤/١.

(٥) التبيان: ٢٩/١.

(٦) التبيان: ٢٧/١.

والحسن^(١)، وابن إسحاق^(٢). ووقف من نقول ابن عباس موقف التردد في بعض الأحيان^(٣). كما رفض في أحيان أخرى بعض الآراء على الرغم من ورود «روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامّة» فيها، لأن «طريقها الأحاد لا توجب علماً ولا عملاً، والأولى الإعراض عنها»^(٤).

وإذا كان موقف الطويب من أقوال الطبقة الأولى على هذا النحو من الدقة والحزم والموضوعية، فإن موقفه من أقوال المفسرين المتأخرين ممن تلا الطبقة الأولى، كان كذلك بل أكثر من ذلك، لأن «كل واحد منهم نصر مذهبه، وتأول على ما يطابق أصله، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً منهم»، ولذلك نجده يرفض من آرائهم ما يستأهل الرفض ويناقش في أقوالهم ما اقتضى الأمر المناقشة، كما فعل مع الطبري^(٥) والجبائي^(٦) والبلخي^(٧) والشّرمانى^(٨).

وهكذا يصبح للنقل لدى الطوسي حدود ثابتة قائمة على الإجماع أو التواتر، دون ما كان طريقه الأحاد، ودون الشعور بضرورة السّير وراء نقول التفسير في كل الفروض.

وهذا الجانب أحد جوانب التطوير الرئيسة في منهج الطوسي.

أما العقل فكان له هو الآخر دور كبير أيضاً في هذا المنهج، وقد

(١) التبيان: ٤٩٨/٦.

(٢) التبيان: ٤٣٥/١.

(٣) التبيان: ٦٠/١ و٢٣٠.

(٤) التبيان: ٣/١.

(٥) التبيان: ٦٠/١ و٢٣٣ و٤١٦ و٤٨٨ ومواضع أخرى من الكتاب.

(٦) التبيان: ١٠٢/١ ومواضع أخرى.

(٧) التبيان: ١٣/١ - ١٤ و٢٥٥ ومواضع أخرى.

(٨) التبيان: ١٢٥/١ و١٥١ و١٥٣ و٣٩٣ ومواضع أخرى.

اعتمد عليه الطوسي - كل الاعتماد - في شرح معاني القرآن وأهدافه، وفي الرد على مقالات الفرق والمذاهب المخالفة لوجهة نظره، وفي الدفاع عن طائفة الشيعة الإمامية ودحض ما أورد عليهم من شبهات ونقود^(١). ولم يكن يستطيع - لولا هذا الاستناد الكبير على النقل - أن يقوم بهذه المهمة على هذا النحو من الشمول والعمق والبرهنة السليمة الموقفة. وحسبنا أن نراجع النماذج التالية من ردوده ليتجلى لنا دور العقل في هذا المنهج على حقيقته الناصعة وواقعه المشرق:

الرد على أهل الوعيد (٤٤٨/٧). الرد على التناسخية (١٢٩/٤).
الرد على الحشوية (٢٤٣/٧). الرد على الخوارج (٣٦٦/١٠). الرد على الغلاة (٩٣/٥). الرد على المجبرة (٣٠/١). الرد على المجسمة (٣١٠/٢). الرد على المرجئة (٤٤٩/٧). الرد على المشبهة (١١٣/٤). الرد على المعتزلة (٤١٨/٢). الرد على المقوضة (٢١٦/٢)^(٢).

ولعل أبرز ما يثير الإعجاب والتقدير ويوضح ما أشرنا إليه من هيمنة العقل على منهج الطوسي أن نقرأ تصريح الشيخ - وهو في قرنه الخامس الهجري - بعدم رفضه لفكرة كروية الأرض، وفي ذلك يقول:

«واستدل أبو علي الجبائي بهذه الآية - ٢٢ / البقرة - على أن الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون والبلخي، بأن قال: جعلها فراشاً والفراش: البساط، بسط الله تعالى إياها، والكرة لا تكون مبسوطة. قال - أي الجبائي -: والعقل يدل أيضاً على بطلان قولهم، لأن الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها، لأن الماء لا

(١) التبيان: ١٣/١ - ١٤ و ٢٥٥ و ٢٩٢/٢ و ٤١٨ و ٤٨/٥ ومواقع أخرى.

(٢) لقد تعرض الطوسي للرد على هذه الفرق والمذاهب في كل أجزاء الكتاب، وأكتفينا هنا بالتنبيه على هذه المواضع لغرض التمثيل والإشارة.

يستقر إلا فيما له جنبان متساويان... فلو كانت له ناحية في البحر مستعلية على الناحية الأخرى لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى الناحية المنخفضة..

ثم يقول الشيخ معلّقاً على ذلك:

«وهذا لا يدل على ما قاله: لأن قول من قال: الأرض كروية، معناه أن لجميعها شكل الكرة»^(١).

ومن الشواهد البارزة على دور العقل في هذا المنهج عدم استبعاد الطوسي لفكرة كون السحاب ناشئاً من بخار الأرض، وفي ذلك يقول:

«فإن قيل: هل السحاب بخارات تصعد من الأرض؟ قلنا: ذلك جائز لا يُفطع به، ولا مانع أيضاً من صحته من دليل عقل ولا سمع»^(٢).

ومن تلك الشواهد أيضاً رفضه لفكرة كون السماوات غير الأفلاك وفي هذا الصدد يقول:

«قال الرماني: السماوات غير الأفلاك، لأن الأفلاك تتحرك وتدور وأما السماوات فلا تتحرك ولا تدور، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾. وهذا ليس بصحيح، لأنه لا يمتنع أن تكون السماوات هي الأفلاك وإن كانت متحركة، لأن قوله: (يمسك السماوات والأرض أن تزولا)، معناه لا تزول عن مراكزها التي تدور عليها»^(٣).

وهذا السلوك العقلي بهذا العمق والتجرد والانفتاح جانب آخر من جوانب التطوير الأساسية في منهج الطوسي.

(١) التبيان: ١٠٢/١ - ١٠٣.

(٢) التبيان: ٥٨/٢.

(٣) التبيان: ١٢٥/١.

ثمَّ يأتي بعد ذلك دور الجانب الثالث من جوانب المنهج، وهو جانب اللغّة والنحو والاشتقاق وما يرتبط به من بحث القراءات المختلفة وترجيح بعضها على بعض، ولذلك كله ميدان واسع في تفسير الطوسي. وقد رجع الشيخ إلى آراء الأعلام البارزين في هذه الصناعات، واطلع على مؤلفاتهم المعنيّة بالقرآن، وسرد أقوالهم بالتفصيل.

وكان من جملة من رجع إليه في شؤون اللغة والاشتقاق والنحو:

سيبويه. الخليل. صاحب كتاب العين - ولم يسمّه -. أبو عمرو. الكسائي. قطرب. الفراء. الأخفش. أبو زيد. أبو عبيدة. الأصمعي. ثعلب. ابن الأعرابي. المبرد. الزجاج. ابن دريد. الأزهري. أبو علي الفارسي. وأضرابهم.

ولكن الطوسي إذ يروي عن هؤلاء آرائهم في الاشتقاق والنحو واللغّة فإنّه لا يلتزم بها إلا بعد غربلة وتمحيص، وقد يرذّب بعضها لرجحان رأي آخر كما فعل مع الكسائي^(١) والفراء^(٢) وأبي عبيدة^(٣).

ورجع في القراءات إلى كل القراء المشهورين أمثال:

عاصم. الكسائي. خلف. حمزة. يعقوب. الأعمش. نافع. حفص. وأضرابهم.

ولكنه لم يذعن لكل قول قالوه، بل اختار ما رجع لديه الأخذ به ورفض ما سواه، كما فعل مع أبي^(٤) وعبدالله^(٥) وابن إسحاق^(٦).

(١) التبيان: ١٤٠/١.

(٢) التبيان: ١٠٤/١ و ٢٢٩.

(٣) التبيان: ١٢٨/١ - ١٢٩.

(٤) التبيان: ٤٣٧/١.

(٥) التبيان: ٤٣٧/١.

(٦) التبيان: ٤٣٥/١.

وبعد:

فهذه لمحات خاطفة عُنيّت بتسجيل الجوانب الأساسية لمنهج الشيخ الطوسي في تفسيره، مقارنةً بالمنهج الذي سار عليه المفسرون القدامى وفي مقدمتهم الطبري صاحب المدرسة المعروفة في هذا الفن. وقد اتضح من خلالها أنّ الطوسي قد تأثر بمنهج الطبري واستفاد من تفسيره، بدون تقليد أعمى وبلا تبعيّة ببغائيّة. وبذلك كان هذا التأثير علمياً قائماً على الموضوعية والسعي وراء الحقيقة.

واستطاع الطوسي بعمله وعمقه - وعلى الرغم من هذا التأثير - أن يقوم بعملية تطوير واضحة المعالم في المنهج الذي اختطّه لكتابه، حيث أقام التفسير على دعائمي العقل والنقل، بعد أن كان قائماً على دعامة النقل وحده كما مر.

وكان استعماله للعقل مشيراً للإعجاب إلى أبعد الحدود، حيث استطاع أن يتخلص من كل الرواسب الذهنيّة التي كان يعجّ بها عصره، ويتجرد من كل أسباب العبوديّة للأفكار السائدة يومذاك مما كان يعتبر الخروج عليها ضرباً من الزندقة والمروق عن الدين.

ولا ادّعي - وأنا أختتم هذا الحديث - إني قد استوعبت الموضوع دراسةً وبحثاً واستقصاءً، فذلك ما يحتاج إلى كتاب ضخم ومجال كبير.

وحسبي من كل جهدي أن أسلّط بعض الضوء على منهج الطوسي في التفسير وأن يحالفني بعض التوفيق في هذا المجال.

سَدَّدَ اللهُ خُطَى الْمَسْلُومِينَ وَأَخَذَ بِيَدِهِمْ لِمَا فِيهِ خَيْرٌ حَاضِرُهُمْ وَعِزٌّ مُسْتَقْبَلُهُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المصادر والمراجع

- الاتقان: للسيوطي القاهرة ١٣٦٠هـ.
- البيان: للسيد الخوئي النجف ١٣٧٧هـ.
- تاريخ التمدن الإسلامي: لجرجي زيدان القاهرة ١٩٣٥م.
- التبيان: للشيخ الطوسي النجف ١٣٧٦هـ.
- تفسير: الطبري القاهرة ١٣٧٣هـ.
- تنوير المقباس: لابن عباس القاهرة (د.ت).
- حياة الشيخ الطوسي: للطهراني «مستل» النجف ١٣٧٦هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - ج ٥ طهران «طبعة مصورة».
- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للطهراني ج ٣ النجف ١٣٥٧هـ.
- ج ٤ طهران ١٣٦٠هـ.
- سؤالات نافع بن الأزرق وجوابات ابن عباس «مستل» بغداد ١٣٨٧هـ.
- الطبقات: لابن سعد ليدن ١٣٢١هـ.
- الفهرست: لابن النديم القاهرة ١٣٤٨هـ.

- كشف الظنون: لحاجي خليفة تركيا ١٣٦٠هـ.
- لسان العرب: لابن منظور بيروت ١٩٥٥م.
- اللغات في القرآن: لابن عباس بيروت ١٣٩٢هـ.
- مباحث في علوم القرآن: للدكتور صبحي الصالح بيروت ١٩٦٨م.
- مجمع البيان: للطبرسي صيدا ١٣٣٣هـ.
- مذاهب التفسير الإسلامي: لكولد زيهرة القاهرة ١٣٧٤هـ.

الترجمة العربية

- معجم الأدباء: لياقوت القاهرة ١٣٥٥هـ.
- المقدمة: لابن خلدون القاهرة ١٩٤٨م.
- مناهل العرفان: للزرقاني القاهرة ١٣٦١هـ.

السيد علي آل طاووس

٥٨٩ - ٦٦٤ هـ

- حياته
- مؤلفاته
- خزانة كتبه

آل طاووس أسرة عراقية جلييلة أخرجت جملة من لأعلام في المائتين السابعة والثامنة تولوا شؤون النقابة والزعامة الروحية في أواخر عصور الدولة العباسية، ثم في الدولة الإيلخانية المغولية، وعالجوا الكتابة والتأليف في علوم الدين والفقه والشريعة والأنساب وما كان على شاكلتها من المواضيع.

وكان أبرز أعلام هذه الأسرة - السيد النقيب رضي الدين علي(*) بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي عبد الله محمد الطاووس^(١) ابن إسحاق بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داوود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ع)^(٢).

ولد قبل ظهر يوم الخميس منتصف المحرم سنة ٥٨٩هـ بالحلة^(٣)،

(*) كان المصدر الرئيس والوحيد لنا في بحثنا هذا بكامله مؤلفات السيد علي آل طاووس نفسه.

(١) كان محمد هذا رائع الحسن جميل الوجه ولم تكن قدماء مناسبة لحسن صورته فلقب بالطاووس، ويرجع هو وولده في الأصل إلى مدينة سورا - بالقرب من الحلة - حيث كان من أوائل من ولي النقابة فيها، ثم انتقلت ذريته بعد ذلك إلى الحلة. يراجع البحار: ١٩/٢٥ وعمدة الطالب: ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) هكذا سرد المترجم له نسبه في مقدمة كتابه (الإجازات) المطبوع في المجلد الخامس والعشرين من البحار: ١٩/١٢.

(٣) كشف المحجة: ٤.

وبها نشأ وترعرع وروى بنفسه في بعض مؤلفاته تاريخ نشأته ودراسته فقال:

(أول ما نشأت بين جدي ورام^(١) والدي... وتعلمت الخط والعربية، وقرأت في علم الشريعة المحمدية... وقرأت كتباً في أصول الدين... واشتغلت بعلم الفقه، وقد سبقني جماعة إلى التعليم بعدة سنين، فحفظت في نحو سنة ما كان عندهم وفضلت عليهم... وابتدأت بحفظ الجمل والعقود... وكان الذين سبقوني ما لأحدهم إلا الكتاب الذي يشتغل فيه، وكان لي عدة كتب في الفقه من كتب جدي ورام انتقلت إلي من والدتي (رض) بأسباب شرعية في حياتها... فصرت أطلع بالليل كل شيء يقرأ فيه الجماعة الذين تقدموني بالسنين، وانظر كل ما قاله مصنف عندي وأعرف ما بينهم من الخلاف على عادة المصنفين، وإذا حضرت مع التلاميذ بالنهار أعرف ما لا يعرفون وأناظرهم... وفرغت من الجمل والعقود، وقرأت النهاية فلما فرغت من الجزء الأول منها استظهرت على العلم بالفقه حتى كتب شيخني محمد بن نما خطه لي على الجزء الأول وهو عندي الآن... فقرأت الجزء الثاني من النهاية أيضاً ومن كتاب المبسوط، وقد استغنيت عن القراءة بالكلية... وقرأت عند ذلك كتباً لجماعة بغير شرح، بل للرواية المرضية... وسمعت ما يطول ذكر تفصيله)^(٢).

(١) كانت أمه بنت الشيخ ورام بن أبي فراس المالكي النخعي المتوفى سنة ٦٠٥هـ، وكانت أم والده موسى حفيدة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي صاحب الفهرست المتوفى سنة ٤٩٠هـ وكان رضي الدين كثير العلاقة بجده ورام وكثير النقل والرواية عنه في مؤلفاته. يراجع كشف المحجة: ١٢٧ والفوائد الرضوية: ٦٩٧/٢ والذريعة: ٥٨/١.

(٢) كشف المحجة: ١٠٩ - ١٢٩ - ١٣٠.

وكان له بالإضافة إلى شيخه محمد بن نما السالف الذكر شيوخ كثيرون لا يتسع المجال لذكر جميعهم، نذكر منهم:

١ - أسعد بن عبد القاهر بن أسعد الأصفهاني - كان قد وصل بغداد سنة ٦٣٥هـ وزار رضي الدين في داره في شهر صفر من تلك السنة وأجازه هناك بالرواية عنه^(١).

٢ - الحسين بن أحمد السوراوي، وقد أجازه في شهر جمادى الآخرة ٦٠٩هـ^(٢).

٣ - محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي، يروي عنه إجازة كتابه (تذليل تاريخ بغداد)^(٣).

٤ - تاج الدين الحسن بن علي الدربي، يروي عنه صحيح مسلم^(٤).

٥ - سديد الدين سالم بن محفوظ بن عزيزة السوراوي، قرأ عليه التبصرة وبعض المنهاج^(٥).

٦ - كمال الدين حيدر بن محمد بن زيد بن محمد بن عبد الله الحسيني، قرأ عليه أياماً كثيرة منها يوم السبت ١٩ جمادى الآخرة سنة ٦٢٠هـ^(٦).

(١) جمال الأسبوع: ١٦٩ وسعد السعود: ٢٢٣ واليقين: ٢٩ و ١٨١.

(٢) جمال الأسبوع: ٢٣.

(٣) الإقبال: ٥٨٥ والأمان: ١٠٢ وسعد السعود: ٧٣.

(٤) البحار: ١٠٨/٢٥.

(٥) نفس المصدر: ٤٣/٢٥.

(٦) اليقين: ١٨٧.

كما وقد قرأ عليه وروى عنه كثير من الأعلام، نذكر منهم:
الحسن بن يوسف العلامة الحلبي - غياث الدين عبد الكريم آل
طاووس - جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي - علي بن عيسى الإربلي
- الحسن بن داوود الحلبي^(١).



وهاجر رضي الدين في شبابه إلى بغداد، ويحدثنا عن سبب هذه
الهجرة فيقول: (ثم اتفق لوالديّ - قدس الله روحيهما ونور ضريحيهما -
تزويجي... وكنت كارهاً لذلك... فأدى ذلك إلى التوجه إلى مشهد
مولانا الكاظم(ع) وأقمت به حتى اقتضت الاستخارة التزويع بصاحبتي
زهراء خاتون بنت الوزير ناصر بن مهدي رضوان الله عليها وعليه،
وأوجب ذلك طول الاستيطان ببغداد)^(٢).

وعلى الرغم من عدم معرفتنا بتاريخ الهجرة فإن الشيء المتيقن إن
رضي الدين كان ببغداد سنة ٦٣٥هـ حيث يروي أن شيخه أسعد بن
عبد القاهر قد زاره في داره في شهر صفر من تلك السنة^(٣)، والظاهر أنه
كان قد قدمها قبل ذلك بسنين، لأنه (أقام ببغداد نحواً من خمس عشرة
سنة ثم رجع إلى الحلة) في رواية بعض المصادر^(٤)، وكان رجوعه هذا
إلى الحلة في حدود عام ٦٤٠هـ كما سيأتي.

ولقي ببغداد من ضروب الحفاوة الشيء الكثير، وكان من جملتها
إنعام الخليفة المستنصر عليه بدار يسكن فيها، وتقع بالجانب الشرقي عند

(١) تراجع أمل الأمل: ٧١ والبحار: ٤٣/٢٥ و١٠٠ والذريعة: ٢٢٢/١.

(٢) كشف المحجة: ١١١.

(٣) سعد السعود: ٢٣٢ واليقين: ٧٩ و١٨١.

(٤) البحار: ١٩/٢٥.

المأمونية في الدرب المعروف بدرب الجوبة^(١).

كما كان من جملتها صلاته الوثقى بفقهاء النظامية والمستنصرية ومناقشاته ومحاوراته معهم^(٢).

وصلاته الوثقى أيضاً بالوزير القمي وولده^(٣) والوزير ابن العلقمي وأخيه وولده صاحب المخزن^(٤).

وكان له مع الخليفة المستنصر - المتوفى سنة ٦٤٠هـ - من متانة الصلة وقوة العلاقة ما يعتبر في طليعة ما حفل به تاريخه في بغداد، وكان من أول مظاهرها إنعام الخليفة عليه بدار سكناه - كما مرّ -، ثم أصبحت لرضي الدين من الدالة ما يسمح له بالسعي لدى المستنصر في تعيين الرواتب للمحتاجين^(٥) وما يدفع المستنصر إلى مفاتحته في تسليم الوزارة له - كما سيأتي - . ولعل حبّ المستنصر - كأبيه - للعلويين وعطفه عليهم واهتمامه بشؤونهم هو السبب في هذه العلاقة الأكيدة القوية وفي تدعيمها واستمرارها طوال تلك السنين، ولنترك رضي الدين يحدثنا بقلمه عن تلك العلاقة ويروي لنا نماذج منها فيقول:

(طلبني الخليفة المستنصر - جزاه الله عنا خير الجزاء - للفتوى، على عادة الخلفاء، فلما وصلت إلى باب الدخول... تضرعت إلى الله عزوجل وسألته أن يستودع مني ديني وكلّ ما وهبني، ويحفظ عليّ كل ما

(١) سعد السعود: ٢٢٣ واليقين: ٢٩ و١٨١ - والمأمونية - هي اليوم محلة عقد القشل والدهانة والهيثاويين وصبايغ الآل. ودرب الجوبة في الجهة الشرقية من محله المهديّة مما يلي محلة قره شعبان وفضوته. يراجع بغداد قديماً وحديثاً: ١٢١ و٢٤٣.

(٢) كشف المحجة: ٧٥ - ٨٠.

(٣) كشف المحجة: ١١٢ و١١٣.

(٤) البحار: ٤٣/٢٥.

(٥) فرج المهموم: ١٢٦ - ١٢٧.

يقربني من مرضيه، فحَضَرْتُ فاجتهد بكل جهد بلغ توصله إليه إنني أدخل في فتواهم، فقَوَّاني الله جل جلاله على مخالفتهم والتهوين بنفسي^(١).

والظاهر أن الوشاة قد حاولوا إفساد علاقته بالمستنصر بعد رفضه منصب الافتاء حيث يقول: (وجرت عقيب ذلك أهوال من السعيات، فكفاني الله جل جلاله بفضلته وزادني من العناية^(٢)).

ثم عاد الخليفة ودعاني إلى نقابة جميع الطالبين على يد الوزير القومي وعلى يد غيره من أكابر دولتهم، وبقي على مطالبتني بذلك عدة سنين، فاعتذرت بأعذار كثيرة، فقال الوزير القومي: ادخلْ واعملْ فيها برضا الله، فقلت له: فلأبي حال لا تعمل أنت في وزارتك برضا الله تعالى، والدولة أحوج إليك منها إليّ، ثم عاد يتهددني، وما زال الله جلا جله يقويني عليهم حتى أيدني وأسعدني^(٣).

(وعاد المستنصر... وتحيل معي بكل طريق... وقيل لي: إما أن تقول أن الرضى والمرضى كانا ظالمين أو تعذرهما فتدخل في مثل ما دخلا فيه، فقلت: إن أولئك كان زمانهم زمان بني بويه... وهم مشغولون بالخلفاء والخلفاء بهم مشغولون، فتمّ للرضى والمرضى ما أرادوا من رضا الله^(٤)).

ثم (اختار الخليفة المستنصر - جزاء الله خير الجزاء - أن أكون رسولاً إلى سلطان التتر، فقلت لمن خاطبني في هذه الأشياء مع معناه:

(١) كشف المحجة: ١١١.

(٢) نفس المصدر: ١١٢.

(٣) نفس المصدر: ١١٢.

(٤) نفس المصدر: ١١٢.

إن أنا نجحت ندمت وإن جنحت ندمت فقال: كيف؟ فقلت: إن نجاح سعبي يقتضي أنكم لا تعزلوني من الرسائل... وإن لم ينجح الأمر سقطت من عينكم سقوطاً يؤدي إلى كسر حرمتي^(١).

و(كنت استأذنت الخليفة في زيارة مولانا الرضا - عليه التحية والثناء - بخراسان، فأذن، وتجهزت وما بقي إلا التوجه إلى ذلك المكان، فقال مَنْ كان الحديث في الأذن إليه: قد رُسم أنك تكون رسولاً إلى بعض الملوك، فأعتذرت وقلت: هذه الرسالة إن نجحت ما يتركوني بعدها أتصرف في نفسي. وإن جنحت صغر أمري وانكسرت حرمتي... ثم لو توجهتُ كان بعدي من الحساد من يقول لكم: إنه يبايع ملك الترك كما كان من جملتها صلواته الوثقى بفقهاء النظامية والمستنصرية ومناقشاته ومحاوراته معهم.

وصلاته الوثقى ويجيء به إلى هذه البلاد وتصدقونه... فقال: وما يكون العذر؟ قلت: إنني أستخير وإذا جاءت لا تفعل فهو يعلم إنني لا أخالف الاستخارة أبداً، فاستخرت وأعتذرت^(٢).

(ثم عاد الخليفة المستنصر - جزاه الله خير الجزاء - وكلفني الدخول في الوزارة وضمن لي أنه يبلغ بي في ذلك إلى الغاية، وكرر المراسلة والإشارة... فراجعتُ واعتذرتُ، حتى بلغ الأمر إلى أن قلت ما معناه: إن كان المراد بوزارتي على عادة الوزراء، يمشون أمورهم بكل مذهب وكل سبب، سواء أكان ذلك موافقاً لرضا الله جل جلاله ورضا سيد الأنبياء والمرسلين أو مخالفاً لهما في الآراء، فإنك مَنْ أدخلته في الوزارة... قام بما جرت عليه العوائد الفاسدة. وإن أردت العمل في ذلك بكتاب الله جل جلاله وسنة رسوله (ص) فهذا أمر لا

(١) نفس المصدر: ١١٣ - ١١٤.

(٢) كشف المحجة: ١٤٨.

يحتمله من في دارك ولا مماليكك ولا خدمك ولا حشمك ولا ملوك الأطراف، ويقال لك إذا سلكت سبيل العدل والإنصاف والزهد إن هذا علي بن طاووس علوي حسني ما أراد بهذه الأمور إلا أن يعرف أهل الدهور أن الخلافة لو كانت إليهم كانوا على هذه القاعدة من السيرة، وإن في ذلك رداً على الخلفاء من سلفك وطعناً عليهم^(١).

ولمّا تغلب التتار (على بلاد خراسان وطمعوا في هذه البلاد ووصلت سراياه إلى نحو مقاتلة بغداد في زمن الخليفة المستنصر - جزاه الله عني بما هو أهله -، كتبت إلى الأمير قشتمر^(٢) وكان إذ ذاك مقدّم العساكر خارج بلد بغداد وهم مبرّزون بالخيم والعدد والاستظهار ويخافون أن تأتيهم عساكر التتار وقد نودي في باطن البلد بالخروج إلى الجهاد فقلت له بالمكاتبة: استأذن لي الخليفة وأعرض رقعتي عليه في أن يأذن لي في التدبير ويكونون حيث أقول يقولون وحيث أسكت يسكتون، حتى أصلح الحال بالكلام، فقد خيف على بيضة الإسلام، وما يعذر الله جل جلاله من يترك الصلح بين الأنام، وذكرت في المكاتبة إنني ما أسير بدرع ولا عدّة إلا بعادتي من ثيابي ولكنني أقصد الصلح، ولا أبخل بشيء لا بد منه، وما أرجع بدون الصلح فإنه مما يريد الله عزوجل ويقربني منه، فاعتذروا وأرادوا غير ما أردناه^(٣).

ثم (حضرْتُ عند صديق لنا وكان أستاذ دار وقلت له: تستأذن لي الخليفة في أن أخرج أنا (وآخرون) ونأخذ معنا من يعرف لغة التتار

(١) كشف المحجّة: ١١٤.

(٢) هو الأمير جمال الدين قشتمر المتوفى سنة ٦٣٧هـ، وأظن أنه يقصد حادث وصول جيوش المغول إلى نواحي العراق المذكور في الحوادث الجامعية: ١٠٩ - ١١٠، وكان ذلك سنة ٦٣٥هـ.

(٣) كشف المحجّة: ١٤٦ - ١٤٧.

ونلقاهم ونحدثهم... لعل الله جل جلاله يدفعهم بقول أو فعل أو حيلة عن هذه الديار، فقال: نخاف تكسرون حرمة الديوان ويعتقدون إنكم رسلٌ من عندنا، فقلت: (أرسلوا معنا) من تختارون ومتى ذكرناكم أو قلنا إننا عنكم حملوا رؤوسنا إليكم وأنجاكم ذلك وأنتم معذورون. ونحن إنما نقول إننا أولاد هذه الدعوة النبوية والمملكة المحمدية، وقد جئنا نحدثكم عن ملتنا وديننا فإن قبلتم وإلا فقد أعذرنا... فقام وأجلسني في موضع منفرد أشار إليه، وظاهر الحال أنه أنهى ذلك إلى المستنصر...

ثم أطال وطلبني من الموضع المنفرد وقال ما معناه: إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا أذنا لكم، لأن القوم الذين قد أغاروا ما لهم متقدم تقصدونه وتخاطبونه وهؤلاء سرايا متفرقة وغارات غير متفقة^(١).



وعاد بعد ذلك كله إلى الحلة ولا نعلم بالتحقيق متى كان ذلك، ولكنه على الأرجح في أواخر عهد المستنصر^(٢)، فبقي هناك مدة من الزمن حيث ولد له فيها ابنه محمد سنة ٦٤٣هـ^(٣)، ثم انتقل منها إلى النجف فبقي فيها ثلاث سنين^(٤)، وولد له هناك ولده علي سنة ٦٤٧هـ^(٥)، ثم انتقل إلى كربلاء وكان ينوي الإقامة فيها ثلاث ببعض أعلام عصره إلى طلب التصدي منه للفتيا والقضاء الشرعي، اعتماداً على

(١) نفس المصدر: ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) كشف المحجة: ١١٥.

(٣) نفس المصدر: ٤ و١٥١.

(٤) نفس المصدر: ١١٨.

(٥) نفس المصدر: ٤.

فقهه العميق وورعه الذي لا يتسرب إليه الشك، وفي ذلك يحدثنا فيقول:

(وأراد بعض شيوخي أنني أدرّس وأعلم الناس وأفتيهم وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدتُ الله جل جلاله يقول في القرآن الشريف: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين)، فرأيت إن هذا تهديد من رب العالمين... فكرهتُ وخفتُ من الدخول في الفتوى، حذراً من أن يكون فيها تقوُّلٌ عليه، وطلبُ رئاسةٍ لا أريد بها التقرب إليه، فأعتزلت^(١)).

ثم اجتمع عندي من أشار إلى أن أكون حاكماً بين المختلفين على عادة الفقهاء والعلماء من السلف الماضين، ومصلحاً لأمر المتحاكمين، فأعتزلت^(٢).

ومن الناحية الأدبية ذكر ابن أخيه السيد عبد الكريم غياث الدين أن لعمه نظماً ونثراً^(٣)، وقال الحر العاملي في ترجمته: (وكان أيضاً شاعراً أديباً منشئاً بليغاً)^(٤)، ولم نعثر على شعرٍ له سوى ما رواه الشيخ شمس الدين محمد بن مكي حيث قال: كتبت من خط رضي الدين بن طاووس قدس الله روحيهما:

حَبَّتْ نار العلى بعد اشتعالِ
ونادى الخيرُ حَيَّ على الزوالِ

(١) كشف المحجة: ١٠٩.

(٢) نفس المصدر: ١١٠.

(٣) البحار: ١٠٠/٢٥.

(٤) أمل الأمل: ٧٠.

ثم ذكر خمسة أبيات^(١) من الشعر، ولم يثبت أنها له.

وخلف رضي الدين - رضي الله عنه - من بعده من المؤلفات مجموعة قيمة في بابها بلغت حسب إحصائنا (٤٨) كتاباً، وتعتبر هذه المؤلفات بما فيها من الفوائد ومن النقول عن بعض المصادر المفقودة على جانب كبير من الأهمية، ونورد فيما يلي جدولاً بأسمائها:

١ - الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة - ذكره مؤلفه في سعد السعود: ٤ و ٢٥ سنين^(٢)، ولا ندرى هل تحققت نيته أم لا، ثم عاد إلى بغداد سنة ٦٥٢هـ^(٣) وبقي فيها إلى حين احتلال المغول بغداد، فشارك في أهوالها وشملته آلامها، وفي ذلك يقول:

تمّ احتلال بغداد من قبل التتر في يوم الاثنين ١٨ محرم سنة ٦٥٦هـ. . . وبتنا في ليلة هائلة من المخاوف الدنيوية فسلمنا الله جل جلاله من تلك الأهوال^(٤).

ولما تم احتلال بغداد أمر هولاءكو (أن يُستفتى العلماء: أيما أفضل، السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟؟ ثم جُمع العلماء بالمستنصرية لذلك فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، وكان رضي الدين علي بن طاووس حاضراً هذا المجلس وكان مقدماً محترماً، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطه فيها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده^(٥).

(١) البحار: ١٧/٢٥.

(٢) نفس المصدر: ١١٨.

(٣) فرج المهموم: ١٤٧.

(٤) الإقبال: ٥٨٦.

(٥) الفخري: ١٣.

وقد نال صاحبنا بفتياه هذه مقاماً كبيراً في نفس الكافر المحتل، وكان من فوائد ذلك ما أشار إليه بقوله: (ظفرت بالأمان والإحسان، وحُقت فيه دماؤنا، وحفظت فيه حرماننا وأطفالنا ونساؤنا، وسلم على أيدينا خلق كثير)^(١).

وفي سنة ٦٦١هـ ولي رضي الدين نقابة الطالبين^(٢)، وبقي نقيباً إلى أن توفي يوم الاثنين خامس ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ^(٣). رحمة الله ورضوانه عليه.

فضله وآثاره:

كان رضي الدين - رحمه الله - على جانب كبير من العلم والفضل والمعرفة كما تشهد به مؤلفاته وآثاره وأقوال المؤرخين والرجاليين الذين ترجموا له وذكروه، حتى آل الأمر ببعض أعلام عصره إلى طلب التصدي منه للفتيا والقضاء الشرعي، إعتماً على فقه العميق وورعه الذي لا يتسرب إليه الشك، وفي ذلك يحدثنا فيقول:

(وأراد بعض شيوخي أنني أدرّس واعلم الناس وأفتيهم وأسلك سبيل الرؤساء المتقدمين فوجدتُ الله جل جلاله يقول في القرآن الشريف: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين)، فرأيت أن هذا تهديد من رب العالمين... فكرهتُ وخفتُ من الدخول في الفتوى، حذراً من أن يكون فيها تقوُّلٌ عليه، وطلبُ رئاسةٍ لا أريد بها التقرب إليه، فأعترلت)^(٤).

(١) الإقبال: ٥٨٨.

(٢) الإقبال: ٥٨٦ والحوادث الجامعة: ٣٥٠.

(٣) الحوادث الجامعة: ٣٥٦ والبحار: ١٩/٢٥ و٤٣.

(٤) كشف المحجة: ١٠٩.

ثم اجتمع عندي من أشار إلى أن أكون حاكماً بين المختلفين على عادة الفقهاء والعلماء من السلف الماضين، ومصلحاً لأمر المتحاكمين، فاعتزلت^(١).

ومن الناحية الأدبية ذكر ابن أخيه السيد علد الكريم غياث أن لعمه نظماً ونشراً^(٢)، وقال الحر العاملي في ترجمته: (وكان أيضاً شاعراً أدبياً منشئاً بليغاً)^(٣)، ولم نعثر على شعر له سوى الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي حيث قال: كتبت من خط رضي الدين بن طاووس قدس الله روحيهما: حَبَّتْ نار العلى بعد اشتعالِ ونادى الخيرُ حَيَّ على الزوالِ ثم ذكر خمسة أبيات^(٤) من الشعر، ولم يثبت أنها له.

وخلف رضي الدين - رضي الله عنه - من بعده من المؤلفات مجموعة قيمة في بابها بلغت حسب إحصائنا (٤٨) كتاباً، وتعتبر هذه المؤلفات بما فيها من الفوائد ومن النقول عن بعض المصادر المفقودة على جانب كبير من الأهمية، ونورد فيما يلي جدولاً بأسمائها:

١ - الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة - ذكره مؤلفه في سعد السعود: ٤ و ٢٥.

٢ - الإجازات لما يخصني من الإجازات - هكذا أسماه مؤلفه في الإقبال: ٥٤٢ و ٩٥٨ واليقين: ٣٤ ومواضع أخرى منه. طبع بعضه في البحار: ١٧/٢٥ - ١٩ وأسماء الطهراني في الذريعة: ١/١٢٧ (الإجازات لكشف طرق المفازات فيما يخصني من الإجازات).

(١) نفس المصدر: ١١٠.

(٢) البحار: ١٠٠/٢٥.

(٣) أمل الآمل: ٧٠.

(٤) البحار: ١٧/٢٥.

- ٣ - الأسرار المودعة في ساعات الليل والنهار - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٦ و ٨٩ و ١٣٠، وأسماء الطهراني في الذريعة: ٣٩٦/١ (أدعية الساعات).
- ٤ - أسرار الصلاة - ذكره الطهراني في الذريعة: ٤٩/٢ وأشار إلى وجود كراسة من أوله بخط عتيق في مكتبة السيد حسن الصدر.
- ٥ - الاضطفاء - هكذا أسماه مؤلفه في كشف المحجة: ٣ و ١١٢ و ١١٤ ومواقع أخرى، ولكنه عاد فأسماه (الاضطفاء والبشارات) في كشف المحجة أيضاً: ٣٤ و (كتاب البشارات) في الإقبال: ٤٦٩ و (الاضطفاء في تواريخ الملوك والخلفاء) في كشف المحجة: ١٣٨.
- ٦ - إغاثة الداعي وإعانة الساعي - ذكره مؤلفه في الإقبال: ١٨٧ ومهج الدعوات: ١٢٩ و ١٧٧ و ٣٦٦.
- ٧ - الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٧ وسعد السعود: ٦٩ و ٢٩٤ وكشف المحجة: ١٥٦، وتم تأليفه قبل سنة ٦٥٦هـ. طبع في إيران بالحجم الكبير جداً على الحجر في ٧٢٨ صفحة سنة ١٣١٢هـ.
- ٨ - الأمان من أخطار الأسفار والأزمان - طبع في النجف في ١٨١ صفحة سنة ١٣٧٠هـ ومنه نسختان خطيتان في بعض المكتبات كما في الذريعة: ٣٤٤/٢.
- ٩ - الأنوار الباهرة - ذكره مؤلفه في الملاحم والفتن: ٨٠ واليقين: ٦.
- ١٠ - البهجة لثمرة المهجة - وهو غير كشف المحجة - ذكره مؤلفه في سعد السعود: ٧٩ وكشف المحجة: ١٧ و ٨٦ و ١١١ و ١٣٨، وقال عنه: (يتضمن حال بدايتي ومعرفتي وطلبي الأولاد إلخ).

- ١١ - التحصيل من التذليل - تذييل شيخه ابن النجار على تاريخ بغداد - ذكره مؤلفه في الإقبال: ٦٨٥ و ٧٠١ ومحاسبة النفس: ١١ والملاحم والفتن: ١١١ و ١٤٤ و ١٥٠.
- ١٢ - التحصين في أسرار ما زاد على كتاب اليقين - ورد ذكره في البحار: ١٣/١ وروضات الجنات: ٣٨٣ والذريعة: ٣/٣٩٨.
- ١٣ - التراجم فيما نذكره عن الحاكم - ذكره مؤلفه في الأمان: ٣٠ وأشار إلى جزئه الثاني.
- ١٤ - التعريف للمولد الشريف - ذكره المؤلف في الإقبال: ٥٩٨ - ٥٩٩ و ٦٠٣ ومواضع أخرى منه.
- ١٥ - التمام لمهام شهر الصيام - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٧.
- ١٦ - التوفيق للوفاء بعد التفريق (في) دار الفناء - ذكره مؤلفه في كشف المحجة: ١٣٩.
- ١٧ - جمال الأسبوع في كمال (بكمال) العمل المشروع - ذكره مؤلفه في الإقبال: ٦٢٣ والأمان: ٧٧ ومحاسبة النفس: ١١، طبع في إيران في ٥٤١ صفحة سنة ١٣٣٠هـ وكان قد طبع أيضاً فيها سنة ١٣٠٣هـ.
- ١٨ - الدرر الواقية من الأخطار - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٧ وذكر الطهراني في الذريعة: ١٤٦/٨ عدة نسخ خطية منه.
- ١٩ - ربيع الألباب - ذكره مؤلفه في كشف المحجة: ١٢٥ و ١٣٨ وقال: «قد خرج منه ست مجلدات تشتمل على روايات وحكايات» من آثار الأخيار وفوائد الأتقياء.
- ٢٠ - روح الأسرار - ذكره مؤلفه في كتاب إجازاته المطبوع في البحار: ١٧/٢٥ وقال - (مختصر: التمسه مني الشيخ العالم محمد بن

علي بن زهرة الحلبي - رضوان الله عليه - حين ورد إلى الحج وكان ضيفاً لنا ببلد الحلة . . . وهو كتاب لطيف أملهته وأنفذته إليه).

٢١ - ريّ الظمآن من مرويّ محمد بن عبد الله بن سليمان - ذكره مؤلفه في اليقين ١٨٤.

٢٢ - زهرة الربيع في أدعية الأسابيع - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٧ ومهج الدعوات: ٣٢١ و٣٤٠.

٢٣ - السعادات بالعبادات - هكذا أسماه مؤلفه في الإقبال: ٥٩٢ والأمان: ٦٩ و٧٥ وسعد السعود ١٣٧ وأسماء في مهج الدعوات: ١٢٩ (كتاب السعادة).

٢٤ - سعد السعود - طبع في النجف سنة ١٣٦٩هـ وجاء في آخره: ٢٩٨ أنه الجزء الأول، وقال مؤلفه في مقدمته: (وجدت في خاطري يوم الأحد في ذي القعدة سنة ٦٥١هـ . . . في أن أصنف كتاباً اسميه سعد السعود أذكر فيه من كل كتاب وقفته على ذكور أولادي وذكور أولادهم)، وقد جمع فيه فوائد من تلك الكتب ليُنْتَفَعَ بها بعد ضياع أصولها أو تلفها.

٢٥ - شفاء العقول من داء الفضول - ذكره مؤلفه في كتاب إجازاته المطبوع في البحار: ١٨/٢٥ وقال: بأنه (مقدمة في علم الكلام كتبها ارتجالاً)، كما ذكره في إجازته لجمال الدين يوسف بن حاتم الشامي المطبوع في البحار: ١٩/٢٥.

٢٦ - الطرائف في (معرفة) مذاهب الطوائف - ذكره مؤلفه في رسالة إجازته المطبوعة في البحار: ١٧/٢٥ والإقبال: ٤٦٧ و٥٩٥ وسعد السعود: ٦٩ و٩١ ومواضع أخرى منه وكشف المحجّة: ٣٦ و٤١ - ومواضع أخرى منه وطرف الأنبياء: ٤. طبع الكتاب في إيران على

الحجر سنة ١٣٢٠هـ في ١٧٦ صفحة. أسمى المؤلف نفسه في هذا الكتاب عبدالمحمود بن داوود وافترض أنه رجل من أهل الذمة يريد البحث في المذاهب الإسلامية بحرية رأي وتجرد.

٢٧ - طرف من الأنبياء والمناقب - ذكره مؤلفه في إجازته في البحار: ١٧/٢٥ وكشف المحجّة ١٣٩ - طبع في النجف سنة ١٣٦٩هـ في ٥٠ صفحة.

٢٨ - غياث سلطان الوري لسكان الثرى - ذكره مؤلفه في إجازته في البحار: ١٧/٢٥ وفرج المهموم: ٤٢ وكشف المحجّة: ١٣٨ والملهوف: ١١ وقال: إنه في قضاء الصلاة الفائتة عن الأموات، وإنه لم يؤلف غيره في الفقه لأنه لا يريد الدخول في الفتوى.

٢٩ - فتح الأبواب - ذكره مؤلفه في إجازته في البحار: ١٧/٢٥ والأمان: ٨٤ و٩ وكشف المحجّة: ١٠١ و١٢١ ومواضع أخرى.

٣٠ - فتح الجواب الباهر - هكذا أسماه في كشف المحجّة: ١٣١ و١٣٨، ولكنه أسماه في إجازته: (فتح محجوب الجواب الباهر).

٣١ - فرج المهموم في معرفة (نهج) الحلال والحرام من (علم) النجوم - ذكره مؤلفه في الأمان: ٨٩. طبع الكتاب في النجف سنة ١٣٦٨هـ في ٢٦٠ صفحة وجاء في آخره (وكان الفراغ من تأليفه يوم الثلاثاء العشرين من شهر المحرم سنة خمسين وستمائة هلالية بمشهد مولانا الشهيد المعظم الحسين (ع)).

٣٢ - فرحة الناظر وبهجة الخواطر - ذكره مؤلفه في رسالة إجازته وقال: (مما رواه والذي موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس... ونقله في أوراق وأدراج وانتقل إلى الله... فجمعت بعد وفاته... ويكمل أربع مجلدات لكل مجلد خطبة، وسميته بهذا الاسم المذكور).

- ٣٣ - فلاح السائل ونجاح المسائل - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧٦ و٧٩ و١٢٨ و١٣٠ وجمال الأسبوع: ١٩٠ و٢٢٤ ومحاسبة النفس: ١٧ ومهج الدعوات: ٣٤٠، وقد بدأ بتأليفه بعد سنة ٦٣٥هـ وفي أوله رواية عن أسعد الأصفهاني تاريخها السنة المذكورة.
- ٣٤ - القبس الواضح من كتاب المجلس الصالح - ذكره مؤلفه في رسالة إجازاته في البحار: ١٧/٢٦، وهو مختصر كتاب المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي للمعافي بن زكريا المذكور في كشف الظنون ١/٥٩٣.
- ٣٥ - الكرامات - ذكره مؤلفه في الأمان - ١١٥ - في موضعين.
- ٣٦ - كشف المحجة لثمرة المهجة - ذكره مؤلفه في كتاب إجازاته وقال: (وجعلت له اسماً آخر إسعاد ثمرة الفؤاد على سعادة الدنيا والمعاد). ألّفه في سنة ٦٤٩هـ وكان آنذاك في كربلاء كما ورد فيه - ٤ و١١٨ و١٩٤. طبع في النجف سنة ١٣٧٠هـ في ١٩٦ صفحة، والكتاب مؤلف على شكل رسالة يوجهها رضي الدين لولديه محمد وعلي وكانا حين التأليف طفلين.
- ٣٧ - لباب المسرّة من كتاب (مزار) ابن أبي قرّة - ذكره مؤلفه في الإقبال: ٤٧٠ كما ذكره ابن أخيه ناسباً إياه لعمه في فرحة الغري: ٤٠ و٧٧.
- ٣٨ - المجتنى - ذكره المجلسي في البحار: ١٣/١ والخونساري في روضات الجنات: ٣٨٣. طبع في بومباي - الهند سنة ١٣١٧.
- ٣٩ - محاسبة النفس - ذكرها العاملي في أمل الآمل: ٧١ والمجلسي في البحار: ٣/١ و١٠١/٢٥. طبعت في النجف في ٢٣ صفحة ومعها رسالة تنبيه الراقدين لمحمد طاهر بن محمد.
- ٤٠ - المختار من أخبار أبي عمرو الزاهد - ذكره مؤلفه في رسالة إجازاته.

٤١ - مسلك المحتاج إلى مناسك الحاج - ذكره مؤلفه في كتاب إجازاته والإقبال: ٣٠٦ وكشف المحجة: ١٤٥.

٤٢ - مصباح الزائر وجناح المسافر - ذكره مؤلفه في الإقبال: ٢٧٤ ومواضع أخرى منه والأمان ٣٣ و١٢١ و١٢٥ وجمال الأسبوع: ١٨٠ و٢٣٢ وكشف المحجة: ١٣٩ والملهوف: ٥، وصرح أنه من أول مؤلفاته.

٤٣ - المضممار - هكذا أسماه مؤلفه في الإقبال: ٥٥٤ و٦٣٥ والأمان: ٢٢ و٧٧ وكشف المحجة: ١٤٤، ولكنه أسماه في رسالة إجازاته في البحار: ١٧/٢٥ مضممار السبق في ميدان الصدق. يقال إنه مطبوع.

٤٤ - الملاحم والفتن - طبع بهذا الاسم في النجف سنة ١٣٦٨ هـ في ١٦٥ صفحة، ولكن المؤلف يذكر في أثناء كتابه ص ١٦٥ أن اسمه (كتاب التشريف بالمتن في الملاحم والفتن). ألفه في عامي ٦٦٢ - ٦٦٣ هـ، وهو عبارة عن تلخيص ثلاثة كتب: كتاب الفتن لنعيم بن حماد الخزاعي، وكتاب الفتن لأبي صالح السليلي، وكتاب الفتن لزكريا بن يحيى البراز.

٤٥ - الملهوف على قتلى الطفوف - ذكره مؤلفه في الإقبال: ٥٦٢ وكشف المحجة: ١٣٨ وطبع في النجف وإيران غير مرة.

٤٦ - المنتقى - ذكره مؤلفه في الأمان: ٧١ و٧٧ وكشف المحجة: ١٣٦.

٤٧ - مهج الدعوات ومنهج العنايةات - ذكره مؤلفه في سعد السعود: ١٧٥، وقد طبع في إيران سنة ١٣١٨ هـ في ٤٥٠ صفحة.

٤٨ - اليقين - ذكره مؤلفه في الملاحم والفتن: ١٢٥ بهذا الاسم،

وكذلك سمي في النسخة المطبوعة في النجف سنة ١٣٦٩هـ في ٢٠٧ صفحات، ولكن المجلسي في البحار: ١٢/١ أسماه كشف اليقين.

خزانة كتبه:

استطاع رضي الدين - رضوان الله عليه - أن يمتلك خزانة كتب غنية بالذخائر والنفائس مما لم يكن له وجود في خزانة أخرى غالباً^(١)، وقد بلغ عدد كتبها في سنة ٦٥٠هـ - كما تحدثنا الروايات - ١٥٠٠ كتاباً^(٢).

وكان صاحب الخزانة كثير الاهتمام فيها والشغف بها، حتى إنه وضع فهرساً لها أسماه (الإبانة في معرفة أسماء كتب الخزانة) وهو من الكتب المفقودة اليوم مع مزيد الأسف، كما وضع لها فهرساً آخر سماه (سعد السعود) فهرس فيه كتب خزانته بتسجيل مختارات مما ضمته تلك الكتب من معلومات وفوائد، وقد طبع الموجود منه وهو الأول من أجزاءه - وقد اقتص بالكتب السماوية وعلوم القرآن - ولا ندرى هل فقد الباقي منه أو أن المؤلف لم يتمه.

ولقد أشار رضي الدين في أثناء مؤلفاته إلى هذه الخزانة كثيراً، ولكن باختصار وإيجاز، فهو يقول مثلاً: (في خزانة كتبنا في هذه الأوقات أكثر من سبعين مجلداً في الدعوات)^(٣) ويقول: إن عنده (كتباً جلييلة في تفسير القرآن)^(٤)؛ وكذلك في الأنساب^(٥) وفي الطب^(٦) وفي

(١) مؤرخ العراق ابن الفوطي: ٢/٢٢٩ وخزائن الكتب القديمة في العراق: ١/٢٧٠.

(٢) البحار ٢٦/٢٥ والذريعة ١/٥٨.

(٣) مهج الدعوات: ٤٣٣.

(٤) كشف المحجة: ١٣٠.

(٥) نفس المصدر: ١٣١.

(٦) نفس المصدر: ١٣٢.

النجوم وغيرها من العلوم^(١) وفي اللغة والأشعار^(٢) وفي الكيمياء^(٣) والطلسمات والعود والرقي والرمل^(٤)، وفي النبوة والإمامة والزهد وتواريخ الخلفاء والملوك وغيرهم^(٥)، وكتب كثيرة في كل فن من الفنون^(٦).

وفي أواخر أيام حياته وقف هذه الخزانة على ذكور أولاده وذكور أولادهم وطبقات ذكرها بعد نفادهم^(٧)، ثم انقطعت عنا أخبارها بعد وفاة صاحبها فلم نعد نقرأ لها ذكراً أو نسمع لهات اسماً فيما روى الرواة وألف المؤلفون.

وبالنظر إلى أهمية هذه الخزانة ونفاضة كتبها جرّدت هذا الفهرس لمحتوياتها، ولم يكن لي مرجع في ذلك سوى مؤلفات صاحبها وكتبه^(٨)، أملاً من وراء هذا الجهد أن يكون الباحثون على علم بأسماء تلك الكتب وبعض نصوصها، ما دمنا لم نوفق إلى العثور على كثير منها حتى اليوم.

وهذا هو الفهرس مرتباً على الحروف:

(١) نفس المصدر: ١٣٧.

(٢) نفس المصدر: ١٣٤.

(٣) نفس المصدر: ١٣٥.

(٤) نفس المصدر: ١٣٦.

(٥) نفس المصدر: ١٢٨.

(٦) نفس المصدر: ١٢٧.

(٧) سعد السعود: ٣.

(٨) كان بودي أن أشير إلى موضع ذكر كل كتاب من هذه الكتب في مؤلفات صاحب الخزانة بتعيين الجزء والصفحة. ولكن ذلك - فيما رأيت - مما يطيل البحث كثيراً، ولذا قررنا عدم الإشارة إلى المصدر إلا في المواضع التي ننقل فيها بعض خصوصيات الكتاب زائداً عن اسمه واسم مؤلفه.

حرف الألف

- ١ - الآثار المختبئة في الجو - للحسن بن سوار^(١).
- ٢ - الآداب الدينية - لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي.
- ٣ - الآراء والديانات - لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي.
- ٤ - آي القرآن المنزلة في أمير المؤمنين (ع)؛ يُنسب للمفيد محمد بن محمد بن النعمان.
- ٥ - الإبانة - لابن بطة.
- ٦ - الأبصار - لثابت بن قرّة.
- ٧ - الاحتجاج - لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي.
- ٨ - الإحياء - للغزالي.
- ٩ - أخبار آل أبي طالب، لطيف، أول رجال روايته عبيدالله بن محمد.
- ١٠ - أخبار الزهراء - لابن بابويه الصدوق.
- ١١ - أخبار صاحب الزنج بالبصرة - لأحمد بن إبراهيم العمي^(٢).
- ١٢ - أخبار المهدي ونعوته وحقيقة مخرجه وثبوته - لأبي نعيم الحافظ.
- ١٣ - أخبار الوزراء - لأبي عبد الرحمن [عبدالله] بن المبارك، الجزء الأول والثاني بخط المصنف^(٣).
- ١٤ - (أخبار) الوزراء والكتاب - لمحمد بن عبدوس الجهشياري.
- ١٥ - اختلاف الفقهاء - للطحاوي.

(١) في فرج المهموم: ٢٠٣ (ابن سيار)، والتصحيح من هدية العارفين - ١/٢٧٧.

(٢) في فرج المهموم: ٢١٣ (القمي)، وقد نقلنا التصحيح من معالم العلماء: ١٥.

(٣) فرج المهموم: ١٤٧ ويراجع نفس المصدر: ١٣٥ و١٤٨.

- ١٦ - جزءٌ فيه اختلاف المصاحف - لأبي جعفر محمد بن منصور، رواية محمد بن زيد بن مروان.
- ١٧ - اختيار السيد علي بن الحسين بن باقي.
- ١٨ - اختيار محمد بن الحسن الطوسي من رجال الكشي، وكان ابتداء الطوسي في إملاء هذا الاختيار يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر سنة ٤٥٦هـ في المشهد الشريف الغروي في النجف^(١).
- ١٩ - الاختيارات - لأبي موسى القرشي.
- ٢٠ - أدب الكتاب - للصولي، لعل تاريخه أثر من مائتي سنة^(٢).
- ٢١ - الأربعين - لأحمد بن إسماعيل القزويني.
- ٢٢ - الأربعين - لمحمد بن عمر الرازي المعروف بابن خطيب الري، صنّفه وجعله دستوراً لولده.
- ٢٣ - الأربعين - لأخطب خطباء خوارزم موفق بن أحمد المكي.
- ٢٤ - الأربعين عن الأربعين - لمحمد بن أحمد النيسابوري.
- ٢٥ - الإرشاد - للمفيد.
- ٢٦ - الإرشاد إلى تصحيح المبادئ - لمحمد بن أحمد البيروني الخوارزمي.
- ٢٧ - الأزمنة - للمرزباني.
- ٢٨ - أسباب النزول - لعلي بن أحمد النيسابوري المعروف بالواحدي.
- ٢٩ - الاستنصار - لمحمد بن علي الكراجكي.
- ٣٠ - الاستيعاب - لابن عبد البر.

(١) فرج المهموم: ١٣٠ - ١٣١.

(٢) الإقبال: ١٧٠.

- ٣١ - الأسرار - لأبي سعيد شاذان بن بحر.
- ٣٢ - أسرار النجوم - لأبي معشر.
- ٣٣ - أسماء رجال أبي عبد الله (ع).
- ٣٤ - أسماء مولانا علي (ع)، تاريخه سنة ٣٤٩هـ^(١).
- ٣٥ - أسماء مولانا علي (ع)، رواية أبي طالب عبد الله بن أحمد الأنباري نسخة عتيقة يوشك أن تكون في حياة مؤلفها^(٢).
- ٣٦ - الأشراف - للمفيد.
- ٣٧ - أصل يتضمن أسماء مولانا علي (ع) - تاريخه سنة ٣٧٩هـ^(٣).
- ٣٨ - أصل عتيق، تاريخ كتابته ربيع الآخر سنة ٣١٤هـ^(٤).
- ٣٩ - أصل عتيق، أول روايته عن الحسن بن محبوب، وتاريخ كتابته سنة ٣٧٣هـ^(٥).
- ٤٠ - أصل - بخط محمد بن علي البزاز، تاريخه في صفر سنة ٤٤٨هـ^(٦).
- ٤١ - أصل أبي الفرج أبان بن محمد.
- ٤٢ - أصل أبي الغراء من أصول الشيعة.

(١) اليقين: ١٩١.

(٢) اليقين: ٥٠.

(٣) اليقين: ١٤٩.

(٤) مهج الدعوات: ٢٩٠.

(٥) الإقبال: ٨١.

(٦) الإقبال: ٥٨١.

- ٤٣ - أصل أحمد بن الحسين بن عمر بن يزيد، وعلى الكتاب أنه كان لمحمد بن داوود القمي^(١).
- ٤٤ - أصل حماد بن عثمان.
- ٤٥ - أصل محمد بن أبي عمير.
- ٤٦ - أصل محمد بن يحيى، لعله كتب في مدة حياته^(٢).
- ٤٧ - أصل مسعدة بن زياد الربيعي.
- ٤٨ - أصل معاوية بن حكيم.
- ٤٩ - الاعتقاد - للأبشيهي.
- ٥٠ - الاعتقاد - لأبي إسماعيل عبدالله بن محمد الهروي.
- ٥١ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن - لأبي عبدالله الحسين بن خالويه النحوي.
- ٥٢ - إعراب القرآن - لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج.
- ٥٣ - إعراب القرآن، مجهول المؤلف، أوله من سورة القصص، مجلد قلب الطالبّي.
- ٥٤ - الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني.
- ٥٥ - الأغسال - لأحمد بن محمد بن عيَّاش، نسخة تاريخ كتابتها ربيع الآخر سنة ٤٢٧هـ^(٣).
- ٥٦ - الاقتصاد - لمحمد بن الحسن الطوسي.

(١) الملهوف: ٢٧.

(٢) فرج المهموم: ٨٦.

(٣) الإقبال: ٣١.

- ٥٧ - إلزام^(١) العوام عن علم الكلام - للغزالي .
- ٥٨ - الأمالي - لابن بابويه .
- ٥٩ - الأمالي - لأبي المفضل محمد بن عبد الله الشيباني .
- ٦٠ - الأمالي - لمحمد بن أبي عبد الله، نسخة تاريخها سنة ٣٠٩هـ^(٢) .
- ٦١ - الأمالي - للمفيد .
- ٦٢ - الأمالي - ليحيى بن الحسن (الحسين) بن هارون الحسيني .
- ٦٣ - الإمامة من الأخبار والروايات عن رسول الله (ص) وعن الصحابة والتابعين بالأسانيد الصحاح، نسخة عتيقة جداً تاريخ كتابتها شهر رمضان سنة ٢٢٩هـ^(٣) .
- ٦٤ - أنباء النحاة - تأليف...^(٤) بن يوسف الشيباني .
- ٦٥ - الأنبياء والأوصياء - لمحمد بن علي .
- ٦٦ - الإنجيل - أربعة أناجيل في مجلد، وفي أولها: (شرحه لأمير المؤمنين المأمون في سنة ظهرت القسطورية على اليعاقبة، وأعانه الخليفة على ذلك. نُقِلَ من اللفظ السرياني إلى اللفظ العربي بمحضرٍ من جماعة من العلماء، ونُقِلَ ذلك من نسخة الأصل، ونُقِلت هذه النسخة منها)^(٥) .

(١) كذا في الطرائف - ٢. ولعله (الجام العوام) المذكور في هدية العارفين: ٧٩/٢.

(٢) فرج المهموم: ٨٦.

(٣) اليقين: ٥٣.

(٤) بياض في الأصل، ويقصد به الزبير جمال الدين أبا الحسن علي بن يوسف القفطي .

(٥) سعد السعود: ٥٣.

- ٦٧ - أنس الكريم - لأحمد بن الحسين بن علي الرخجي^(١).
- ٦٨ - الإنصاف - للمرتضى.
- ٦٩ - الأنواء - لأحمد بن عبد الله الثقفى.
- ٧٠ - الأنوار - للصاحب بن عباد.
- ٧١ - الأهليلجة - وهو كتاب مناظرة مولانا الصادق (ع) مع الهندي في معرفة الله جل جلاله.
- ٧٢ - الأوائل - لأبي هلال العسكري.
- ٧٣ - أوائل المقالات - للمفيد محمد بن محمد بن النعمان.
- ٧٤ - الأوراق - للصولي.
- ٧٥ - الأوصياء وذكر الوصايا - لعلي بن محمد بن زياد الصيرمي، نسخة عتيقة، ووجد هذا الكتاب في خزانة مصنفه بعد وفاته سنة ٢٨٠هـ^(٢).
- ٧٦ - الإيضاح في شرح المقامات - لناصر بن أبي المكارم المطرزي الخوارزمي.

حرف الباء

- ٧٧ - براء الساعة - ويسمى الكناش - لابن زكريا^(٣).
- ٧٨ - البرهان في أسباب نزول القرآن - لمحمد بن المازندراني.

(١) هكذا ورد لقبه في فرج المهموم: ١٥١، ولقب بلرمحي في الذريعة: ٣٦٨/٢.

(٢) مهج الدعوات - ٣٤١، وذكره فيه أيضاً ٢٤٣ وفي فرج المهموم: ٣٦.

(٣) أورده بنصه وكماله في الأمان: ١٤٤ - ١٥١.

- ٧٩ - بشارة المصطفى لشيعه المرتضى - لمحمد بن أبي القاسم الطبري .
 ٨٠ - البصائر - لأبي حيان التوحيدى .
 ٨١ - البلغة - للثعلبى .
 ٨٢ - البهار - للحسين بن سعيد الأهوازى ، والنسخة منقولة عن نسخة
 كان على ظهرها قراءة وإجازة في صفر سنة ٤٣٩^(١) .

حرف التاء

- ٨٣ - تاريخ القرآن - (بالجيم) المنسوب إلى علي بن عيسى بن داوود بن
 الجراح .
 ٨٤ - تاريخ ابن الأثير .
 ٨٥ - تاريخ [ابن] أعثم .
 ٨٦ - تاريخ أبي بكر الجرجاني .
 ٨٧ - تاريخ أهل البيت من آل رسول الله (ص) - لنصر بن [علي]
 الجهضمي .
 ٨٨ - تاريخ بغداد - للخطيب .
 ٨٩ - تاريخ البلاذري .
 ٩٠ - تاريخ ثابت بن سنان .
 ٩١ - تاريخ الروحي الفقيه .
 ٩٢ - تاريخ الطبري .

- ٩٣ - تاريخ العباس بن عبد الرحيم المروزي^(١).
- ٩٤ - التاريخ المعروف بـ(العباسي)^(٢).
- ٩٥ - تاريخ لمحمد بن عبدوس الجهشيارى.
- ٩٦ - تاريخ لمحمد بن عبد الملك الهمداني.
- ٩٧ - تاريخ مواليد ووفيات أهل البيت وأين دُفِنوا - لعبد الله بن أحمد ابن الخشاب.
- ٩٨ - تاريخ نيشابور - للحاكم النيشابوري.
- ٩٩ - التاريخ - لهلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي، نسخة عتيقة عليها قراءة قديمة، لعلها بخط ولد المصنف^(٣).
- ١٠٠ - تأسيس التقديس - لمحمد بن عمر الرازي.
- ١٠١ - تأويل آياتٍ تعلق بها أهل الضلال - لعبد الرشيد بن الحسين بن محمد الإسترآبادي، ناقص الأول.
- ١٠٢ - تأويل ما نزل من القرآن الكريم في النبي وآله - لأبي عبد الله محمد بن العباس بن علي بن مروان المعروف بالحجام، (والنسخة التي عندنا الآن قالب نصف الورقة، مجلدان صخمان، قد نُسِخَتْ من أصلٍ عليه خط أحمد بن الحاجب الخراساني في إجازة تاريخها في صفر سنة ٣٣٨هـ، وإجازة بخط الشيخ أبي جعفر
-
- (١) هكذا ورد الاسم في كشف المحجة: ٦٩ - ٧٠، ولعل الناسخ أو الطابع قد أخطأ في قراءة الاسم، وإن المعنى به في الواقع (أبو العباس جعفر بن أحمد الخمرزي) المذكور في فهرست ابن النديم: ٢١٤.
- (٢) الظاهر أنه التاريخ العباسي الذي ألفه أحمد بن إسماعيل بن عبد الله البجلي في أخبار الدولة العباسية وذكره النجاشي في كتاب رجاله: ٧١.
- (٣) سعد السعود: وذكره في فرج المهموم: ٢٠١.

محمد بن الحسن الطوسي وتاريخها في جمادى الآخرة سنة ٤٣٣هـ^(١).

- ١٠٣ - التبر المسبوك في نصيحة الملوك - لأبي حامد الغزالي.
- ١٠٤ - التبيان في تفسير القرآن - لأبي جعفر بن محمد بن الحسن الطوسي، قاله نصف الورقة الكبيرة.
- ١٠٥ - تبين سيرة الخلفاء المصريين.
- ١٠٦ - تجارب الأمم - لأحمد بن مسكويه.
- ١٠٧ - تجزئة القرآن - تلخيص أبي الحسين أحمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله المنادي نسخة عتيقة بخط المصنف^(٢).
- ١٠٨ - التجمل في التراجم، نسخة عتيقة، تاريخ مقابلته يوم الأربعاء لسبع يقين من شعبان سنة ٢٣٨هـ وهي سنة كتابته^(٣).
- ١٠٩ - التحفة - لمحمد بن علي الحلواني.
- ١١٠ - التحقيق لما احتج به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) على النجباء من الصحابة يوم الشورى - للقاضي بفرغانة، نسخة ظاهرها أنها كتبت في حياة مصنفها، عليها جملة (أدام الله عزه)، آخرها: فرغ [منها] أبو القاسم الليث بن محمد السنجري الكاتب بكورة باب أحد أعمال فرغانة عشية يوم الجمعة الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٣٧٢هـ غفر الله له ذنوبه^(٤).

(١) اليقين - ٧٩، وذكره فيه أيضاً: ١٧٦ و ١٨٩ وفي سعد السعود ٧٢ - ٧٣ و ٩٠ و ١٠٢ ومحاسبة النفس ٨ - ٩.

(٢) سعد السعود: ٢٣٢.

(٣) فرج المهموم - ٢ و ٢٤ و ٩٩ و ١٠٠ ومهج الدعوات - ٤٠٥ و ٤٤٩.

(٤) اليقين ٢٨.

- ١١١ - تدبير الأبدان في السفر - لقسطا بن لوقا؛ الذي صنفه لأبي محمد الحسن بن مخلد^(١).
- ١١٢ - التذليل - لصدقة بن الحسين أو الحسن.
- ١١٣ - ترتيب حساب دساتر الكواكب السبعة - لأبي القاسم علي بن القاسم القصري.
- ١١٤ - الترهيب والترغيب - لأبي القاسم الأصفهاني.
- ١١٥ - تشجير تهذيب الأنساب - لشيخ الشرف، نقله صاحب المكتبة من نسخة خط المؤلف.
- ١١٦ - تعبير (تفسير) الرؤيا - للكليني.
- ١١٧ - التعريف - لمحمد بن أحمد بن [عبدالله] الصفواني، وهو رسالة منه إلى ولده، نسخة عتيقة تاريخها ذو الحجة سنة ٤١٢^(٢).
- ١١٨ - تعليق معاني القرآن - لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النجاشي.
- ١١٩ - تفسير أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد القزويني، وهو مجلد واحد.
- ١٢٠ - تفسير ابن جريج، نسخة جيدة.
- ١٢١ - تفسير أهل البيت (ع) - سقط أوله وآخره، خطه عتيق دقيق، فيه روايات غريبة، قاله طالبني، نحو عشرين كراساً أو أكثر^(٣).
- ١٢٢ - تفسير القرآن عن أهل بيت رسول الله (ص) لأبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن عقدة، مجلد واحد، قالب الربع.

(١) نقله بنصه في الأمان: ١٥٣ - ١٨٠.

(٢) الإقبال: ١١.

(٣) سعد السعود: ١٢٠.

- ١٢٣ - تفسير الثمرة لبطليموس - لأحمد بن يوسف بن إبراهيم المصري منجم آل طولون.
- ١٢٤ - تفسير الجبائي أبي علي محمد بن عبد الوهاب، عشر مجلدات، والنسخة عتيقة لعلها كتبت في حياة المؤلف أو قرب وفاته^(١).
- ١٢٥ - تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم، أربعة أجزاء في مجلدين.
- ١٢٦ - تفسير علي بن عيسى النحوي الرماني، أجزاء متفرقة منه.
- ١٢٧ - تفسير غريب القرآن - لعبد الرحمن بن محمد بن هاني.
- ١٢٨ - تفسير غريب القرآن - على حروف المعجم: لمحمد بن عزيز السجستاني، نسخة عتيقة.
- ١٢٩ - نسخة أخرى منه.
- ١٣٠ - تفسير للقرآن، مجلد عتيق، عليه مكتوب: (كتاب تفسير القرآن وتأويله وتنزيله وناسخه ومنسوخه وأحكامه ومتشابهه وزيادات حروفه وفضائله وثوابه).
- ١٣١ - مجلد في تفسير القرآن، مجهول المؤلف.
- ١٣٢ - مجلد آخر في تفسير القرآن، مجهول المؤلف.
- ١٣٣ - مجلد آخر قالب الربع في تفسير القرآن، مجهول المؤلف.
- ١٣٤ - تفسير قصيدة الشاعر محمد بن عبد الله المعروف بالسلامي التي مدح بها مولانا علياً (ع) - للشريف أبي يعلى الأقساسي، من نسخة تاريخها شهر رمضان سنة ٤٣٣هـ^(٢).

(١) سعد السعود ١٨٣.

(٢) اليقين: ١٥٤.

- ١٣٥ - تفسير ما ذهب إليه الملحدون من معاني القرآن - لقطرب، نسخة عتيقة تاريخها سنة ٤٠٩هـ^(١).
- ١٣٦ - مجلد قالب الثمن، عتيق، عليه مكتوب: (الأول من تفسير أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (ع)).
- ١٣٧ - تفسير محمد بن السائب الكلبي، مجلد فيه الأجزاء ١١ - ١٩، وآخر فيه الأجزاء ١٨ - ٢٤.
- ١٣٨ - تفسير القرآن - لمحمد بن مسعود بن عياش.
- ١٣٩ - تفسير الحافظ محمد بن مؤمن النيشابوري.
- ١٤٠ - التفسير الوسيط - لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.
- ١٤١ - التنزيل - لمحمد بن أحمد بن أبي الثلج، نسخة عتيقة عسى أن تكون كتابتها في حياة مؤلفها^(٢).
- ١٤٢ - تنزيه القرآن من المطاعن - لعبد الجبار بن أحمد.
- ١٤٣ - التهجد - لابن أبي قرة.
- ١٤٤ - تهذيب الأحكام - لمحمد بن الحسن الطوسي.
- ١٤٥ - التواريخ الشرعية - للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، نسخة كتبت في حياته^(٣).
- ١٤٦ - التواقيع من أصول الأخبار - رواية عبد الله بن الصلت.
- ١٤٧ - التوراة - وقد نسخها صاحب الخزانة عن نسخة عتيقة مفسرة بالعربية في خزانة كتب أخواله أولاد ورام بن أبي فراس^(٤).
- ١٤٨ - التوقيعات - لعبد الله بن جعفر الحميري.

(١) سعد السعود: ٢٧٠.

(٢) اليقين: ٤٥.

(٣) الإقبال: ٦٧٣.

(٤) سعد السعود: ٤٠.

حرف الثاء

- ١٤٩ - ثواب الأعمال - لابن بابويه الصدوق.
١٥٠ - ثواب القرآن وفضائله - لأحمد بن شعيب بن علي السامي.

حرف الجيم

- ١٥١ - الجامع^(١) - لابن بابويه الصدوق.
١٥٢ - الجامع - لمحمد بن الحسن بن الوليد القمي.
١٥٣ - الجامع الصغير - لأبي هاشم شيخ المعتزلة.
١٥٤ - الجامع الصغير - ليونس بن عبد الرحمن.
١٥٥ - جامع علم القرآن - لعبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بأبي القاسم البلخي.
١٥٦ - جداول تقریبات الميل - للحسين بن أحمد الصوفي.
١٥٧ - جزء عتيق عليه مكتوب: (في هذا الجزء حديث الرايات وخطبة أبيي بن كعب) عليه سماع تاريخه في جمادى الآخرة سنة ٤٠٢هـ^(٢).
١٥٨ - جزء عن أبي عبد الله (ع)، وهو من جملة مجلد فيه فرائد، أوله مختصر فيه أدعية وعود، والمختصر بخط محمد بن علي بن الحسين بن مهزيار، ونسخه في سنة ٤٤٨هـ^(٣).

(١) لابن بابويه عدة كتب باسم (الجامع) كما في المجلد الخامس من الذريعة.

(٢) اليقين: ١٦٦.

(٣) فرج المهموم: ٢٢٥.

- ١٥٩ - جزء فيه اثني عشر حديثاً في فضل علي بن أبي طالب (ع) -
تخريج أبي علي الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمار
بروايته عن آبائه سماعاً، كاتب الجزء علي بن أحمد بن أبي
الحسن البواريجي، منقول من خط مؤلفه^(١).
- ١٦٠ - جزء فيه عدد سور القرآن وعدد آياته وعدد كلماته وحروفه ونصفه
وأثلاثه [وأرباعه] وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه
وأعشاره - لمحمد بن منصور بن يزيد المقرئ.
- ١٦١ - جزء من فضائل مولانا علي (ع) - جمع أبي العباس أحمد بن
محمد بن سعيد المعروف بابن عقدة.
- ١٦٢ - الجعفریات، وهي ألف حديث بإسناد واحد عظيم الشأن إلى
موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه (ع).
- ١٦٣ - المجلس الصالح والأنيس الناصح - للمعافي بن زكريا.
- ١٦٤ - الجمع بين الصحاح الستة - لأبي الحسن رزين بن معاوية بن
عمار العبدري الروطي السرقسطي الأندلسي.
- ١٦٥ - الجمع بين الصحيحين - للحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر
الحميدي، نسخة عليها عدة شُماعات. وإجازات تاريخ بعضها سنة
٥٤١هـ^(٢).
- ١٦٦ - الجوابات الحاضرة - لأبي علي محمد بن عبد العزيز الهاشمي.
- ١٦٧ - جوابات المسائل السَّالِية - للمرئضي، وهي ثمان مسائل.
- ١٦٨ - جوامع الجامع في تفسير القرآن - لأبي علي الفضل بن الحسن
الطبرسي.

(١) اليقين: ١٤١.

(٢) اليقين: ٢٠٤.

- ١٦٩ - جوامع علوم النجوم وأصول الحركات السموية - لأحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، وهو ثلاثون فصلاً.
- ١٧٠ - الجواهر - لإبراهيم أبي إسحاق الصولي، لعل تاريخه أكثر من مائتي سنة^(١).

حرف الحاء

- ١٧١ - حجة التفضيل وشرح حذيفة بن اليمان، نسخة عتيقة تاريخ كتابتها سنة ٤٦٩هـ، وعلى ظهرها بخط الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي ثناءً على المصنف بتاريخ رجب سنة ٤٧٢هـ، وعلى الجلد أيضاً خطوط ثلاثة من العلماء بالثناء على المصنف^(٢).
- ١٧٢ - حدائق الرياض وزهرة المرتاض - للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، نسخة عتيقة لعلها كتبت في حياته^(٣).
- ١٧٣ - الحذف والإضمار - لأحمد بن ناقة المقرئ.
- ١٧٤ - الحُسنَى - لجعفر بن محمد بن أحمد بن العباس بن محمد الدورستي.
- ١٧٥ - حقائق التفسير - لأبي عبد الرحمن السلمي، لديه المجلد الأول منه.
- ١٧٦ - الحلال والحرام - لأبي إسحاق إبراهيم الثقفي، نسخة عتيقة مليحة.
- ١٧٧ - حلية الأولياء - لأبي نعيم الحافظ.

(١) الإقبال: ١٧٠.

(٢) اليقين: ١٣٧.

(٣) الإقبال: ٣٠٨.

حرف الخاء

- ١٧٨ - الخرائج والجرائح - لابن الراوندي .
 ١٧٩ - خريدة القصر في فضل فضلاء العصر .
 ١٨٠ - خصائص الأئمة - للرضي محمد بن الحسين .
 ١٨١ - الخصائص العلوية على جميع البرية - لأبي الفتح محمد بن علي الكاتب الأصفهاني النطنزي^(١) .
 ١٨٢ - الخصال - لابن بابويه الصدوق، نسخة في عدة مجلدات .
 ١٨٣ - نسخة أخرى منه في مجلدين .
 ١٨٤ - خطب مولانا علي (ع) لعبد العزيز الجلودي، نسخة عتيقة لعلها بخطه^(٢) .
 ١٨٥ - كتاب فيه خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وأخبار حسان لأهل البيت (ع) نسخة عتيقة تاريخها سنة ٢٠٨هـ^(٣) .

حرف اللال

- ١٨٦ - الدراية في حديث الولاية - لمسعود بن ناصر السجستاني، ١٧ جزءاً في مجلد .
 ١٨٧ - درة الإكليل في تتممة التذييل - لأحمد بن محمد بن عمر بن الحسين بن [خلف] القطيعي^(٤) .

(١) من الغريب ما جاء في ذيل كشف الظنون ١/ ٤٣٠ من وفاة النطنزي هذا سنة ٨٠٤ .

(٢) محاسبة الناس: ١٥ .

(٣) اليقين: ١٥٢ و ١٩٦ .

(٤) في فرج المهموم: ٣٠ (محمد بن أحمد بن عمرو بن حسين بن القطيعي) والتصحيح من شذرات الذهب ٥/ ١٦٢ وهدية العارفين ١/ ٩٢ .

- ١٨٨ - دستور المتذكرين ومنشور المتعبدين - لمحمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المدني الحافظ .
- ١٨٩ - الدعاء والذكر - للحسين بن سعيد الأهوازي .
- ١٩٠ - دعاء الهداة إلى أداء حق الموالاتة - لعبيدالله بن عبد الله الحسكاني .
- ١٩١ - دفع الهموم والأحزان - لأحمد بن داوود النعماني .
- ١٩٢ - الدلائل - لعبدالله بن جعفر الحميري، بخط الحسين بن عبيدالله الغضائري^(١) .
- ١٩٣ - الدلائل - للنعماني .
- ١٩٤ - دلائل الإمامة - لأبي جعفر بن محمد بن جرير بن رستم الطبري .
- ١٩٥ - دلائل القبلة - لأحمد بن أبي أحمد الفقيه .
- ١٩٦ - دلائل النبوة - لأبي بكر البيهقي .
- ١٩٧ - دلائل النبوة - لأبي القاسم الحسين بن محمد السكوني^(٢)، نسخة عتيقة عليها سماع تاريخه يوم السبت ١٢ شهر رمضان سنة ٤٢٢هـ، ونُسِخَ من أصل مصنفه^(٣) .
- ١٩٨ - مجلد أوله كتاب الديات لظريف بن ناصح، وآخره أحاديث القاضي أبي بكر بن عبد الرحمن .
- ١٩٩ - ديوان النسب - لعلي بن المرتضى، ثلاث مجلدات، ليس عند

(١) فرج المهموم: ٩٧.

(٢) لعله الحسن بن الحسين السكوني المذكور في رجال التجاشي: ٣٨.

(٣) فرج المهموم: ٢٩.

أحد له نسخة، وقد تضمّن شيئاً عظيماً من العجائب والمناقب والمثالب^(١).

حرف الذال

٢٠٠ - ذكر الروايات عن النبي (ص) أنه قال لعلي (ع) - أنت مني بمنزلة هارون من موسى... إلخ، وبيان طرقها واختلاف وجوهها - للقاضي أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي، نسخة ثلاثون ورقة، عتيقة، عليها رواية تاريخها سنة ٤٤٥هـ^(٢).

٢٠١ - ذكر ما نزل من القرآن في رسول الله (ص) وفي علي وأهل البيت (ع) وفي شيعتهم وتأويل ذلك، قاله أكبر من الربع دون النصف، تاريخه في العشر الأول من المحرم سنة ٤٠٦هـ، بخط وكاغد عتيق كأنه رق أو خراساني، مجهول المؤلف^(٣).

٢٠٢ - ذكرم نقبة المطهّرين - جمع الحافظ أبي نعيم الأصفهاني.

٢٠٣ - ذيل تاريخ بغداد - لابن النجار.

حرف الراء

٢٠٤ - ربعة شريفة، ليست كاملة.

٢٠٥ - جزء أيضاً من ربعة شريفة أخرى.

٢٠٦ - ربيع الأبرار - للزمخشري.

(١) كشف المحجة: ١٣٢.

(٢) الطرائف: ١٤.

(٣) سعد السعود: ١١١.

- ٢٠٧ - رتبة أبي طالب في قريش ومراتب ولده في بني هاشم - لأبي الحسن النسابة، نسخة عتيقة ذكر في أبوابها أن تأليفها كان في شوال سنة ٣١٠هـ^(١).
- ٢٠٨ - الرجال - لأبي العباس أحمد بن نصر بن سعد.
- ٢٠٩ - الرجال - لمحمد بن الحسن الطوسي.
- ٢١٠ - الرد على الجبرية والقدرية فيما تعلقوا به من متشابه القرآن - لأحمد بن محمد بن جعفر الخلال.
- ٢١١ - الرد على الحرقوصية - للطبري صاحب التاريخ.
- ٢١٢ - الرسائل - لمحمد بن يعقوب الكليني، نسخة قديمة يوشك أن تكون كتابتها في زمان حياة محمد بن يعقوب^(٢).
- ٢١٣ - الرسالة العزّية - للمفيد.
- ٢١٤ - رسالة في علم النجوم - خمسة أجزاء - ليعقوب بن إسحاق الكندي.
- ٢١٥ - مجلدة صغيرة القالب، عليها مكتوب: (رسالة في مدح الأقل وذم الأكثر عن زيد بن علي بن الحسين (ع)).
- ٢١٦ - رسالة في النجوم - لمحمد بن خطير المعروف بالتياني^(٣).
- ٢١٧ - الرمي بالنشاب، نسخة عتيقة مجهولة المؤلف.
- ٢١٨ - رواية الأبناء عن الآباء من آل رسول الله (ص) - رواية أبي علي بن محمد بن الأشعث الكندي الكوفي.

(١) اليقين: ١٨٦ و ١٩٥.

(٢) كشف المحجة: ١٥٩.

(٣) كذا في فرج المهموم: ٢٠٤ ولعله تصحيف محمد بن جابر البتاني.

- ٢١٩ - مجلد عتيق، أوله كتاب روح قدس النفوس، وفي آخر المجلد كراريس توشك أن تكون مكتوبة من مائة من السنين^(١).
- ٢٢٠ - روضة العابدين وأنس الراغبين - لإبراهيم بن عمر بن فرج الواسطي.
- ٢٢١ - ريحان المجالس وتحفة المؤانس - للرخجي أحمد بن الحسين.

حرف الزاي

- ٢٢٢ - زاد العابدين - لأبي [عبد الله] الحسين [بن علي] بن خلف الكاشغري^(٢).
- ٢٢٣ - زبور داوود - نسخة صغيرة قلبها ثمن الورقة الكبيرة.
- ٢٢٤ - الزوائد وفوائد البصائر في وجوه القرآن والنظائر - للحسين بن محمد الدامغاني.
- ٢٢٥ - الزواجر والمواعظ - لأبي أحمد العسكري، جاء في الجزء الأول منه أنه نُقِلَ من نسخة تاريخها ذو القعدة من سنة ٤٧٣هـ^(٣).
- ٢٢٦ - زيادات حقائق التفسير - لأبي عبد الرحمن السلمي.
- ٢٢٧ - زيادات مصباح المتعبد.
- ٢٢٨ - الزيارات - لأبي القاسم.
- ٢٢٩ - الزيارات والفضائل - لمحمد بن [أحمد بن]^(٤) داوود القمي.

(١) اليقين: ١٦٠.

(٢) الزيادة من اللباب: ٢٢/٣.

(٣) كشف المحجة: ١٥٧.

(٤) الزيادة من معالم العلماء: ٨٨.

- ٢٣٠ - الزيج - لابن الأعلم.
 ٢٣١ - الزيج - لأحمد بن عبد الله المعروف بحبيش^(١).
 ٢٣٢ - الزيج - لعبد الله بن أحمد بن أبي حبيش.
 ٢٣٣ - الزيج - ليحيى بن أبي منصور.
 ٢٣٤ - الزيج المأموني - للحسين بن أحمد الصوفي الكرمانى.
 ٢٣٥ - الزيج المخترع - للحسين بن مصباح الحاسب.

حرف السين

- ٢٣٦ - سر أنساب العلويين - لأبي نصر سهل بن عبد الله البخاري النسابة.
 ٢٣٧ - سنة الأربعين - لفضل الله بن علي الراوندي.
 ٢٣٨ - سنن إدريس - كتاب منفرد نحو أربع كراريس بقالب الثمن، قال: إنه نقله عن نسخة وجدها في وقف المشهد المسمى بالطاهر بالكوفة، عليه مكتوب «سنن إدريس»، وهو بخط عيسى محرره، نقله من السرياني إلى العربي عن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن هارون الصابي الكاتب^(٢).
 ٢٣٩ - سنن الموالي - لأبي سعيد أحمد بن محمد بن عبد الجليل السنجري.
 ٢٤٠ - سيرة الفاطمي الذي ملك طبرستان الحسن بن علي المعروف بالناصر للحق: لاسنفيديار بن مهرونوش النيشابوري، نسخة عتيقة.
 ٢٤١ - نسخة أخرى جديدة من الكتاب السالف الذكر.

(١) في الفهرست: ٣٨٤ (حبيش).

(٢) نقلنا العبارة بنصها عن سعد السعود: ٣٩.

حرف الشين

- ٢٤٢ - الشافي في الأنساب - للعمري النسابة .
- ٢٤٣ - الشاهي - لأبي نصر منصور بن علي .
- ٢٤٤ - شرح تأويل القرآن وتفسير معانيه - لأبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني .
- ٢٤٥ - شرح النهاية - لهبة الله بن الراوندي .
- ٢٤٦ - الشريعة - لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري .
- ٢٤٧ - شفاء الصدور - لمحمد بن الحسن بن زياد المعروف بالنقاش .
- ٢٤٨ - الشهاب - للقضاعي .

حرف الصاد

- ٢٤٩ - صحائف إدريس - وقد نقل المؤلف نسخته عن (نسخة عتيقة يوشك أن يكون تاريخها من مائتين من السنين بخزانة كتب مشهد مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وقد ذهب أولها وآخرها، فكان الموجود منها نحو سبعة [عشر] كراساً وقوائمه بقالب ربع الورقة الكبيرة)^(١) .
- ٢٥٠ - صحائف مولانا زين العابدين (ع) .
- ٢٥١ - الصحاح في اللغة .
- ٢٥٢ - صحيح البخاري .

- ٢٥٣ - صحيح الترمذي .
 ٢٥٤ - صحيح مسلم .
 ٢٥٥ - الصحيفة المروية عن الرضا (ع) .
 ٢٥٦ - صفين - لعبد العزيز الجلودي .
 ٢٥٧ - الصلاة - لمحمد بن علي بن محبوب .
 ٢٥٨ - الصور - لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي ، منجّم عضد
 الدولة .
 ٢٥٩ - الصوم - لعلي بن الحسن بن فضال .
 ٢٦٠ - الصيام والقيام - لأبي نعيم .

حرف الطاء

- ٢٦١ - الطبقات - لابن سعد .
 ٢٦٢ - طرائف اللطائف في تاريخ السوالف - لأبي الفرج ابن الجوزي .

حرف العين

- ٢٦٣ - عتق النسمة - لأبي بشكر أحمد بن إبراهيم العمي .
 ٢٦٤ - العدة - للطوسي محمد بن الحسن .
 ٢٦٥ - العرائس - للثعالبي .
 ٢٦٦ - عرائس المجالس ويواقيت التيجان في قصص القرآن - لأحمد بن
 محمد بن إبراهيم الثعلبي .

- ٢٦٧ - عصمة الأنبياء - للمفيد محمد بن محمد بن النعمان.
- ٢٦٨ - عقاب الأعمال - لابن بابويه الصدوق.
- ٢٦٩ - العقد - لابن عبدربه.
- ٢٧٠ - العلل - لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، في مجلد فيه عدّة مصنفات أكثرها بخط الصفي محمد بن معد الموسوي، وعليه تعليقات للناسخ^(١).
- ٢٧١ - علل الشريعة^(٢) - للقزويني علي بن [أبي] حاتم.
- ٢٧٢ - العلل - الصدوق.
- ٢٧٣ - عمل ذي الحجة - لأبي علي الحسن بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن أشناس البزاز، نسخة بخطه تاريخها سنة ٤٣٧هـ^(٣).
- ٢٧٤ - عمل رجب وشعبان وشهر رمضان - لأحمد بن محمد بن عبد الله بن عباي^(٤).
- ٢٧٥ - عمل شهر رمضان - لعلي بن عبد الواحد النهدي.
- ٢٧٦ - عمل شهر رمضان - لمحمد [بن علي] بن أبي قرّة.
- ٢٧٧ - عمل يوم الجمعة - للكراچكي.
- ٢٧٨ - عوارف المعارف^(٥).

(١) فرج المهموم: ٥٥.

(٢) أسماء في معالم العلماء: ٦١ «علل الفقه».

(٣) الإقبال: ٣١٧ و٤٩٦.

(٤) روى النجاشي في رجاله ٦٢ إن اسمه أحمد بن محمد بن عبيد الله بن الحسن بن عباس.

(٥) لعله عوارف السهروردي.

- ٢٧٩ - العيون والمحاسن^(١).
- ٢٨٠ - عيون الأخبار - لابن قتيبة.
- ٢٨١ - عيون أخبار بني هاشم - لمحمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ، صنّفه للوزير علي بن عيسى بن الجراح، نسخة عتيقة ظاهر حالها إنها كتبت في حياته^(٢).
- ٢٨٢ - عيون أخبار الرضا - لابن بابويه.
- ٢٨٣ - عيون الجواهر - لابن بابويه.

حرف الغين

- ٢٨٤ - غريب القرآن - لعبد الله بن أبي محمد اليزيدي.
- ٢٨٥ - غريب القرآن بشواهد الشعر - لعبد الرحمن بن محمد الأزدي.
- ٢٨٦ - كتاب غريبي القرآن والسنة - لأحمد بن محمد [بن محمد]^(٣) بن أبي عبيد العبدى [صاحب]^(٤) الأزهرى، خمس مجلدات.
- ٢٨٧ - الغيبة - للطوسي نسخة تاريخ كتابتها سنة ٤٧١هـ^(٥).
- ٢٨٨ - الغيبة للنعماني.

حرف الفاء

- ٢٨٩ - الفائق في الأصول - الزمخشري، نسخة عليها خطه^(٦).

(١) للمفيد محمد بن محمد بن النعمان.

(٢) الملاحم والفتن: ٨٠ - ٨١.

(٣) (٤) الزيادة من كشف الظنون: ١٢٠٦/٢ - ١٢٠٩.

(٥) مهج الدعوات: ٣٤٢.

(٦) فرج المهموم: ٢١٤.

- ٢٩٠ - الفاخر المختصر من كتاب تحبير الأحكام الشرعية - لمحمد بن أحمد الجعفي.
- ٢٩١ - فرائد القرآن - لعبد الجبار بن أحمد الهمداني قاضي القضاة.
- ٢٩٢ - الفرج بعد الشدة - للتنوخي.
- ٢٩٣ - الفردوس - لابن شيرويه الديلمي، مجلدان.
- ٢٩٤ - الفرق - لابن بابويه.
- ٢٩٥ - الفرق لأبي الفرق - لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي.
- ٢٩٦ - فضائح المعتزلة - لأبي منصور السالف الذكر.
- ٢٩٧ - الفضائل - [للحسن بن] ^(١) محمد بن الصباح الزعفراني.
- ٢٩٨ - الفضائل - للسمعاني.
- ٢٩٩ - فضائل علي - لعثمان بن أحمد المعروف بأبي عمران السّمّاك، نسخة عتيقة، وعلى بعض أجزاءها خطه، وتاريخه ذو الحجة سنة ٣٤٠هـ ^(٢).
- ٣٠٠ - فضائل علي (ع) - رواية أحمد بن محمد الطبري المعروف بالخليلي، قال في آخره: (كان الفراغ من نسخه في ربيع الآخر سنة ٤١١هـ بالقاهرة المعزّية) ^(٣).
- ٣٠١ - فضائل علي بن أبي طالب ومراتب أمير المؤمنين، جاء في آخره ما نصه: (كتاب مراتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من

(١) الزيادة من الكنى والألقاب: ٢٦٧/٢.

(٢) اليقين: ٢٠ و ١٨٠.

(٣) اليقين: ٩٢.

إملاء الشيخ الإمام أبي القاسم إسماعيل بن أحمد البستي رحمه الله، انتسخ هذه النسخة من نسخة مصححة طالعها الكبار من العلماء، وتلك النسخة موضوعة في دار الكتب التي بناها في المسجد الجامع العتيق بهمدان الصدر السعيد الكبير ضياء الدين أبو محمد عبد الملك بن محمد^(١).

٣٠٢ - (فضل) الدعاء - لسعد بن عبد الله.

٣٠٣ - فضل الدعاء - لمحمد بن الحسن الصفار.

٣٠٤ - فضل زيارة الحسين (ع) - لعبد الله بن حماد الأنصاري^(٢).

٣٠٥ - فضل العقيق والتختم به - لقريش بن السبيع بن مهنا العلوي المدني.

٣٠٦ - فقه القرآن - لسعيد بن هبة الله أبي الحسين الراوندي.

٣٠٧ - الفهرست - لابن النديم.

٣٠٨ - الفهرست - لجابر بن حيان.

٣٠٩ - فهرست أسماء مصنفي الشيعة - للنجاشي.

٣١٠ - فهرست أسماء المصنفين من الشيعة - للشيخ الطوسي.

حرف القاف

٣١١ - القرانات والدول - لمحمد بن عبد الله بن عمر [بن] البازيار.

٣١٢ - القرانات والكسوفات - لمحمد بن جابر بن سنان.

(١) اليقين: ٩٧.

(٢) في الإقبال ٥٦٨ (لأبي عبد الله بن حماد) وصوابه ما ذكرناه.

- ٣١٣ - قرب الإسناد - لمحمد بن عبد الله الحميري .
 ٣١٤ - قصص الأنبياء - للسعيد بن هبة الله أبي الحسين الراوندي .
 ٣١٥ - قصص الأنبياء - لمحمد بن خالد البرقي .
 ٣١٦ - قصص القرآن - للنيسابوري .
 ٣١٧ - قصص القرآن بأسباب نزول آيات القرآن - للقيصم بن محمد
 القيصم النيسابوري .

حرف الكاف

- ٣١٨ - الكافي - للكليني .
 ٣١٩ - كتاب - إبراهيم الخراز^(١) .
 ٣٢٠ - كتاب - إبراهيم بن محمد الأشعري .
 ٣٢١ - كتاب - أبي عبد الله محمد بن أحمد الصفواني .
 ٣٢٢ - كتاب - أبي عمر الزاهد صاحب ثعلب، نسخة عتيقة ظاهر حالها
 أنها كتبت في حياته، وقد كانت في خزانة الخليفة بمصر^(٢) .
 ٣٢٣ - كتاب - أبي نعيم المحدث الذي استخرجه من كتاب الاستيعاب .
 ٣٢٤ - كتاب - إخوان الصفا .
 ٣٢٥ - كتاب - جعفر بن سليمان .
 ٣٢٦ - كتاب - دانيال المختصر من كتاب الملاحم .
 ٣٢٧ - كتاب - الربيع بن المستكين .

(١) في سعد السعود: ٨٠ (الجزار) والتصحيح من الذريعة: ج٢، ١٣٦.

(٢) محاسبة النفس: ١٦.

- ٣٢٨ - كتاب - عبد الله بن بكير .
- ٣٢٩ - كتاب - عبد الله بن حماد الأنصاري من أصحاب الإمام الكاظم (ع)، وقد قرئ الأصل على الشيخ الصدوق وهارون بن موسى التلعكبري تاريخه سنة ٣٧٦هـ^(١) .
- ٣٣٠ - كتاب عتيق - في آخره: (وكتب الحسين بن علي بن هندو بخطه في شوال سنة ٣٩٦)^(٢) .
- ٣٣١ - كتاب عتيق - يتضمن طوابع خلقٍ عظيم من الخلفاء والوزراء والملوك والفقهاء والعلماء .
- ٣٣٢ - كتاب في علم الاسطرلاب - لأبي الحسين البزاز الأصفهاني .
- ٣٣٣ - كتاب في علم الاسطرلاب - لعلي بن عيسى .
- ٣٣٤ - كتاب في المسائل وابتداء الأعمال المعروف بالسجل - للفضل أبي سهل بن نوبخت .
- ٣٣٥ - كتاب فيه ذكر الآيات التي نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وتفسير معناها، مجهول المؤلف .
- ٣٣٦ - كتاب (فيه مقروء رسول الله (ص) وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد وزيد ابني علي بن الحسين وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر (ع) مجلد قالب الثمن عتيق) .
- ٣٣٧ - كتاب فيه مواليد الخلفاء والملوك وكثير من العلماء .
- ٣٣٨ - كتاب - القاضي أبي الحسن علي بن محمد القزويني .
- ٣٣٩ - كتاب قلبه نصف الثمن يشتمل على عدة كتب أولها - كتاب التنبية لمن يتفكر فيه .

(١) كشف المحجة: ١٨ .

(٢) مهج الدعوات: ٢٣٢ و ٢٤٤ .

- ٣٤٠ - كتاب قاله نصف ثمن الورقة - بخط ابن الباقلاني المتكلم النحوي.
- ٣٤١ - كتاب - محمد بن علي بن محمد الطرازي.
- ٣٤٢ - كتاب - محمد بن مؤمن الشيرازي الذي استخرجه من تفاسير الثقات الاثني عشر.
- ٣٤٣ - كتاب - المفضل بن عمر الذي رواه عن الصادق في معرفة وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفلي وإظهار أسراره.
- ٣٤٤ - كتاب مكتوب عليه: (كتاب جميع ما استخرجته من آراء العلماء في مازجة الكواكب وأعمالها - للفضل بن يحيى.
- ٣٤٥ - كتاب - موسى بن القاسم البجلي.
- ٣٤٦ - كتاب - النعمان المؤرخ لفضائل الخلفاء المصريين المنسوبين إلى إسماعيل بن مولانا الصادق (ع).
- ٣٤٧ - كتاب - يحيى بن زياد المعروف بالفراء^(١)، رواية سلمة بن عاصم عن ثعلب، مجلد فيه سبعة أجزاء، عليه إجازة تاريخها سنة ٤٠٩هـ^(٢).
- ٣٤٨ - كتاب - يعقوب بن نعيم، نسخة عتيقة لعلها كتبت في حياته، عليها خط السعيد الراوندي^(٣).
- ٣٤٩ - كراس لقطب الدين الراوندي ذكر فيه نحو ٩٥ مسألة وقع الاختلاف فيها بين المفيد والشريف المرتضى.

(١) يعني به كتاب (معاني القرآن) الذي نشرت دار الكتب المصرية مجلده الأول.

(٢) سعد السعود: ٢٦٠.

(٣) الملاحم والفتن: ١٠١.

- ٣٥٠ - الكشاف عن حقائق التنزيل - للزمخشري .
 ٣٥١ - الكشف والبيان في تفسير القرآن - لأبي إسحاق الثعلبي .
 ٣٥٢ - كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب - للكنجي الشافعي .
 ٣٥٣ - كمال الدين وتمام النعمة - لابن بابويه الصدوق .
 ٣٥٤ - كمال الزيارات - لمحمد بن أحمد بن داوود .
 ٣٥٥ - كنز الفوائد - للكراجكي .
 ٣٥٦ - كنز اليواقيت - للهروي .

حرف اللام

- ٣٥٧ - لطائف المعارف - لعبد الله بن محمد بن طاهر .
 ٣٥٨ - لمح البرهان - للمفيد .

حرف الميم

- ٣٥٩ - المأثور من العمل في الشهور - لعلي بن عبد الواحد بن علي بن جعفر النهدي الحميري .
 ٣٦٠ - ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) رواية أبي أحمد عبد العزيز بن يحيى بن أحمد الجلودي، في مجلد فيه تصانيف لغيره .
 ٣٦١ - المباهلة لأبي المفضل محمد بن عبد الله بن المطلب الشيباني .
 ٣٦٢ - المبتدأ لمحمد بن خالد البرقي .
 ٣٦٣ - المبتدأ - لوهب بن منه .

- ٣٦٤ - المبعث وغزوات النبي (ص) - لعلي بن إبراهيم بن هاشم، نسخة عتيقة تاريخها سنة ٤٠٠هـ^(١).
- ٣٦٥ - متشابه القرآن - لأبي عمر أحمد بن محمد البصري الجلال.
- ٣٦٦ - متشابه القرآن - لعبد الجبار بن أحمد الهمداني، وكأن النسخة كتبت في حياة مؤلفها.
- ٣٦٧ - المثالب - لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
- ٣٦٨ - مجاز القرآن - لأبي عبيدة معمر بن المثنى.
- ٣٦٩ - مجلدٌ جاء في خطبته: هذا كتابٌ جمعتُ فيه ما استفدته في مجلس الشيخ أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد المقرئ.
- ٣٧٠ - مجلدٌ كبير في مسائل وتصانيف للمفيد والمرضى.
- ٣٧١ - مجموعٌ بخط أبي الحسين محمد بن هارون التلعكبري.
- ٣٧٢ - مجموعٌ لأحمد بن الحسين بن سليمان.
- ٣٧٣ - مجموعٌ لمحمد بن الحسين المرزبان.
- ٣٧٤ - مجموعٌ عتيق.
- ٣٧٥ - مجموعٌ عتيق، قاله أكبر من الربع.
- ٣٧٦ - مجموعٌ قديم ذكر ناسخه وهو مصنفه أن اسمه محمد بن محمد بن عبد الله بن فاطر.
- ٣٧٧ - المجموع اللطيف - ليوّرام بن أبي فراس.
- ٣٧٨ - المحاسن - لأحمد بن محمد البرقي.
- ٣٧٩ - المحبر - لمحمد بن حبيب النحوي.

- ٣٨٠ - مختصر الأربعين في مناقب أهل البيت الطاهرين: تخريج الشيخ يوسف بن أحمد بن إبراهيم البغدادي.
- ٣٨١ - مُختَصَر تفسیر الثعلبي.
- ٣٨٢ - مختصر تهذيب الشيعة - لمحمد بن [أحمد بن] ^(١) الجنيد.
- ٣٨٣ - مختصر كتاب محمد بن العباس بن علي بن مروان، مجلد واحد، قالب الربع، مجهول المؤلف.
- ٣٨٤ - مختصر المعارف - لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجامي، نسخة صحيحة تاريخ كتابتها جمادى الأولى سنة ٥٢٣هـ ^(٢).
- ٣٨٥ - المختصر من المنتخب - مجهول المؤلف.
- ٣٨٦ - المدخل - للنقاش.
- ٣٨٧ - المدخل في علم النجوم - لنصر بن الحسن القمي.
- ٣٨٨ - مراتب العلوم وترتيب السعادات - لابن مسكويه.
- ٣٨٩ - المرشد - لابن بابويه، نسخة عليها خط الفقيه قريش بن السبيع [بن] مهنا العلوي.
- ٣٩٠ - المرشد إلى التوحيد والمنقذ من التقليد - لسديد الدين محمود بن علي الحمصي، وقد يُسمّى أيضاً (التعليق العراقي). ألّفه مؤلّفه لما قدم إلى العراق في طريقه إلى الحج ومرّ بالحلة، فالزمه ورّام بن أبي فراس - جد صاحب الخزانة - بالإقامة هناك فمكث سنة كاملة أنجز فيها مؤلّفه هذا، وعلى النسخة خط مؤلفها المتضمن قراءتها عليه ^(٣). فرغ من تأليفه سنة ٥٨١هـ.
- ٣٩١ - مرعاة الشعر - للمرزباني.

(١) الزيادة من معالم العلماء: ٨٧.

(٢) الطرائف: ٤٧.

(٣) فرج المهموم: ٧٥ - ٨٠.

- ٣٩٢ - مروج الذهب - للمسعودي .
- ٣٩٣ - المسائل وأجوبتها من الأئمة .
- ٣٩٤ - مسائل الرجال - لمولانا أبي الحسن علي بن محمد الهادي (ع) .
- ٣٩٥ - مسائل الصباح بن نصر الهندي لعلي بن موسى الرضا (ع) ، رواية أبي العباس بن نوح وأبي عبد الله محمد بن أحمد الصفواني ، نسخة عتيقة ربما كانت كتبت في حياتهما^(١) .
- ٣٩٦ - كتاب المستغيثين .
- ٣٩٧ - مشايخ الشيعة - لأبي العباس أحمد بن عقدة .
- ٣٩٨ - المشكل - لابن قتيبة^(٢) .
- ٣٩٩ - المشيخة - للحسن بن محبوب .
- ٤٠٠ - المصاييح - لأحمد بن إبراهيم الحسيني .
- ٤٠١ - مصاييح النور - للمفيد .
- ٤٠٢ - مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة - عن الصادق (ع) .
- ٤٠٣ - مصباح المتعبد - المصباح الكبير - لمحمد بن الحسن الطوسي .
- ٤٠٤ - مصحف خاتم ، قطع الثلث ، واضح الخط .
- ٤٠٥ - مصحف خاتم ، ثمن الورقة الكبيرة ، عتيق .
- ٤٠٦ - مصحف خاتم ، قاله ربع الورقة ، جديد .
- ٤٠٧ - مصحف معظم مكمل ، أربعة أجزاء .

(١) فرج المهموم: ٩٤ .

(٢) لعله (مشكلات القرآن) .

- ٤٠٨ - مصحف معظم تام، أربعة أجزاء.
- ٤٠٩ - مصحف لطيف، يصلح للتقليد.
- ٤١٠ - مصحف لطيف، يصلح للتقليد أيضاً.
- ٤١١ - مصحف لطيف قلّده لولده محمد لما انحدر معه إلى (سورا).
- ٤١٢ - مصحف وهبه لولده محمد وهو في المهد، وذلك قبل وقف المكتبة.
- ٤١٣ - مصحف وقفه على ولده علي، يصلح للتقليد.
- ٤١٤ - مصحف قديم، يقال إنه قرأه (قراءة) عبد الله بن مسعود.
- ٤١٥ - مصحف لطيف للتقليد.
- ٤١٦ - مصحف لطيف للتقليد أيضاً.
- ٤١٧ - مطالب السؤل في مناقب (آل) الرسول - لمحمد بن طلحة الحلبي.
- ٤١٨ - معالم الدين - لأبي طاهر محمد بن الحسن النرسي.
- ٤١٩ - معالم العلماء - لابن شهرآشوب.
- ٤٢٠ - معاني الأخبار - للحسن [بن عبد الله] بن سعيد العسكري صاحب كتاب المواعظ والزّواجر، تاريخ الفراغ من نسّخه سنة ٣٣١هـ^(١).
- ٤٢١ - معاني القرآن - لعلي بن سليمان الأخفش.
- ٤٢٢ - معاني القرآن - لمحمد بن جعفر المروزي.
- ٤٢٣ - المعجزات - [لابن] هبة الله الراوندي.
- ٤٢٤ - معجم البلدان - لياقوت الحموي.

- ٤٢٥ - المعرفة - لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي، الذي انتقل من الكوفة إلى أصفهان لأجل كتابنا هذا، أربعة أجزاء، كتبت على الظاهر في حياة المؤلف^(١).
- ٤٢٦ - المعرفة - لابن مندة.
- ٤٢٧ - المعرفة - لأبي سعيد عبّاد بن يعقوب الرواجني.
- ٤٢٨ - مقاتل الطالبين - لأبي الفرج الأصفهاني.
- ٤٢٩ - مقتضب الأثر في إمامة الاثني عشر - لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن عباس، وهو نحو أربعين ورقة.
- ٤٣٠ - مقتل الحسين - لمعمر بن المثنى.
- ٤٣١ - مقدمات علم القرآن - لمحمد بن بحر الرهني.
- ٤٣٢ - المقنع - لابن بابويه، نسخة كتبت في زمانه^(٢).
- ٤٣٣ - المقنعة - للمفيد.
- ٤٣٤ - الملاحم - لابن المنادي.
- ٤٣٥ - الملخص - لمحمد بن عمر الرازي، ومات الرازي وهو مُسوّدة بخطه نحو ثلاثين كراساً.
- ٤٣٦ - ملل الإسلام وقصص الأنبياء - لمحمد بن جرير الطبري.
- ٤٣٧ - مَنْ قَدَّمَهُ علمه - لهلال بن المحسن الصابي.
- ٤٣٨ - مَنْ لا يحضره الفقيه - لابن بابويه الصدوق.
- ٤٣٩ - المنار في علم مواقيت الليل والنهار - للمبارك بن الحسين بن طراد المارديني.

(١) سعد السعود: ٧ واليقين: ٣٨.

(٢) الإقبال: ٦٦٨.

- ٤٤٠ - مناسك الزيارات للمفيد، نسخة كتبت في حياة المؤلف، وفي آخرها ورقة عليها تعاليق^(١).
- ٤٤١ - المناقب - لابن شهر آشوب.
- ٤٤٢ - المناقب - للحافظ أحمد بن موسى بن مردويه.
- ٤٤٣ - المناقب - لأبي الحسن علي بن محمد [بن] الطيّب المعروف بابن المغازلي.
- ٤٤٤ - المناقب لأهل البيت (ع) - لمحمد بن جرير الطبري، رتبته أبواباً على حروف المعجم.
- ٤٤٥ - المناقب - لموفق بن أحمد الخوارزمي.
- ٤٤٦ - مناقب الإمام الهاشمي أبي الحسن علي بن أبي طالب (ع) - رواية أبي عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي صاحب ثعلب، وربما كانت النسخة في حياة أبي عمر الزاهد الراوي لها^(٢).
- ٤٤٧ - مناقب علي بن أبي طالب (ع) وفضائل بني هاشم، نسخة عتيقة يقارب تاريخها ثلاثمائة سنة، رواية محمد بن يوسف المقرئ^(٣).
- ٤٤٨ - المنبىء عن زهد النبي (ص)، عليه خط ورّام بن أبي فراس^(٤).
- ٤٤٩ - المنتخب.
- ٤٥٠ - المنتظم - لأبي الفرج ابن الجوزي.

(١) محاسبة الناس: ٢٢.

(٢) الملاحم والفتن: ١١.

(٣) اليقين: ٢٠٠.

(٤) الأمان: ٩٢.

- ٤٥١ - كتاب المنجمين - لمحمود بن محمد بن الفضل .
- ٤٥٢ - منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة - لقطب الدين الراوندي .
- ٤٥٣ - منية الداعي وغنية الواعي - لعلي بن محمد بن علي بن الحسين بن عبد الصمد التميمي .
- ٤٥٤ - مواليد الأئمة - لنصر بن علي الجهضمي .
- ٤٥٥ - المواليد - لعمر بن فرحان العبدي^(١) .
- ٤٥٦ - المواليد والاختيارات - لأبي الحسن علي بن أحمد العمراني .
- ٤٥٧ - المواليد - لأبي علي المعروف بالخياط .
- ٤٥٨ - مولد أمير المؤمنين (ع) - لأبي العلا الهمداني .
- ٤٥٩ - مولد علي بالبيت - لابن بابويه الصدوق .
- ٤٦٠ - مولد النبي والأوصياء - للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، وهو غير الإرشاد^(٢) .
- ٤٦١ - المولى (الموالي) - لمحمد بن معية .

حرف النون

- ٤٦٢ - الناسخ والمنسوخ - [لهبة الله بن سلامة بن]^(٣) نصر بن علي البغدادي .
- ٤٦٣ - النبوة - دلائل النبوة - لابن بابويه الصدوق .

(١) كذا في فرج المهموم: ٢٠٤، وأظنه من أخطاء النسخ، وصوابه - عمر بن حفص بن فرحان البغدادي .

(٢) فرج المهموم: ٢٢٤، والملهوف: ٢٨، والإقبال: ٥٩٨ .

(٣) الزيادة من كشف الظنون: ١٩٢١/٢ .

- ٤٦٤ - الندا الصيني، الذي عمله كيشتا ملك الهند وذكر فيه دلالة النجوم على نبوة محمد (ص).
- ٤٦٥ - نزهة الكرام وبستان العوام - لمحمد [بن عمر] بن الحسين الرازي - بالفارسية - .
- ٤٦٦ - ترجمة الكتاب السابق إلى العربية.
- ٤٦٧ - نسب الخيل - لمحمد بن صالح مولى جعفر بن سليمان.
- ٤٦٨ - النشر والطي.
- ٤٦٩ - نشوار المحاضرة - للتنوخي.
- ٤٧٠ - النكت في إعجاز القرآن - لعلي بن عيسى الرّماني.
- ٤٧١ - نسخة أخرى منه.
- ٤٧٢ - نسخة أخرى منه.
- ٤٧٣ - النهاية - لمحمد بن الحسن الطوسي، عليها إجازة بخط محمد بن نما^(١).
- ٤٧٤ - نهاية المطلب وغاية السؤل في مناقب آل الرسول - لإبراهيم بن علي بن محمد الدينوري.
- ٤٧٥ - نهج البلاغة - للإمام علي بن أبي طالب (ع).
- ٤٧٦ - نهج الحق - للمفيد.
- ٤٧٧ - نهج النجاة في فضائل أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين من ذريته - للحسين بن محمد الحلواني، نسخة تاريخ كتابتها جمادى الأولى سنة ٣٧٥هـ، وظاهر حالها أنها قد كتبت في زمان مصنفها، ولعلها بخطه^(٢).

(١) كشف المحجة: ١٣٠.

(٢) اليقين: ١٤٠.

٤٧٨ - نواذر الحكمة - لمحمد بن أحمد [بن يحيى بن عمران]^(١) بن عبد الله القمي .

حرف الواو

- ٤٧٩ - الواحدة - لمحمد [بن الحسن]^(٢) بن جمهور القمي .
- ٤٨٠ - الوجيز في شرح آراء القراء الثمانية المشهورين - للحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي .
- ٤٨١ - الوزراء - لعلي بن عبد الله .
- ٤٨٢ - الوزراء - لمحمد بن يحيى الصولي^(٣) .
- ٤٨٣ - الوسيلة إلى نيل الفضيلة .
- ٤٨٤ - الولاية - للحافظ أبي العباس أحمد المعروف بابن عقدة، نسخة كتبت في زمان المؤلف تاريخها سنة ٣٣٠هـ، صحيحة النقل، عليها خط الطوسي وجماعة من شيوخ الإسلام^(٤) .
- ٤٨٥ - الولاية - لمحمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ .

حرف الياء

٤٨٦ - الباقوت الأحمر - لأحمد بن الحسين الأهوازي .

(١) الزيادة من رجال النجاشي: ٢٤٠.

(٢) الزيادة من معالم العلماء: ٩٢.

(٣) في فرج المهموم: ١٩٣ (يحيى بن محمد)، والتصحيح من الكنى والألقاب: ٢/ ٣٩١.

(٤) الإقبال: ٤٥٣.

٤٨٧ - ياقوتة الصراط، مجلد لطيف، ثمن القالب.

٤٨٨ - يتيمة الدهر - للثعالبي.



وإلى هنا ينتهي ما أردتُ إثباته في هذا الصدد، آملاً أن يكون ذلك دليلاً صادقاً يأخذ بأيدي الباحثين إلى معرفة السيد علي آل طاووس وما كانت تضمّه خزّانة كتبه من نوادر الكتب ونفائس التراث الفكري العربي وأخيراً دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



ملحق البحث

ذكر السيد علي آل طاووس في أثناء مؤلفاته كتباً كان قد شاهدها أو استعارها من المكتبات العامة القائمة في عصره نذكرها في أدناه:

١ - الأربعين - لأحمد بن إسماعيل بن يوسف القزويني، في مدرسة أم الخليفة الناصر^(١).

٢ - الأربعين - جمع الشيخ العالم الصالح أبي عبدالله محمد بن مسلم بن أبي الفوارس الرازي. في الخزانة النظامية العتيقة^(٢).

٣ - الرسالة الموضحة - تأليف المظفر بن جعفر بن الحسين، بخط مصنفها، في الخزانة العتيقة النظامية^(٣).

٤ - كتاب قاله نصف الورقة، عتيق، يتضمن فضائل أمير المؤمنين علي (ع) - تأليف أبي القاسم علي بن عبد العزيز بن محمد النيشابوري^(٤) في خزانة مولانا علي (ع) بالنجف الأشرف.

٥ - كتاب - تأليف أبي جعفر محمد بن حبيب، تاريخ كتابته ما هذا

(١) اليقين: ١٩٧.

(٢) اليقين: ٦٣.

(٣) اليقين: ١٢٥.

(٤) فرج المهموم: ٩٢.

لفظه: (وكتب عمر بن ثابت في شهر رمضان سنة ٣٧٣هـ)
بالمدرسة المستنصرية^(١).

٦ - كتاب الفتن - لأبي يحيى زكريا بن يحيى بن الحارث البزاز، تاريخ
كتابه سلخ شهر ربيع الأول سنة ٣٩١هـ استعمرته من وقف
النظامية^(٢).

٧ - كتاب الفتن - للسليبي بن أحمد بن عيسى بن شيخ الحسائي (كذا)،
تاريخ كتابته سبع وثلاثمائة، بخط مصنفه، في المدرسة المعروفة
بالمزكي (التركي) بالجانب الغربي من واسط^(٣).

٨ - مجموع عتيق لعل تاريخ نسخه منذ مائتين من السنين. خاص
بالخزانة الظافرية^(٤).

٩ - كتاب الملاحم - للبطائني، نسخة عتيقة، بخزانة مشهد
الكاظم (ع)^(٥).



(١) الإقبال: ٣٠٦.

(٢) الملاحم والفتن: ٣ و ١١٣، ونقل منه نصوصاً وافية في كتاب الملاحم ١١٣ -
١٣٤.

(٣) الملاحم والفتن: ٧٠، ونقل منه نصوصاً أو نقله بأجمعه في كتاب الملاحم
نفسه: ٧١ - ١١٢.

(٤) اليقين: ١٤٢.

(٥) الإقبال: ٥٩٩.

المصادر والمراجع

- ١ - أمل الآمل - لمحمد بن الحسن الحر العاملي طهران ١٣٠٤هـ.
- ٢ - البحار - لمحمد باقر المجلسي (الجزء الخامس والعشرون):
طهران ١٣١٥هـ.
- ٣ - بغداد قديماً وحديثاً - لمصطفى جواد وأحمد سوسة: بغداد
١٩٥٨م.
- ٤ - تاريخ الفخري - لابن الطقطقي: القاهرة ١٩٣٨م.
- ٥ - الحوادث الجامعة - المنسوب لابن القوطي: بغداد ١٣٥١هـ.
- ٦ - خزائن الكتب القديمة في العراق - لكوركيس عواد: بغداد
١٩٤٨م.
- ٧ - الذريعة - لآقا بزرك الطهراني: النجف وطهران ١٣٥٥هـ وما
بعدها.
- ٨ - ذيل كشف الظنون - لإسماعيل باشا البغدادي: استانبول ١٩٤٥م.
- ٩ - الرجال - لأبي العباس النجاشي: الهند ١٣١٧هـ.
- ١٠ - شذرات الذهب - لأبي الفلاح الحنبلي: القاهرة ١٣٥٠هـ.
- ١١ - عمدة الطالب - لابن عتبة الداوودي: النجف ١٣٣٧هـ.
- ١٢ - الفوائد الرضوية - لعباس القمي: طهران ١٣٢٧ هـش.

المحتويات

تصدير لمعالي الأستاذ الكبير العلامة الشيخ محمد رضا الشيباني ... ٧

الصَّاحِبُ بن عَبَّاد

حياته وأدبه

١١	مقدمة
١٧	القسم الأول: سيرته
١٧	اسمه ونسبه وكنيته
١٩	لقبه
٢٤	تاريخ ولادته
٢٧	آبائُه وأمه
٣٥	موطن الصاحب ومسقط رأسه
٤١	وفاته
٤٩	أخلاقه وملكاته
٤٩	تقديم
٥٦	عجبه بنفسه
٦٠	تواضعه
٦٣	حلمه وسعة صدره
٦٧	كرمه وصلاته
٧٢	عداؤه للشعوبية
٧٥	مذهبه الديني

٨٢ ما يدل على اعتزاله
٨٤ ما يدل على تشييعه
٩٣ القسم الثاني: قبل الوزارة
٩٣ تمهيد
١٠٠ منصب الكتابة
١٠٨ بعد الوزارة
١٠٨ في عهد مؤيد الدولة
١١٤ في عهد فخر الدولة
١٢٤ عظمة الصاحب وسمو مقامه
١٣٤ القسم الثالث: شيوخه وأساتذته
١٤٨ معارفه
١٤٩ التفسير
١٥٣ الحديث
١٥٦ الكلام
١٦٣ اللغة
١٦٧ النحو
١٦٩ العروض
١٧٢ النقد الأدبي
١٨٣ التاريخ
١٨٦ الطب
١٨٨ مؤلفاته
١٩٠ أ - مؤلفات الصاحب الموجودة
١٩٠ ١ - الإبانة
١٩٣ ٢ - الإقناع
١٩٨ ٣ - الأمثال السائرة

- ٤ - التذكرة ٢٠٢
- ٥ - ديوان شعره ٢٠٤
- ٦ - رسائل الصاحب ٢٠٧
- ٧ - رسالة في أحوال عبد العظيم ٢١١
- ٨ - رسالة في الطب ٢١٣
- ٩ - رسالة في الهداية والضلالة ٢١٤
- ١٠ - عنوان المعارف ٢١٦
- ١١ - الفرق بين الضاد والطاء ٢١٨
- ١٢ - الكشف عن مساويء شعر المتنبي ٢٢٠
- ١٣ - المحيط ٢٢٣
- ١٤ - المنظومة الفريدة ٢٢٧
- ب - مؤلفات الصاحب المفقودة «التي روت كتب الأدب والتاريخ بعض نصوصها»
- ١٥ - الأنوار ٢٣٠
- ١٦ - الروزنامجة ٢٣٠
- ١٧ - السفينة ٢٣٣
- ١٨ - نهج السيل ٢٣٤
- ج - مؤلفات الصاحب المفقودة
- ١٩ - أخبار أبي العيناء ٢٣٦
- ٢٠ - أسماء الله وصفاته ٢٣٦
- ٢١ - الأعياد وفضائل النيروز ٢٣٦
- ٢٢ - الإمامة ٢٣٧
- ٢٣ - تاريخ الملك واختلاف الدول ٢٣٧
- ٢٤ - التعليل ٢٣٧
- ٢٥ - جوهرة الجمهرة ٢٣٨

٢٣٨	٢٦ - الحجر
٢٣٨	٢٧ - الزيدية
٢٣٩	٢٨ - الشواهد
٢٣٩	٢٩ - الفصول المهدبة للعقول
٢٣٩	٣٠ - القضاء والقدر
٢٣٩	٣١ - الوزراء
٢٣٩	٣٢ - الوقف والابتداء
٢٤٠	كتب أخرى
٢٤٠	١ - الزيديين
٢٤٠	٢ - الكافي في الترسل
٢٤١	٣ - المقصور والممدود
٢٤١	٤ - نقض العروض
٢٤٢	القسم الرابع:
٢٤٢	رأي الأدباء القدامى في أدب الصاحب
٢٤٤	رأي الأدباء المحدثين
٢٤٦	الأدب في القرن الرابع
٢٤٨	نثر ابن عبّاد
٢٥٦	شعر ابن عبّاد

محمّد بن محمّد بن النعمان

الشيخ المضيد

٢٧١	[مولده]
٢٧٣	[الذين قرأ عليهم وروى عنهم]
٢٧٧	[عصره ونفيه]
٢٧٨	[من كتب عنه]

٢٨١	[حياته الخاصة وصفاته الشخصية]
٢٨١	[مصنفاته ومؤلفاته]
٢٨٣	[مناظراته]
٢٨٤	[وفاته]
٢٨٥	[في رثائه]
٣٢٥	منهج الطوسي في تفسير القرآن

السيد علي آل طاووس ٥٨٩ - ٦٦٤ هـ

٣٤٠	فضله وآثاره
٣٤٨	خزانة كتبه
٣٥٠	حرف الألف
٣٥٥	حرف الباء
٣٥٦	حرف التاء
٣٦٢	حرف الثاء
٣٦٢	حرف الجيم
٣٦٤	حرف الحاء
٣٦٥	حرف الخاء
٣٦٥	حرف الدال
٣٦٧	حرف الذال
٣٦٧	حرف الراء
٣٦٩	حرف الزاي
٣٧٠	حرف السين
٣٧١	حرف الشين
٣٧١	حرف الصاد
٣٧٢	حرف الطاء

٣٧٢	حرف العين
٣٧٤	حرف الغين
٣٧٤	حرف الفاء
٣٧٦	حرف القاف
٣٧٧	حرف الكاف
٣٨٠	حرف اللام
٣٨٠	حرف الميم
٣٨٧	حرف النون
٣٨٩	حرف الواو
٣٨٩	حرف الياء
٣٩١	ملحق البحث
٣٩٣	المصادر والمراجع
٣٩٥	المحتويات

